جامعة الجزائر
كلِّيَّة العلوم الإسلامية
قسم العقائد والأديان

مقاصد العقائد عند

الشيخ الطاهر بن عاشور

رسالة مُقدَّمة لِنَيْلِ درجة الماجستير في العلوم الإسلامية

تخصُّص: عقيدة

إعْدَادُ الطَّالِب: عبد الرؤوف تاج الدين صوان

أعضاء لجنة المناقشة

اسم ولقب الدكتور	اسم الكلية	الدرجة العلمية
أ.د عمار جيدل	كلية العلوم الإسلامية ـ الخروبة	رئيسا
د. عبد الرزاق دحمون	كلية العلوم الإسلامية ـ الخروبة	مقررا
د.عبد الغني عكاك	كلية العلوم الإسلامية ـ الخروبة	عضوا

السنة الجامعية (1437 هـ ـ 1438 هـ) // (2016م ـ 2018م)

جامعة الجزائر
كلِّيَّة العلوم الإسلامية
قسم العقائد والأديان

مقاصد العقائد عند

الشيخ الطاهر بن عاشور

رسالة مُقدَّمة لِنَيْلِ درجة الماجستير في العلوم الإسلامية

تخصُّص: عقيدة

إعداد الطَّالِب: عبد الرؤوف تاج الدين صوان

أعضاء لجنة المناقشة

اسم ولقب الدكتور	اسم الكلية	الدرجة العلمية
أ.د عمار جيدل	كلية العلوم الإسلامية ـ الخروبة	رئيسا
د. عبد الرزاق دحمون	كلية العلوم الإسلامية ـ الخروبة	مقررا
د.عبد الغني عكاك	كلية العلوم الإسلامية ـ الخروبة	عضوا

السنة الجامعية (1437 هـ 1438 هـ) // (2016 م ـ 2017)

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى وَالِدَيَّ الكريمين الَّذَيْنِ كان لهما الفضل بعد الله عز وجل في مواصلة الدراسة والتطلّع إلى آفاق جديدة، وإخوتي وأخواتي، وجميع أفراد عائلة صوان وبوزنون.

إلى زوجتي الكريمة أُمّ سلمى وعائلة بلقاسم.

إلى جميع أساتذتي الكرام الذين تشرَّفْتُ بالدراسة عليهم.

إلى كل أبناء حيي وأهل مسجد (السلام)، إلى كل هؤلاء أهدي هذا العمل المتواضع، والحمد لله رب العالمين.

شُكْرٌ وَتَقْدِيرٌ

قَالَ النَّبِيُّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ: « مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يُشْكُرِ اللهَ »

بَعْدَ حَمْدِ اللهِ تَعَالَى وَشُكْرِهِ، وَالصَّلاَةِ وَالسَّلاَمِ عَلَى أَفْضَلِ خَلْقِهِ وَرُسُلِهِ، أشكر الله عز وجل على ما مَنَّ به عَلَيَّ مِنْ إتمام هذا البحث.

والشكر الجزيل موصول لأستاذي الكريم الدكتور عبد الرزاق دحمون الذي كان له أكبر الفضل ـ بعد الله عز وجل ـ على إتمام هذا البحث، فقد كان حريصا على إتمامه وإخراجه في أفضل ما يمكن في جميع الجوانب المنهجية والعلمية النظرية.

كما لا أنسى جميع أفراد عائلتي بدءا بوالدي الكريمين وزوجتي، وكذلك عُمَّال الجامعة العاملين بالمكتبة الذي سهَّلوا لي عملية البحث.

وَآخِرُ دَعْوَانَا أَن الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَصَلَّى اللهُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ.

مقدمة:

إنّ الحمد لله نحمده، ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

يقول الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ**﴾ [آل عمران: 102].

ويقول تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً**﴾ [النساء: 1].

ويقول تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا، يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيمًا**﴾ [الأحزاب: 70].

أما بعد:

فإنّ العالم الإسلامي كان ولا زال يعاني من التخلف في شتى المجالات، مما جعل البلدان الإسلامية عرضة للتيارات والمذاهب التي تهدِّد استقرارها، سواء على الأمة جمعاء، أو على مستوى كل دولة على حدى، وكيف يشقى المسلمون وعندهم كل الوسائل والسبل التي تكفل لهم السعادة والقوة في الحياة الدنيا والفلاح في الآخرة؟!.

وإنّ أخطر شيء حصل للأمة هو بعدها عن المعين الصافي وسوء فهمها للعقيدة الإسلامية، إذ هي الأصل الذي يُبنَى عليه غيرُه؛ فالعقيدة هي الفقه الأكبر، والتشريع بأقسامه من عبادات ومعاملات هو فرع عنه.

ومما يحتاج إلى مزيد من الإيضاح في درسِ العقيدةِ الجانبُ المقاصديُّ، إذ أنَّه ثمرة العقيدة وفائدتها؛ فالعقيدة المبنية على معرفة العلل والغايات، يرتفع بها أصحابها درجات في الدنيا والآخرة.

وعلى الرغم من وجود الأصول التي تُعَدُّ لبناتٍ لهذا العلم لدى بعض جهابذة العلماء، من سلف الأمَّة وخلفها، ووجود بعض الاجتهادات والبحوث الأكاديمية لبعض الباحثين

المعاصرين التي ركَّزَت على الجانب المقاصدي للعقائد الإيمانية، والتي تَصُبُّ في الغرض نفسه، أَلَا وهو التأصيلُ والتقعيدُ والضبطُ لأصولِ هذا العلم الجليل، إلَّا أنها لم تلق حضها من الدراسة والإيضاح.

1 ـ أسباب اختيار الموضوع:

إنّ اختياري لهذا الموضوع نابع من أسباب عديدة وقناعات متنوعة، يمكنني بيانها في الناحيتين الآتيتين، وهما:

أولا: الأسباب الموضوعية، وتتلخّص فيما يأتي:

أ ـ الرغبة في الاستفادة من علماء المغرب العربي الإسلامي الكبير.

ب ـ محاولة تبسيط المسائل العقدية، ببيان العلل والغايات التي استنبطها أهل العلم من كتاب الله وسنة رسوله.

د ـ أهمية الموضوع لأنه يدرس حظ المكلف من التكليف بعقائد الإسلام.

ثانيا: الأسباب الذّاتية، وهي:

أ ـ أنّ هذا البحث يدخل في استكمال متطلَّبَات الحصول على درجة الماجيستير.

ب ـ النصائح السديدة والإرشادات الدقيقة التي اسْتَفَدْتُهَا وحفظتها من أساتذتنا، والتي رغَّبتني في خوض هذا المجال لأستفيد منه.

2 ـ إشكالية البحث:

واخترت لهذا البحث إشكالية تتمثل في بيان العلاقة بين العلم والعمل أو بعبارة أخرى بين العقيدة من جهة والعبادة والسلوك من جهة أخرى.

3 ـ أهمية الدراسة:

إنّ موضوع (**مقاصد العقيدة**) من القضايا الأساسية التي ينبغي أن تنال حظّها من اهتمام طلبة العلم، على الرغم من جهود البعض في توضيحها وبيانها أسرارها، ولهذا اخترت هذا الموضوع لدراستي، كونه يرتكز على نقاط في غاية الأهمية ـ حسب رأيي ـ، وهي كما يأتي:

1 ـ أهمية هذا البحث في تناوله موضوع (**مقاصد العقيدة**)، وهو من القضايا التي تكثر حاجة الأمَّة إليها، لما فيها من الفوائد الجليلة التي يعود خيرها على الفرد والمجمتع.

2 ـ دعوة أهل الاختصاص من الذين اهتموا بـ(**علم المقاصد**)، كالشيخ الريسوني، والدكتور جاسر عودة، وغيره من العلماء، إلى التأليف فيه، جلبا للمصالح ودفعا للمفاسد والشرور، خاصَّة مع تطوَّر التقنيات، وسهولة نقل المعلومات، وانتشارها، وظهور الاضطراب في الآراء العقدية، واستخدام نصوص العقيدة لخدمة التوجُّهَات التي تَمِيلُ إلى إقصاء المخالِف، وتبيح حتَّى دَمِهِ، والتنكيل به، فانتشر الخلاف والتفرُّق في كثير من الأقطار الإسلامية.

3 ـ أهمية الشيخ الطاهر بن عاشور وجهوده الجبارة في هذا المجال.

4 ـ أهداف الدراسة:

إنّ دراستي التي قمتُ بها تهدفُ إلى الكشف عن المعاني الآتية، وهي:

أوَّلا: توضيح مفهوم مقاصد العقيدة الإسلامية.

ثانيا: بيان الجهد الذي قام به عالم من علماء تونس المشهورين، الذي كان له الفضل على وطننا، فقد تخرج عليه كثير من علماء الجزائر.

ثالثا: الإشارة إلى أهمّ المقاصد (الكلِّيَّة) و(العامة)، التي تُعَدُّ بمنزلة الأصول التي تنبني عليها بقية المقاصد: (الخاصة) و(الجزئية).

رابعا: الخروج برؤية شاملة وإدراك تامّ لأهمية وفوائد مقاصد العقائد ودورها في الإصلاح الفردي والجماعي.

خامسا: الربط بين مقاصد الشريعة ومقاصد العقيدة، من حيث المنهج والضبط والاهتمام.

5 ـ الدراسات السابقة:

إنّ هذا الموضوع القيِّم الذي اخترته للدراسة لم أجد من تناوله بالبحث، وأعني به: (**مقاصد العقائد عند العلامة الطاهر بن عاشور**)، وبعد البحث والتنقيب في عناوين الرسائل الأكاديمية الجامعية، وقفت على رسالتين أكاديميتين لهما علاقة بصلب بحثي، وهما:

الأولى: (**مقاصد العقائد عند الإمام العز بن عبد السلام**) للطالب بوطيب عبد القادر، وإشراف: الدكتور عمار جيدل، نوقشت سنة (2013م) بجامعة الجزائر ـ 1 ـ، كلية العلوم الإسلامية بالخروبة ـ الجزائر العاصمة.

وقد تناول الطالب الباحث فيها الجانب المقاصدي للعقيدة الإسلامية، حيث قسَّمَه إلى أربعة فصول، تناول في الفصل الأول منه ترجمة العز بن عبد السلام وبيان بعضا من جوانب حياته؛ وفي الفصل الثاني تحدَّث عن المقصائد العقائدية، والمفهوم الذي تدور حوله حركة مقاصد العقائد؛ وأما الفصل الثالث، فخصصه لعرض جملة من المقاصد العقدية، حسبما تناولها العز بن عبد السلام، بداية من مقاصد التوحيد، إلى مقاصد الإيمان، والثواب والعقاب؛ بينما خصَّص الفصل الرابع لما احتواته آثار تفعيل الفكر المقاصدي في الجانب العقدي، وختم كل فصل بذكر أهم نتائجه؛ واختتم رسالته بحوصلة لأهم النتائج المتَوَصَّلِ إليها.

الثانية: (**مقاصد العقائد عند أبي حامد الغزالي**)، للأستاذ محمد عبدو، وهي أطروحة لنيل درجة الدكتوراه في الدراسات الإسلامية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس ـ المغرب الأقصى، السنة الجامعية: (2001م ـ 2002م)

وتتكوَّن الرسالة من مقدمة وتمهيد وثلاثة أبواب، أشار الباحث في مقدمتها إلى ما تضمنته العقائد من مقاصد كثيرة خفية، يدركها المتأمل في محاسن العقيدة؛ ثم انتقل في الباب الأول إلى بيان إمامة أبي حامد في المقاصد، وذكر تصانيفه، وأنّ وضع العقائد الشرعية إنّما هو لمصالح العباد، وأن الإيمان علم وعمل.

بينما خصَّص الباب الثاني للحديث عن أركان الإيمان، حيث يذهب الإمام إلى أن غاية مقصد الكتاب العزيز في الدنيا إنما هو معرفة الله تعالى، وأن مقصود الشرائع كلها سياق الخلق إلى جوار الله تعالى وسعادة لقائه، وأنه لا وصول لهم إلى ذلك إلا بمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وكتبه ورسله.

وأما الباب الثالث فخصصه لصياغة نظرية مقاصد العقائد عند أبي حامد الغزالي، وبيان طرق الكشف عنها؛ واختتم الباحث دراسته بأن معرفة مقاصد العقائد أعلى المعارف وأشرفها، وأنَّ كمال السعادة بقدر معرفة الله تعالى والاطلاع على أسرار الربوبية، وأن مبنى العقائد جميعًا على رعاية مصالح العباد، ودرء المفاسد عنهم في الدين والدنيا.

6 ـ الجديد في هذه الدراسة:

حاولت في دراستي هذه أن أقدِّم ملامح من فكر الإمام الطاهر ابن عاشور العقدي، من خلال النقاط الآتي ذكرُها، وهي:

أ ـ الكشف عن اهتمام الشيخ الطاهر بن عاشور بمقاصد العقائد في ثنايا كتبه.

ب ـ بيان بعض أسس وضوابط وطرق استنباط المقاصد العقدية، وفوائدها.

جـ ـ عرض نماذج وأمثلة من المقاصد العقدية التي تناولها الإمام ـ رحمه الله ـ حتى يستفيد منها أهل العلم في عصرنا، وخصوصا منهم الدعاة إلى الله عز وجل.

7 ـ منهجية البحث:

اعتمدت في بحثي هذا على المنهج التحليلي لأني رأيته الأنسب للدراسة.

8 ـ الخطة المعتمدة في البحث:

إنّ تعدد مواضيع البحث وتنوع مسائله اضطرني إلى انتهاج خطة علمية أكاديمية رأيتها الأنسب لي، حيث قمت بتقسيمه إلى مقدمة وأربعة فصول وخاتمة.

ففي المقدمة، أشرت إلى أهمية مقاصد العقائد، وبيان الإشكالية التي يقوم عليها الموضوع، والأسباب التي دفعتني إليه، الموضوعية منها والذاتية، ثم الإشارة إلى أهمية هذه الدراسة وأهدافها، وأهم الدراسات السابقة عنها، والجانب المتعلق بالإضافات الجديدة فيه، والمناهج المستخدمة في شرح المسائل والقضايا، مع بيان الخطة المعتمدة، ومنهجيتي التي سرت عليها في دراستي.

وأما الفصل الأول، فقد ترجمت فيه للشيخ الطاهر بن عاشور، وقسَّمته إلى مبحثين: الأول منه خصَّصته للحديث عن بيئته وعصره، والثاني منه خصَّصْتُه لحياته العلمية والعملية.

بينما ركّزت في الفصل الثاني الحديث عن تأصيل موضوع مقاصد العقائد، وجعلته في ثلاثة مباحث، تناولت فيها مفهوم (علم المقاصد)، ومسألة تعليل أفعال الله تعالى، وقواعد هذا العلم ومستويات مقاصده، وكيفية استنباطها، وفوائده، وخطر الجهل به.

وأمَّا الفصل الثالث، فخصَّصْتُه للحديث عن مقاصد العقائد عند الشيخ الطاهر ابن عاشور ـ رحمه الله ـ، حيث بَيَّنْتُ فيه علاقتها بالمقاصد الشرعية، واشتمال العقائد على مقاصد ومصالح، ودور العقيدة في إصلاح العمل وإيجاد الوازع النفسي.

بينما جعلتُ الفصل الرابع خاصًّا بالجانب التطبيقي، حيث أشرت فيه إلى المقصد العامّ للشريعة والمقاصد الكلية للعقائد، ثم الحديث عن المقاصد العامة لها، من خلال ما ذكره الشيخ ـ رحمه الله ـ من مقاصد عقدية لأركان الإيمان الستة، المتعلقة بالإلهيات والنبوات والسمعيات، أتممته بذكر بعض المقاصد العقدية الأخرى.

وختمتُ بحثي ببيان أهمّ النتائج التي توصّلتُ إليها، مع التنبيه إلى جملة من التوصيات المتعلقة به.

9 ـ منهجيتي وعملي في البحث:

انتهجت في إنجاز هذا البحث الذي استفدت منه كثيرا، بعض الخطوات المتبعة في كتابة البحوث الأكاديمية، ويمكنني الإشارة إليها في النقاط الآتية، وهي:

أ) ـ عزو الآيات القرآنية الكريم إلى سورها، مع ذكر رقمها في المتن أعلاه، لجلالة القرآن الكريم وقدسيته.

ب) ـ خرَّجْتُ الأحاديث النبوية الشريفة، بالرجوع إلى مصادرها من كتب الحديث المعتمدة، وبيان حكم العلماء عليها صحة أو ضعفا.

ج) ـ إحالة الآثار الواردة عن سلف الأمَّة إلى مصادرها الأصلية، ما استطعتُ إلى ذلك سبيلا.

د) ـ توثيق النقول الواردة في البحث، وإحالتها إلى أصحابها، بالرجوع إلى مظانّها في الكتب، المصادر منها والمراجع، التي تناولت الفكرة المبحوثة.

هـ ـ ترجمتُ لأهمِّ الأعلام، خصوصا غير المعروفين، ممن لهم علاقة وثيقة بموضوع البحث، باستثناء الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ وكذا الأعلام المعاصرين.

و ـ عرَّفْتُ ببعض المصطلحات التي تحتاج إلى تعريف.

ز ـ أَرْفَقْتُ البحث بفهارس متعلقة بالآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة والأعلام المترجم لهم، والمصادر والمراجع المعتمدة في كتابة البحث وفهرس موضوعاته.

هذه أهمّ الخطوات التي سرت عليها في دراستي حول مقاصد العقائد عند العلامة الطاهر ابن عاشور ـ رحمه الله ـ حاولت فيها قدر المستطاع أن أبرز بعضا من الملامح العلمية

المتعلقة بهذه الشخصية الإسلامية الفذة، خاصة من ناحية العقيدة الإسلامية، فإن وفقت في ذلك، فمن الله سبحانه وتعالى وحده، وإن أخطأت فيها فمن نفسي الخاطئة ومن الشيطان، وأستغفر الله على ذلك.

وتفصيل هذه الملامح يكون في الفصول الأربعة الآتية بتوفيق الله وحسن عونه.

الفصل الأول

ترجمة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: عصر الشيخ محمد الطاهر بن عاشور

المبحث الثاني: حياة الإمام العلمية والعملية

الفصل الأول

عصر وترجمة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور

يعتبر الشيخ الإمام الطاهر بن عاشور علما من أعلام المسلمين، ممن بلغ مرتبة الاجتهاد في الدين، فرسوخه في العلم معروف لمن درس واطلع على كتبه، وهو مجدِّد من المجدِّدين الذين يبعثهم الله على رأس كل مائة سنة، ليجدِّدوا للأمَّة أمْرَ دينِها، فيرجعون بالأمَّة إلى الأصول، ويُحْيُونَ ما انْدَرَسَ من معالم الدين، وينفون عنه تحريف الغالين، وتزييف المبطلين، منَّ الله عليه، بأن جعله من أسرة عريقة في العلم والدين، فاغتنم هذه المواهب والعطايا في تجديد العلوم الشرعية، فكان عالما عاملا قدوة للناس في جميع أقطار المغرب العربي والعالم الاسلامي.

وهذه صفحات تتناول شخصيته بقليل من البيان والتوضيح، ترجمتُ فيها للشيخ، وبيَّنتُ الأوضاعَ السياسية والفكرية قُبَيْلَ وأثناء حياته، والمؤثِّرات الفكرية التي صاغت شخصيَّتَه الفذَّة، وأهمّ أعماله ووظائفه التي تقلَّدها، ومؤلَّفَاتِه، المطبوع منها والمخطوط.

وقد شرحتُ مسائل هذا الفصل وجعلْتُها تحت مبحثين اثنين:

الأول: عصر الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور.

والثاني: حياة الشيخ العملية والعلمية.

وهذا الآن تفصيلها:

المبحث الأول

عصر الشيخ محمد الطاهر بن عاشور

(جمادى الأولى 1296 هـ ـ رجب 1393 هـ)

// (سبتمبر 1879م ـ أوت 1973م)

عاش الشيخُ ـ رحمه الله ـ قريبا من نحو قرن من الزمن، عايش خلالها ثلاث مراحل أساسية في عصره:ـ

الأولى: مرحلة ما قبل الاحتلال[1].

والثانية: مرحلة الاحتلال.

أما الثالثة: فهي مرحلة الاستقلال.

وقد تخلَّلتْ كلّ مرحلة من هذه المراحل العديد من الوقائع والأحداث، التي أثرت في العالمين الإسلامي والعربي، بسبب ما حلّ بالخلافة العثمانية قبل سقوطها، وما أصابها من ضعف، على الرغم من المحاولات الاصلاحية المتأخرة، ودخلت ولاياتها الواحدة منها تلو الأخرى تحت هيمنة الغرب والحكم الأوروبي.

وأطاحت القوات الانفصالية (جمعيةُ الاتحاد والترقي)[2]، و(حزب تركيا الفتاة)[3] بباقي هياكل الخلافة، وزحفت الدول الاستعمارية على البلاد العربية، وتحوّلت الخارطة السياسية

---

(1) إسماعيل الحسني، نظرية المقاصد عند الإمام محمد الطاهر بن عاشور، (ص/75).

(2) هي: جمعية علمانية سرية مناهضة لنظام الخلافة الإسلامية، نشأت (باسم اتحاد عثماني جمعيت) في عام (1889م)، ثم أصبحت منظمة سياسية، أسَّسها بهاء الدين شاكر سنة (1906م)، بين أعضاء أعضاء تركيا الفتاة، أثناء انهيار الدولة العثمانية، وصلت إلى سُدَّة الحكم بعد انقلابها على السلطان عبد الحميد الثاني في (27 أفريل 1909م)، ومن ثم ورَّطَت الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى، مما أدى إلى سقوطها وتقاسم الدول الأجنبية لأراضيها.

(3) هي: اتحاد لمجموعات عديدة من الطلاب العسكريين الأتراك الشباب، مؤيّدة لإصلاح الإدارة في الدولة العثمانية، نقلت البلاد إلى حقبة الدستورية الثانية بواسطة ثورة تركيا الفتاة في عام (1889م)، وامتدت بعدها لتشمل قطاعات أخرى، بدأت ممانعة للسلطة المطلقة للسلطان عبد الحميد الثاني عند تأسيس جمعية الاتحاد والترقي في (1906م)، وقد بَنَت الحركة واقعا جديدا للانشقاقات التي صاغت الحياة الثقافية والسياسية والفنية للخلافة العثمانية في الفترة الأخيرة قبل إلغائها.

للولايات العثمانية، وأصبحت مناطق نفوذ أجنبي فرض نفسه عليها، حين فقدت المَنَعَة الذاتية والحامي والنصير[1].

المطلب الأول: المراحل التي عاصرها الشيخ الطاهر ابن عاشور

المرحلة الأولى: ما قبل الاحتلال

إنّ ما أصاب العالم الإسلامي والعربي في أوائل تلك الفترة، بسبب الوضع الجديد الذي زعزع عاصمة الخلافة، هو أشدّ خطرًا وأبعدُ أثرًا في حصول ذلك التحوّل، فقد أكَّد المؤرِّخون أن الخلافة العثمانية ـ التي كانت أحوالها تسوء يومًا بعد يوم ـ لـمْ تسْعَ بِجِدٍّ إلى تطوير البلاد التابعة لها نحو الأفضل، ولكنها تركتها في الواقع ضحيّة لمشاكلها المزمنة، وأنظِمتِها الاجتماعية الظالمة، حتى إذا جابهتها وجابهت الولايات المرتبطة بها المعركة العاتية ـ معركة التقدّم على كل الجبهات الثقافية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية ـ وجدت السلطنة نفسها في أعقاب الحرب المدمّرة، وإثر المخططات الماكرة، تمثل عالَمًا واسعًا، ممتدًّا بين القارات الآسيوية والأوروبية والإفريقية، يتكوَّن من دول ممزَّقة، وشعوب مفتَّتة، تشكو جميعُها الفقر والجهل والمرض والتخلف وقلة الحيلة [2].

واختار الكماليون[3] الانحسار في حدودهم الترابية التركية الضيّقة، وقطعوا صِلاتهم بشعوب ودول الخلافة، وقامت الجمهورية عقب الإمبراطورية، وتنكّروا لمقوّمات الأمَّة، واندفعوا يقلّدون الغرب دون تريُّثٍ، ويأتمّون به سياسيًّا وفكريًّا واجتماعيًّا واقتصاديًّا، وكأنّهم لـمْ تكن تربطهم صلة بمقوّمات الحضارة العربية الإسلامية، التي دانوا لها وأقاموا عليها قرونًا طوالًا.

---

(1) محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، كتاب مقاصد الشريعة الإسلامية، تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، الناشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ـ قطر، تاريخ النشر: (1425 هـ ـ 2004 م)، (49/1).

(2) انظر: الطاهر بن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، (50/1).

(3) نسبة إلى كمال أتاتورك ومحبّيه ومتّبعي سياسته وفكره الداعي إلى القضاء على الخلافة الإسلامية، وفصل الدين عن الساسية، أو ما يعرف بالعلمانية.

وإذا التَفَتْنَا إلى الولايات أو الإيالات، التي كانت مرتبطة بها ثم انفصلت عنها، لمسنا آثار التطوّرات والأحداث المتسارعة بها صدًى لما كان يجري فيها[1].

وفي تونس التي كان يحكمها من قِبَلِ الدولة العثمانية محمد الصادق باشا[2] باي الثاني عشر للدولة الحسينية، عزَل هذا الحاكم وزيرَه الأكبر المصلح خير الدين باشا[3]، كما فصَله عن رئاسة اللجنة المالية[4].

وانتقل هذا الأخير إلى (الآستانة)[5]، وولي بها رئاسة اللجنة الاقتصادية والمالية، ثم عيّن صدراً أعظم لدولة الخلافة، وبفصله عن مراكز النفوذ في بلاده، واضطراره للاعتزال عنها، والالتحاق بـ(الآستانة)، خَلَا لمنافسيه الجوُّ في معالجة ما تردّت فيه الإيالة من أزمات مالية واقتصادية واجتماعية وصحيّة، وفق ما وضعوه من مخططات وارتأوه من مبادرات مشبوهة.

وهكذا استفحل الأمر بعد ذلك، باختلال ميزان الدولة أكثر مما كان عليه، وبمزيد حرص الباي وحاشيته على الاقتراض من الدول الأوروبية[6].

وفُرضت الجبايات وأنواع الأداءات المجحفة على الشعب، وظهرت الفتن والثورات في أطراف البلاد، وصحب هذا الوضع ازديادُ الغَزْوِ التجاريّ الأوروبيّ في مختلف الجهات، وتعطّل العمل بالتنظيمات التي وضعها خير الدين، لتشمل القضاء والفلاحة والتجارة والاقتصاد والأداءات والأوقاف والتعليم.

---

(1) انظر: الطاهر بن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، (50/1).

(2) هو: محمد الصادق باشا بن حسين باي التونسي، ولد في (7 فيفري 1813م)، هو باي تونس الثاني عشر منذ سنة (1859م)، برز خلال حكمه عهد الأمان الذي ينص على تحقيق العدل بين الرعية، ويؤكد على حقوق الأجانب في المملكة التي ستسمح لهم بالتدخل في الحياة السياسية؛ كما أصدر خلال عهده أول دستور تونسي بدأ العمل به يوم (26 أفريل 1861م)، حيث ينص على تنظيم الحياة السياسية بالفصل بين السلط الثلاث، والحدّ من سلطة الباي الأمر الذي دفع بإلغائه سنة (1864م) في سنة (1881م)، وقع على معاهدة باردو التي تشكل بداية الاستعمار الفرنسي لتونس، توفي يوم (29 أكتوبر 1882م).

(3) هو صاحب كتاب: (أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك)، وسيأتي التعريف به لاحقا عند (ص/).

(4) انظر: الطاهر بن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، (50/1).

(5) هي: عاصمة الخلافة العثمانية، وتُعْرَفُ تاريخيًا باسم (بيزنطة)، و(القُسْطَنْطِيْنِيَّة)، و(إسلامبول).

(6) انظر: الطاهر بن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، (51/1).

وعمت الفوضى البلاد، واكتنفت الناس الحيرة والمخاوف آخر الأمر، بانتصاب الحماية الفرنسية، واستلاب السيادة القومية، وقيام حكم جديد في البلاد، أسَاسُه الطمع والحقد والبغضاء، وآثارُه الاستبداد والمهانة والتبعية [1].

المرحلة الثانية: مرحلة الاحتلال

استمرت هذه المرحلة من سنة (1298هـ) // (1881م)، إلى إعلان الاستقلال، وخروج البلاد من محنتها سنة (1375 هـ) // (1956م).

وقد عرفت البلاد الاسلامية ـ ومنها تونس ـ خلالها جملة من التحولات الكبرى على عدد من الأصعدة، كان أولها ضعف الامبراطورية العثمانية، وتكالب الدول الاستعمارية على بلدان العالم الاسلامي، ونتج عن ذلك ردود أفعال في هذه البلدان، التي واجهت الاستعمار بكلّ الوسائل الممكنة.

ويبدو أن أبرز ردود الأفعال التي عايشها الشيخ ابن عاشور حينها: تلك الثورات الفكرية التي حاولت النهوض بالأمَّة، من ركودها وتخلُّفِها، نذكر منها ـ على سبيل المثال، لا الحصر:

أوَّلًا: الآثار الفكرية والإصلاحية لخير الدين التونسي، والتي كان الأثر الفعّال في حياة الناس بـ(تونس)، إذ تـمّ فيها تحقيق الإنجازات الآتية[2]:

أ) ـ الانتشار الهامّ لدور الطباعة والنشر، ودورهما في تنشيط العمل الإصلاحي في الميدانين الفكري والصحافي[3].

ب) ـ إنشاء كلّ من (جمعية الخلدونية)[4] و(جمعية قدماء الصادقية)[1]، من أجل الاستفادة من علوم العصر الجديد.

---

(1) انظر: الطاهر بن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، (51/1).

(2) انظر: الطاهر بن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، (78/1).

(3) على سبيل المثال: تُعَدُّ طبعة كتاب (الموافقات في أصول الشريعة) للشاطبي، أول طبعة من هذا الكتاب، حيث صدرت بـ(تونس) عام (1302 هـ) //(1884م).

(4) هي: جمعية تأسست على إثر زيارة محمد عبده لـ(تونس)، على يد ثلّة من المثقَّفِين والشبَّان، ترأَّسَها محمد الأصرم، الأصرم، رغبة منهم في التَّنَظُّمِ، وأسوة بجمعية العروة الوثقى، وصدر قانونها الأساسي في (22 ديسمبر 1896م)،

ثانيا: المواجهة المباشرة التي عايشها الشيخ ابن عاشور ـ رحمه الله ـ ضدّ المستدمر الفرنسي، حيث عرف عصره أحداثا هامَّة، نذكر منها[2]:

ـ حادثة الزلاج عام (1912م).

ـ حادثة الترام عام (1912م).

ـ ظهور نواة الحركة النقابية عام (1924م).

ـ الاضرابات الزيتونية من أجل إصلاح التعليم.

ـ تأسيس (الحزب الدستوري الجديد)[3].

حوادث التجنيس.

ـ المطالبة بالاستقلال عن فرنسا في المؤتمر القومي المنعقد في (26 رمضان) سنة (1365 هـ) // (22 أوت 1946م).

واستمرت المواجهة المباشرة مع (فرنسا) إلى أن حصلت (تونس) على استقلالها السياسي، وبذلك تنتهي المرحلة الثانية التي عاصرها العلامة ابن عاشور.

وتعتبر هذه المرحلة أهمّ فترة عايشها الشيخ في حياته، كونها تميَّزَت بعدة أحداث خطيرة، كان لها أكبر الأثر في تكوين شخصيته[4].

المرحلة الثالثة: مرحلة الاستقلال

تُعَدُّ هذه المرحلة أطول زمنًا من الأولى، إذ تميَّزَت بأحداث عديدة وهامَّة، نذكر منها[1]:

كمحاولة لسد الحاجة بضرورة إلمام تلاميذ جامع الزيتونة، بما يحتاج إليه أهل ذلك العصر، من العلوم الفكرية الخارجة عن العلوم الأصلية؛ انظر: تونس رغم الاستعمار، (ص/111).

(1) هي: جمعية أسَّسَها المصلح الكبير خير الدين التونسي في (13 جانفي سنة 1875م)، بغية تدريس العلوم العصرية، وتكوين نخبة تحمل مشعل الاصلاح وتساهم في بناء دولة مؤسساتية، ومجتمع متفتح على العلوم والحداثة ولعل الغاية القصوى لمثل هذا التأسيس تهدف إلى تجنيب وقوع البلاد التونسية تحت وطأة الاستعمار؛ انظر: تونس رغم الاستعمار، (ص/113).

(2) إسماعيل الحسني، نظرية المقاصد عند الإمام محمد الطاهر بن عاشور، المعهد العالمي للفكر الاسلامي، الطبعة الأولى، (1416هـ ـ 1995م)، (ص/78).

(3) هو الحزب الذي قاده ورعاه الرئيس الراحل السابق الحبيب بورقيبة منذ تأسيسه في (2 مارس) عام (1934م).

(4) إسماعيل الحسني، نظرية المقاصد عند الإمام محمد الطاهر بن عاشور، (ص/79).

ـ الإجهاز على التعليم الزيتوني وحلّ أوقافه.

ـ فصل (تونس) عن الفضاء العربي والإسلامي.

ـ الاتّجاه إلى إحياء النعرات القبلية وإحياء التراث القرطاجني، وحتى الروماني.

ـ تهميش التاريخ العربي والإسلامي، وازدراء الدين الاسلامي، إلى درجة الاستهزاء بمكوّناته في الخطب الرسمية، وفي المؤسسات العلمية، حيث تـمَّ التنظير له بما سُمِّيَ حينها بـ(الشخصية) أو (الأمة التونسية).

المطلب الثاني: عوامل نشوء الفكر الإصلاحي عند ابن عاشور

إنّ الفكر الإصلاحي عند الشيخ ابن عاشور قد ساهمت في نشوئه عوامل عدّة، ودوافع متنوّعة، وأسباب عديدة، كان المؤثّر فيها جماعة من الساسة والمفكرين والعلماء والمصلحين الذين ظهروا في العالم الاسلامي، ومنهم علماء القطر التونسي.

وكان لهؤلاء العلماء الأجلاء والمصلحين الأفذاذ تأثيرٌ عميق وملموسٌ في مجالات الحياة، في البلاد العربية الإسلامية عامة، شرقا وغربا، شمالا وجنوبا، وتجاوبت أصداؤه في دولة الخلافة وسائر الولايات الخاضعة لحكمها والتابعة لها.

وقد كانت الدول الاستعمارية، تسعى للنيل منهم، ومطاردتهم أينما حلُّوا، غير أن هذه المعاملة الشرسة لم تزد دعوتهم الإصلاحية إلا انتشارا، في مختلف الأقاليم، عن طريق المحاضرات واللقاءات والصحافة والنشر[2].

ويمكنني أن ألخّص هذه العوامل بالشكل الآتي:

أوَّلًا: علماء القطر التونسي (داخليا)

حظيت (تونس) بقدر كبير من تلك الدعوات نصيب كبير وهامّ، إذ نشأت فيها حركات فكرية إصلاحية، وظهرت تيارات متعدِّدة، ومدارس علمية مختلفة، يرجع الفضل إليها في حماية الدين والوطن، والحفاظ على هويته، مع السعي في الوقت نفسه إلى تطوير المناهج، وتغيير الأوضاع البالية وخاصة العقيمة منها، والحرص على الأخذ بأسباب التقدّم والتفوّق من الحضارة الغربية الجديدة.

---

(1) انظر: إسماعيل الحسني، نظرية المقاصد عند الإمام محمد الطاهر بن عاشور، (ص/79).

(2) انظر: الطاهر بن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، (96/1).

وسارت (تونس) نحو التلاحم والوحدة وإصلاح الأحوال في أغلب مجالات الحياة على أيدي قادة ومصلحين حاربوا الجهل، ونشروا العلم، وقضوا على الظلم، وأقاموا العدل[1].

ومن أبرز تلك العناصر الرشيدة: بعض الساسة والعلماء والأدباء والمفكرين، منهم من تقدَّم بقليلٍ مَوْلِدَ الشيخ، ومنهم من عاصره، ممن كان له الأثر المباشر في صياغة فكره العلمي والدعوي والإصلاحي.

ولعلّ من المفيد هنا أن نُعرّف بهذه الثُّلَّة المتميّزة، ليكون ذلك تمهيدًا وتوطئة لترجمة الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور الثاني.

فقد تأثر بمناهجهم الإصلاحية، واستوعب كنهها وأبعادها الاجتماعية، وتأثَّر بتياراتها العلمية والفكرية، ويمكنني تقديمها وتصنيفها باعتبار مميِّزَاتِها وخصائصها، وآثارها في الحياة العامة، إلى مدرستين:

الأولى: (المدرسة السياسية الإصلاحية)، وهي التي تزعَّمها خير الدين باشا وأنصاره، من أمثال: الوزير المؤرخ ابن أبي الضياف، والشاعر المبدع قابادو، وغيرهم.

والثانية: (المدرسة العلمية الفكرية)، وهي التي ضمَّت جَدَّيْ مُتَرْجَمِنَا: العلامة محمد الطاهر ابن عاشور الأول، والوزير العالم محمد العزيز بوعتور[2]، والشيخ سالم بوحاجب[3].

الأولى: (نماذج من المدرسة السياسية الإصلاحية)

1 ـ خير الدين باشا التونسي، أبو محمد[4]: (1238 هـ ـ 1308 هـ) // (1820م ـ 1890م).

---

(1) انظر: الطاهر بن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، (96/1 ـ 97).

(2) ستأتي ترجمته في مبحث شيوخه، عند (ص/ 33 ـ 34).

(3) ستأتي ترجمته في مبحث شيوخه، عند (ص/34)، الطاهر بن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، (97/1).

(4) أصله من قبيلة شركسية هي الأبخازة أو الأبخاز، كانت تقيم بالشمال الغربي من بلاد القوقاز، نُقِل مملوكاً في صغره إلى بيت تحسين باي نقيب الأشراف وقاضي جند بلد الخلافة بإستنبول، ومنها استصحبه إلى قصر الباي بـ(تونس) سنة (1839م)، تلقى من المعارف ما كان ضروريًّا، وانخرط في الجندية، متدرِّجاً بين جميع رتبها، إلى أن بلغ رتبة (فريق)، وهي الرتبة العسكرية التي تلي رتبة الباي، في أكتوبر (1853م)؛ انظر: الطاهر بن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، (98/1).

يُعَدُّ خير الدين باشا التونسي قائدا ملهما، ومصلحا فذًّا، فهو أبو النهضة التونسية في القرن الثالث عشر الهجري، الموافق للقرن التاسع عشر الميلادي، حيث ساهم في توجيه خطابه الإصلاحي بعنصرين هامين في الأمة، هما: العلماء والساسة[1].

وربط في مشروعه الإصلاحي بين التقدُّم العمراني وبين العدل والحرية، وأضاف إليه العناصر المادية والتنظيمات الدنيوية التي نَوَّهَ بها قبله المصلح الكبير (قابادو)، وقد جمع بصورة لا نظير لها من قَبْلُ بين (الأصالة) و(الحداثة)، وبين (الموروث العقدي والحضاري والفكري)، المتمثل في الإسلام ورجالاته، كابن خلدون والماوردي من جهة، وبين (التطور العلمي والتقني) اللذين تنطق بهما منجزات العصر الحديث، من جهة ثانية.

انطلق خير الدين في بناء هذا المشروع من واقع أليمٍ تردَّى فيه المسلمون عامة، بسبب ما لحقهم من الشين والخلل في العمران والسياسة؛ أمَّا الشَّيْن، فبالاحتياج للغير في غالب الضروريات، الدالِّ على تأخّر الأمَّة في المعارف، وأمَّا خلل العمران، فبعدم انتفاع صناع البلاد باصطناع نتائجها، الذي هو أصل مهم من أصول المكاسب، وأما الخلل السياسي، فهو المتولِّد عن احتياج البلد لغيرها، وهذا مانع لاستقلالها، موهنٌ لقوَّتِها؛ وربما كان سبب ذلك كلّه فساد النظام، وما يخالطه من جور وظلم، واضطرابات وفتن[2].

2 ـ أحمد بن أبي الضياف[3]، (1219هـ ـ 1291هـ) // (1804 م ـ 1874م).

بدأ حياته العملية الإصلاحية بخطة العدالة، فقد اختاره الأمير حسين باي لكتابته الخاصة قبل أن يُلحقه بديوان الوزير محمد شاكير صاحب الطابع، وهكذا ذاع صيته وبزغ نجمه.

---

(1) انظر: الطاهر ابن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، (103/1).

(2) انظر: الطاهر بن عاشور، المصدر نفسه، (104/1).

(3) هو: أحمد بن الحاج أبي الضياف بن عمر بن أحمد العوني التونسي، أبو العباس، الوزير المؤرخ والفقيه الأديب، كان من أعلام السياسة وأقطابها في عهدي المشيرين: الأول أحمد باي، والثاني مَحَمد باي، حفظ القرآن في صغره بمكتب سيدي ابن عروس، ثم دخل جامع الزيتونة فتخرّج على أئمته، تأثر بفكر رفاعة الطهطاوي الذي بثه في كتابه (تلخيص الإبريز)، ورغّب فيه خير الدين، وأيده ودلل عليه بمقالات الفقهاء والمؤرخين، أمثال: الشاطبي في مقاصده، وابن خلدون في مقدمته؛ انظر: الطاهر بن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، (107/1 ـ 116).

قضى ابن أبي الضياف في الأعمال الإدارية والكتابة في الديوان، والممارسة لشؤون السياسة في الدولة الحسينية طويلة، مدة لا تقلّ عن خمسة وأربعين عامًا.

عكف على تدوين تاريخه الشهير المعروف بـ(إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان)، وقد جعله على مقدمة ذات عقدين: العقد الأول هو خلاصة آرائه وآثار تجربته، ومظهر إصلاحه ومجتلى دعوته، والعقد الثاني رواية وتلخيص؛ أقبل الناس على كتابه، رغبة في الوقوف على ما فيه، والحصول على فوائده ودراريه.

ولعل مما يتأكّد ذكره من أعمال ابن أبي الضياف وآرائه الإصلاحية الاجتماعية والسياسية يكمن في قضايا باشرها، وملاحظات سجّلها، وأفكار ارتآها، وتيارات سايرها أو كان له أثر فيها [1].

3 ـ محمود قابادو[2]: (1230 هـ ـ 1288هـ) // (1815م ـ 1871م).

أحد المصلحين المشهورين بـ(تونس)، درّس بـ(جامع إستنبول) بـ(تركيا)، والتحق بعد عودته لبلده بـ(المدرسة الحربية) بـ(باردو)، ثم بـ(جامع الزيتونة)، الذي استفاد من علومه الدينية والدنيوية، وتأثّر بعلمائه البارزين، كان في مقدِّمَتِهم: الشيخ سالم بوحاجب كبير أهل الشورى، ومحمد بيرم الخامس[3]، وغيرهما.

---

(1) الطاهر بن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، (107/1 ـ 116).

(2) هو: محمود بن محمد بن محمد بن عمر بن قابادو التونسي الشريف، أندلسي الأصل، كان عالما، لغويا، متصوفا، كاتبا، شاعرا، أديبا بارعا مفوها، مصلحا مجدِّدًا، استوطن أجداده مدينة (صفاقس)، ثمّ (تونس) في بداية العهد التركي أوائل القرن (11 هـ) // (17م)، حفظ القرآن في صباه، وكان سريع الحفظ قويّه من عهد طفولته، ودخل طريقته وتحصّل على الإجازة منه، درس بـ(جامع الزيتونة)، وسافر إلى (الآستانة)، فأخذ جملة من العلوم عن كبار مشائخ عصره، واستوعب جملة من العلوم والمعارف العقلية والرياضية والطبيعية والفلكية؛ انظر: الطاهر بن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، (121/1).

(3) هو: محمد بيرم الخامس بن مصطفى بن محمد (الثالث) التونسي، من (بني بيرم)، عالم، رحّالة، مؤرخ، ولد بـ(تونس) سنة (1256 هـ) // (1840م)، تولّى رئاسة الأوقاف، ونظارة المطبعة الرسمية، وإدارة جريدة الإعلام، سافر إلى أوربا حين استولى الفرنسيس على (تونس) سنة (1298 هـ)، ثم انتقل إلى الآستانة، ثم (مصر) سنة (1302 هـ)، تولّى القضاء بمحكمة مصر الابتدائية سنة (1306 هـ)، من كتبه: (صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار)، (تحفة الخواص في حل صيد بندق الرصاص)، (التحقيق في مسألة الرقيق)، توفي بـ(حلوان) سنة (1307 هـ) // (1889م)، ودفن بـ(القاهرة)؛ انظر: الأعلام، للزركلي، (101/7)؛ صفوة الاعتبار، (94/1).

وقد ارتقى في عدد من المناصب، منها: (قاضي العسكر) بـ(باردو)، والفتوى المالكية[1]؛ وطبع بأفكاره وأشعاره جيلاً كاملاً من المثقَّفِين، ممن عايشوه وعاصروه، أو تخرّجوا على يديه، من روّاد المدرسة الحربية التي أرادها مؤسسُها المشير الأول أحمد أنْ تَسُدَّ الحاجة، أو تحدث تطورا ومنهجا.

وتأثَّر به كذلك طلبة الجامع الأعظم المعروف بـ(جامع الزيتونة)، الذين تشبَّعوا بالعلوم الشرعية، فدعاهم على اختلاف مشاربهم إلى الأخذ بأسباب القوة، والتطلُّع إلى موجبات المنعة والعزّة[2].

وبعد أن قارن بين التخلف الذي أصاب المسلمين وبين تفوق الغرب في القوة المادية والاختراعات النارية، هبّ يدعو كما فعل غيره من المصلحين في عصره إلى الاستفادة من تجارب الغير، وما حقّقه من غلبة وظهور، واتَّجَهَ في ذلك إلى تنبيه المسلمين إلى اقتباس ما تفرَّد به الغربُ من الوسائل والطُّرُق المحقّقة لنهضته، المقتضية لسبقه وتقدمه[3].

أهم الأحداث الداخلية في هذه المرحلة:

كانت (تونس) في هذه المرحلة تزخر بدعوات الإصلاح، على اختلاف مشاربها، وتعدُّد مناهجها، ساعدها في ذلك عوامل مختلفة، داخلية وخارجية، كان لها الفضل في ظهور مدرستين إصلاحيتين، هما: (الخلدونية) و(الصادقية).

وقد تخللت أثناء ذلك محاولات نحو إصلاح التعليم بـ(جامع الزيتونة)، فتكوَّنت جبهة إصلاحية من خريجي (الزيتونة) و(المدرسة الحربية)، وتدعَّم الصفّ بانضمام العنصر الصادقي إلى حلبة الإصلاح، وتنوَّعت الطروحات الإصلاحية، حتى أنها بلغت أحيانا إلى حَدِّ الصراع.

---

(1) الطاهر بن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، (122/1).

(2) اتَّبَع في ذلك سَنَنَ شيخه شيخ الإسلام عارف بك، واطَّلَعَ على آثار معاصره رفاعة رافع الطهطاوي المصري، وتأثره بما كان ينشره أحمد فارس شدياق في صحيفة الجوائب، وتجاوُبَه مع الوزير أحمد بن أبي الضياف في الكثير من مواقفه، ومساندته وتأييده لرجل الدولة خير الدين صاحب البرنامج الإصلاحي الذي أعدّه على الصعيد الحكومي ليخاطب به جماهير الأمة، جَعَلَت كتبَهُ ومقالاته وأدبَه وشعرَه ترشح بهذه المبادىء الإصلاحية والآراء القويمة الفكرية.

(3) الطاهر بن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، (1/ 125 ـ127).

غير أنّ الاستدمار كان له الأثر السَّيِّء، حيث امتدّت يَدُهُ لتشجيع الصراع بين القيادات والزعامات الحزبية، وكان الطلبة وقود هذا الصراع.

وقد تزعم الطلائع الأولى للإصلاح من الزيتونيين الشيخ سالم بوحاجب، وتقدّم الصادقيين في هذا المجال البشير صفر.

وتدَّعَمَت مسيرة الدعوة إلى الإصلاح، بظهور عدد من الجرائد[1]، فتأسَّست جريدة (الحاضرة)[2]؛ ثم صدرت جريدة (الزهرة)[3]؛ ثم تلتها جريدة (سبيل الرشاد)[4].

وتعدَّدت التوجُّهَات والمذاهب الاصلاحية، تبعا لخلفيات أصحاب الجرائد الثقافية، فصار لكلِّ اتجاه إصلاحي جريدته الناطقة باسمه، والمسايرة لمنهجه، والعاملة على نشر توجهاته وأفكاره الإصلاحية، وحتَّى العميلة للاستعمار، المعادية للإصلاح.

هذه العوامل ـ وغيرها كثير ـ قد لعبت دورا فعَّالًا في نضج طرائق الإصلاح، فبلغت بعض أهدافها، فأنشئت هذه المعاهد العلمية، الآخذة بأساليب العصر في العلوم الكونية، وأسّست المدارس القرآنية، لتعمل على حفظ مقوِّمات الدين الاسلامي، وتقاوم الجهل، وتحافظ على هوية الشعب التونسي.

وقد حدد الشيخ محمد الفاضل بن عاشور عوامل أربعة كان لها الأثر البعيد في التطور الفكري والنهضة الأدبية في تونس في هذا العصر، وهي:

1 ـ إنشاء المعهد الصادقي.

---

(1) بلقاسم الغالي، شيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر بن عاشور حياته وآثاره، دار ابن حزم ـ بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، (1417هـ ـ 1996م)، (ص/31).

(2) هي: جريدة تأسست سنة (1888م)، بإدارة علي بوشوشة.

(3) هي: جريدة تأسست سنة (1890م) بإدارة محمد الصنادلي.

(4) هي: جريدة أسبوعية تأسست سنة (1895م) بإدارة الشيخ عبد العزيز بن إبراهيم بن عبد الرحمن الثعالبي؛ وهو زعيم تونسي، من الخطباء الكتّاب، جزائري الأصل، ولد سنة سنة (1291 هـ) // (1874م)، أصدر بها جريدة (سبيل الرشاد) سنة (1313 هـ ـ 1315 هـ)، و(مجلة الفجر)، انضمّ لـ(حزب تونس الفتاة)، ثم سجنه الفرنسيون سنة (1329 هـ) // (1911م)، على إثر مطالبته لحرية بلاده، ثم أطلق سراحه، سافر لعدد من البلدان، كما ترأس (حزب الدستور)، من كتبه: (تونس الشهيدة)، (تاريخ شمال إفريقية)، (فلسفة التشريع الإسلامي)، و(تاريخ التشريع الإسلامي)، توفي بـ(تونس) سنة (1363 هـ) // (1944م)؛ انظر الأعلام للزركلي (12/4 ـ 13)؛ الحركة الأدبية في تونس، (ص/121 ـ 123).

2 ـ تنظيم التعليم الزيتوني.

3 ـ إنشاء المكتبة العبدلية.

4 ـ تشجيع حياة الطباعة والنشر.

فـ(المعهد الصادقي) كان له صدى بعيد في نفوس التونسيين منذ سنة (1291 هـ) // (1874م)، لأنّ برامجه شملت المحافظة على الإسلام والعربية، واهتمّت بتعليم اللغات وشتى العلوم العصرية[1].

وفي هذه الفترة صدرت دعوات تنادي بإصلاح التعليم الزيتوني، وتنظيم طرقه، وإصلاح برامجه، حيث صدرت قوانين في هذا الشأن تنظم هذا التعليم، كالأمر العلي سنة (1292هـ) // (1876م)، ومحاولات الإصلاح الواقعة سنة (1898م).

أما (المكتبة العبدلية)، فكانت مركز لقاء النخبة المثقَّفة، ووسيلة لربطهم بمختلف تيارات عصرهم، فساهمت بذلك في تكوين النهضة الفكرية في عصر الشيخ ابن عاشور.

وإذا أضفنا إلى العوامل السابقة دور الصحافة في الوعي ونشر الأفكار الإصلاحية وترويجها، وخاصة جريدة (الرائد)، و(الحاضرة)، وغيرها من الجرائد، وجدنا نهضة فكرية وأدبية ساهمت في تكوين آراء الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، وربطها بتيارات عصره، المليء بالأحداث والطروحات الإصلاحية، والنقد البنَّاء لواقع المسلمين من أجل بناء غَدٍ أفضلٍ.

ويضاف إلى هذا: ما عايشه الشيخ ـ رحمه الله ـ من الأحداث الكبرى، فالحربان العالميتان كانت لهما أسباب ونتائج مباشرة على حياة الأفراد والشعوب، فتكوَّنت جماعات إصلاحية وأحزاب سياسية ومذاهب فكرية، ونشطت حركات تحرُّرِيَّة في (تونس) وفي العالم العربي والاسلامي، بل وفي أنحاء العالم.

كما ظهرت على الساحة الفكرية في هذه الفترة مؤلَّفات عديدة، احتدم فيها النقاش، منها: كتاب (الإسلام وأصول الحكم)[2]، على إثر سقوط الخلافة العثمانية عام (1923م ـ 1924م).

---

(1) عقد عليها التونسيون آمالا كبيرة، فهي وريثة (المدرسة الحربية)، ومؤسسها رائد الإصلاح الوزير خير الدين باشا، صاحب الإصلاحات المشهورة.

(2) من أهمّ كتب عليّ عبد الرزاق، التي شغلت الفكر الإسلامي، وتعارضت فيها الآراء.

وكان الإمام ابن عاشور حينها يرصد أحداث عصره رصد الخبير المتمرِّس، مساهما فعَّالًا في كثير منها، ومتأملا معتبرا في بعضها الآخر[1].

الاتجاهات الفكرية القوية بالمشرق

إن نوعية المفكرين والدعاة ورجال الإصلاح الذين ظهروا في هذه الفترة في مختلف البلاد العربية والإسلامية، بحسب قوّة حركتهم، واتساع رقعة نشاطهم، كان له أكبر الأثر في المجتمعات الجديدة، وجوانب الاهتمام التي كان من الضروري التركيز عليها لتحقيق التغيير والتطوير.

فقد ظهر بالمشرق العربي فيما بين: (1216 هـ ـ 1290 هـ) // (1801م ـ 1873م)، وبين (1286 هـ ـ 1366هـ) // (1869م ـ 1946م)، اتجاهات فكرية قوية[2]:

الاتجاه الأول: (الاتجاه العلماني)، تزعّمه رجل فردٌ، هو: رفاعة الطهطاوي[3]، إذ كان يدعو إلى بناء مجتمعات متطوّرة في بلاده، وغير بلاده من أطراف العالم الإسلامي[4]، خاصة بعدما تسنّى له اكتشاف أسرار النهضة والتفوق والتقدّم والمدنية بـ(فرنسا)، وشعّ بمعارفه المكتسبة الجديدة ما يُغيّر به الحياة فيما حوله بـ(مصر).

الاتجاه الثاني: (الاتجاه السياسي)، وتزعمه كوكبة من أهل النظر والفكر والسياسة والدين والعلم، أخذ بعضهم عن بعض، متكاملين في نشر مذهبهم الإصلاحي، كان على

---

(1) انظر: بلقاسم الغالي، شيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر بن عاشور حياته وآثاره، (ص/23 ـ 33).

(2) الطاهر بن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، (67/1).

(3) هو: رفاعة رافع بن بدوي بن علي الطهطاوي المصري، يتصل نسبه بالحسين السبط: عالم مصري، ولد سنة (1216 هـ) // (1801م)، من أركان نهضة مصر العلمية في العصر الحديث، ولد في طهطا، وقصد القاهرة سنة (1223 هـ)، فتعلم في الأزهر، وأرسلته الحكومة المصرية إماما للصلاة والوعظ مع بعثة من الشبان أوفدتهم إلى أوربة لتلقي العلوم الحديثة، فدرس الفرنسية وثقف الجغرافية والتاريخ وغيرها، غادر (مصر) وعمره (25 عاما)، وأقام بـ(فرنسا) خمس سنوات، أتقن فيها اللغة الفرنسية، توفي سنة (1290 هـ) // (1873م)؛ انظر: الأعلام للزركلي، (29/3)

(4) الطاهر بن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، (68/1).

رأسهم: جمال الدين الأفغاني[1]، الذي خَبَرَ أحوال المجتمعات الإسلامية، واسْتَكْنَهَ أسرارَ دُوَلِهَا وشعُوبِها، وتنقَّل هنا وهناك بين أقطار العالم الإسلامي وغربي البلاد الأوروبية، ناقداً ثائرا، داعيًا وموجِّها، ومكتسحًا بآرائه وأقواله كل الطبقات والأوساط، فكان ـ كما نعته خلطاؤه ـ رجل الأمل واليأس، والثورة والهدأة، ورجل الواقع والحُلم، يحمل في أفكاره ونشاطاته بذور اليقظة والنهضة بما كشف عنه من مواقف، ودلّ عليه من نزعات[2].

وكانت مجلة (العروة الوثقى)، التي تولّى إصدارها بمشاركة محمد عبده له بـ(باريس)، الصحيفة الذائعة، الناشرة لآرائه، والداعية إلى نهضة العالم الإسلامي واتحاده، وإلى الثورة على الاستدمار أينما كان، بسبب تسلّط القوى الاستعمارية، وحِقدها وتهديدها لدولة الخلافة، ولسائر البلاد الإسلامية والعربية.

كما كان لـ(مجلة ضياء الخافقين) الصادرة عنه باللغة العربية والإنجليزية أيام إقامته ببريطانيا أثر ملحوظ.

وكانت نظرتُه للأمور متفحّصة، دقيقة وواقعية، مدركا عواقب سيطرة الغرب على الشرق الإسلامي، وامتداد سلطانه وطول عهده، وشؤم مستقبله، وما سينزل بساحة الإسلام والمسلمين من النوائب الكبرى إذا هم رضوا بالمهانة وسكتوا عن الظلم.

ودَفَعَه إيمانه بالقضية الإسلامية إلى تحريك العقول، وإلهاب العواطف، والتأكيد على مراجعة النفوس وعلاجها، وتنقيتها من أسباب الضعف والوهن، وتوجيهِها إلى أسباب القوة، معلنًا بين أنصاره مقولته: « إنه متى ضعف ما كان سببًا في الصعود يحصل الهبوط والانحطاط، وإنه متى زال ما كان سببًا للسقوط يحصل الصعود »[3].

---

(1) هو: السيد جمال الدين الأفغاني، المفكر، السياسي، المصلح الشهير، ولد سنة (1254 هـ) // (1838م)، تولّى رئاسة الوزارة في بلده في ظل الأمير محمد أعظم، وذهب إلى (الآستانة) بدعوة من السلطان عبد العزيز الذي عيّنه عضواً في مجلس المعارف، واستقبله الخديوي إسماعيل بـ(مصر)، وتوجّه إلى (إيران) بدعوة من الشاه ناصر الدين، وكان آخر مطافه (الآستانة) لمَّا استدعاه السلطان عبد الحميد الثاني للإقامة بها، توفي سنة (1315هـ) // (1897م)؛ انظر: الزركلي، الأعلام، (6/168 ـ 169).

(2) الطاهر بن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، (1/73).

(3) الطاهر بن عاشور، المصدر نفسه، (1/74).

صرخ محذّرا الشعوب العربية الإسلامية مما تردّت فيه من الانقسام والتفرّق، وذكرهم بما قرَّره ابن خلدون من أنّه لا قوة للمسلمين إلا بالعصبية القبلية، لحماية البيضة من التمزّق والتفرّق الذي أصابهم، مركِّزًا في دعوته على مقوّمين أساسيين آخرين هما: (الدين) و(الاتحاد).

ف(الدين): هو طريق السعادة وحقيقة المدنية، والتمدن الحقيقي مكافىء له تمام المكافأة، يتيح للإنسان الارتقاء فوق مراتب البهيمية، كما يسمح ببناء نظام اجتماعي متماسك متَّحد، يسعى لخير المجموع وسعادته داخل التجمع البشري الخاص والعام؛ ومن أجل هذا نرى السيد جمال الدين الأفغاني يهيب بالمجتمع الإسلامي إلى التمسك بدينه، والحفاظ عليه، وصيانته من التغيير والتلفيق، وما يتبع ذلك من الأوهام والشعوذات، وقد استمرت دعوته هذه قاعدة مُلهِمة لمعظم الحركات الدينية الإسلامية التي ظهرت في العالم الإسلامي حتى الحرب العالمية الأولى.

والمقوّم الأساسي الثاني هو ضرورة اتحاد الدول العربية والإسلامية، وهو الشعور بالترابط الجذري بينهم، وبالعروة الوثقى التي لا انفصام لها بَين جميع المؤمنين في أطراف العالم، وهو الطريق لرأب الصدع، وجمع الشمل، ودعم الصفّ، وتعزيز المواجهة لكل عدوان.

فهو باختصار يدعو إلى اتحادين:

1 ـ اتحاد ترتفع به الأمة الإسلامية، متميّزة بأخلاقها ومنهجها وسلوكها، وتضامن شعوبها ودولها، تقيم على أسُسه القطعيَّةِ والثابتةِ هياكلَ مجتمعاتها وصَرْحَ جامِعَتِها[1].

2 ـ واتحاد دفاعي يَحمل عليه اعتقاد الأفغاني من زمن مبكّر أن جميع الشعوب النصرانية متّفقة على عداء الإسلام، تأثراً منها بالروح الصليبية، وروح العداء هذه متمثّلة في جهد جميع هذه الشعوب جهداً خفياً مستتراً متوالياً من أجل سحق الإسلام.

أعلن جمال الدين عن سياسته الثورية ضدَّ كل أسباب التخلّف، وضدَّ القوات الاستعمارية المغتصبة التي أصبحت الآمرة الناهية والمتصرّفة، بل المستبدّة بكل شؤون البلاد الإسلامية: تحكمُها بهواها، وتسيّرها وفق مصالحها وغاياتها.

---

(1) الطاهر بن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية (75/1).

وما إن انتشرت آراؤه وكلماته هذه حتى تحوّلت دستوراً يخضع له كل أنصاره ومريديه، وترتبت عليه اتجاهات ثلاثة في العمل الوطني المصري:

1 ـ الاتجاه الثوري الذي يمثله الضباط المصريون الواقعون تحت سيطرة الضباط الشراكسة،

2 ـ الاتجاه الثوري الذي يؤمن بالشعب وقواه وطبقاته الكادحة، ويعتمد في حركته على العامة والجماهير.

3 ـ الاتجاه الثالث، وهو اتجاه إصلاحي أكثر منه ثوري، يقوم على التربية والتعليم والاستنارة الفكرية، وهو الذي تقمّصه الشيخ محمد عبده، وعبّر عنه في مقالاته الإصلاحية التي نشرها في الوقائع المصرية[1].

وقد كان من الطبيعي ظهور هذه الاتجاهات كلها، وهي وإن اختلفت شكلاً، فإنّها كانت متضامنة يخدم كل اتجاه منها، حسب الظروف التي مرّ بها والخطة التي وضعها، المصلحةَ العليا للوطن، التي تقتضي حشد كل الطاقات والجهود[2].

وسار في هذا الاتجاه الإصلاحي كلّ من الشيخ محمد عبده[3]، الذي كان له دور فعال في الساحة العلمية والفكرية بـ(مصر) وغيرها[4]، كما عُيّن عضوًا بالمجلس الأعلى للمعارف العمومية، ثمّ قاضيًا بعدة محاكم.

---

(1) كان من مناصريه: سلطان باشا، وسليمان أباظة، وسعد زغلول، وعبد الكريم سلمان، ومحمد خليل، وغيرهم.

(2) الطاهر بن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، (1/76 ـ 77).

(3) هو: محمد عبده حسن خير الله المصري، الأستاذ، الإمام، الفقيه الأزهري، ولد سنة (1266 هـ) // (1849م)، تخرّج من (الجامع الأحمدي) بـ(طنطا)، ومن الأزهر بـ(القاهرة)، وتتلمذ على جمال الدين الأفغاني، وتأثّر به، ومع ذلك اختلف عنه في آخر المطاف منهجاً وطريقاً، لكنه استمر متمسكاً بأصول الخطة الدعوية الإصلاحية، درّس بالمدرسة السلطانية ببيروت التوحيد، وغيره، عُيِّنَ قاضيا بمحكمة (بنها) ثم (محكمة الزقازيق)، ثم (محكمة عابدين)، ثم عُيّن مستشاراً لمحكمة الاستئناف، ثم مُفتيًا للديار المصرية، توفي سنة (1323 هـ) // (1905م)؛ انظر: الأعلام للزركلي (6/252)؛ معجم المطبوعات، (ص/1677).

(4) من ذلك الدور الفعال: أنّ توجُّهه للإصلاح كان بعد تجارب سياسية خاضها، ونشاطات دعوية إسلامية أسهم فيها، بـ(مصر) وخارجها، كما كان لتنقُّلاته الكثيرة، بين (مصر) و(بيروت) و(باريس) و(لندن) و(تونس) و(الجزائر) وغيرها من البلاد، أثر بعيد في تصوير العالم الإسلامي على حقيقته، وإدراك مختلف أوضاعه وأدوائه؛ انظر: مقاصد الشريعة الإسلامية، (1/80 ـ 81).

وقد تعاون عمليا وتنظيميا مع أستاذه الأفغاني في حركة (العروة الوثقى)، وشاركه في إصدار المجلة المتحدّثة بلسانهما، وكتب المقالات الكثيرة فيها، ودخل معه (الحزب الوطني)، كما صار له ضلع في (ثورة عرابي).

وكان لهذا الاتجاه أثرُه، ولهذا التعليم أتباعُه. وتعدّدت فروع (العروة الوثقى)، وانتشرت في أطراف البلاد، وأصبح لها ممثِّلُون في كثير من العواصم العربية[1].

وتعدّدت آثاره، وتنوَّعت منشوراته، واشتهر منها على وجه الخصوص: (رسالة التوحيد)، و(الإسلام والرد على منتقديه)، و(الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية)، وقسم كبير من التفسير عرف بـ(تفسير المنار)، وفتاوى كثيرة وجريئة؛ كما نشر عددًا لا يحصى من المقالات في العديد من المجلات والصحف، منها: (الوقائع المصرية) التي تولّى رئاسة تحريرها، و(العروة الوثقى)، و(المنار)، وغيرها.

كما كان للشيخ محمد رشيد رضا[2]، وشكيب أرسلان[3]، أدوارا أخرى في غاية الأهمية، نشطت بهما الساحة علميا وفكريّا.

---

(1) الطاهر بن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، (79/1).

(2) هو: محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بَهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني البغدادي، الحسيني، العلامة، المفسر، الفقيه، الأديب، وأحد رجال الإصلاح الإسلامي، ولد بـ(القلمون) بـ(الشام) سنة (1282 هـ) // (1865م)، رحل إلى (مصر) سنة (1315 هـ)، فلازم شيخه محمد عبده، أصدر مجلة (المنار) لبثّ آرائه في الإصلاح الديني والاجتماعي؛ وأصبح مرجعا للفتيا، صنّف كتبا جمعت بين الشريعة والأوضاع العصرية الجديدة، وأنشأ مدرسة (الدعوة والإرشاد) ثم قصد سورية في أيام الملك فيصل بن الحسين، وانتخب رئيسا للمؤتمر السوري، فيها، وغادرها على أثر دخول الفرنسيين إليها سنة (1920م)، فأقام في وطنه الثاني (مصر) مدة؛ ثم رحل إلى الهند والحجاز وأوربا، ثم عاد إلى (مصر)، وبها توفّي سنة (1354 هـ) // (1935م)، ودفن بـ(القاهرة)؛ انظر: الزركلي، الأعلام، (126/6).

(3) هو: شكيب بن حمود بن حسن بن يونس أرسلان اللبناني، من سلالة التنوخيين ملوك الحيرة، الأديب، السياسي، المؤرخ، من أكابر الكتّاب، وأمير البيان، من أعضاء المجمع العلمي العربي؛ ولد في (الشويفات) بـ(لبنان) سنة (1286 هـ) // (1879م)، وتعلم في مدرسة (دار الحكمة)، وتتلمذ على يد محمد عبده، وأقام مدة بـ(مصر)، وانتخب نائبا عن (حوران) في مجلس (المبعوثان) العثماني، وسكن (دمشق) في خلال الحرب العامة الأولى، ثم (برلين) بعدها؛ وانتقل إلى جنيف بـ(سويسرة)، فأقام فيها نحو (25 عاما)، توفي بـ(بيروت)، سنة (1366 هـ) // (1946م)؛ انظر: الزركلي، الأعلام، (173/3).

وقد نجحت هذه الكوكبة من أئمة الفكر وزعماء الإصلاح ودعاة التغيير، في مختلف الأقاليم، فتحدّوا الصعاب، ورفعوا أصواتهم منادين بالإصلاح والنهوض، داعين مَنْ وراءهم من إخوانهم إلى الخير في المشرق والمغرب، يعملون على بعث الحياة، وتجديد أسباب العزة والمنعة والقوة في نفوس المسلمين، وما إن سرت هذه الروح حتى ألهبت المشاعر، وشحذت العقول، وصقلت المواهب، وحفَّزت الهمم، وشعر الناس بالانفراج.

وكانت (تونس) بحكم موقعها الاستراتيجي[1] قبلة الزائرين من المشرق والمغرب، ومحطّ آمالهم، زارها كثير من المصلحين في عصر الشيخ الطاهر ابن عاشور، لاستنهاض الهمم، ودفع العزائم، وتطعيم الأفكار، وتلاقح الآراء، وخاصة لما تميزت به من وجود العلم والعلماء ووجود (جامع الزيتونة) المعمور، الذي يُعَدُّ مركز إشعاع في الشمال الإفريقي كلّه، على غرار (الأزهر الشريف) بـ(مصر) و(القرويين) بـ(المغرب).

وقد استفاد زعماء الإصلاح في (تونس) ـ على اختلاف شرائحهم ـ بالحركة الإصلاحية التي قام بها الشيخ محمد عبده وتلميذه رشيد رضا، ولقي قبولا واسعا من النخبة التونسية لمنهج الشيخين، نظرا لما اتَّسما به من اعتدال وحكمة في منهجهما الإصلاحي الإسلامي[2].

وفي هذه الفترة تدعّمت الصلة بين (جمعية العروة الوثقى) وبين أعضائها من التونسيين الذين تأثّروا إلى حدٍّ بعيدٍ بآراء الشيخ محمد عبده الإصلاحية، عن طريق مقالاته الصادرة في مجلة (العروة الوثقى) التي كان يرأس تحريرها، أو في محاضرته بـ(الخلدونية) عشية الأحد (20 سبتمبر 1903م)، أو في مجالسه المتواصلة بأعضاء العروة الوثقى في بيت الشيخ محمد السنوسي، أو في غيرها من اللقاءات والمراسلات العلمية.

---

(1) تحتلّ (تونس) موقعًا جغرافيا استراتيجيا مُهِمًّا، تصل بين المشرق والمغرب، كونها بوابة الشمال الإفريقي، ذات مناخٍ معتدلٍ، وهي مركز ملتقى كثير من الحضارات، يتميّز أهلها بسماحة الطباع، وبها شعت الثقافة الإسلامية إلى البلاد الأوروبية.

(2) انظر: بلقاسم الغالي، شيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر بن عاشور حياته وآثاره، (ص/23 ـ 25).

والشيخ ابن عاشور كغيره من الناس تأثّر بالشيخ محمد عبده، فنهل من أفكاره وآثاره، خصوصا آرائه الإصلاحية، وهو أمر سيجعله يحمل هذه الأعباء، ويتحمل الرسالة الإصلاحية التي سيكرِّس حياته لأجلها[1].

وشيئا فشيئا بدأت هذه الآراء الإصلاحية تنتشر في (تونس) عن طريق صحفها العديدة، خصوصا تأثّرها بما بَثَّتْهُ (العروة الوثقى)، ثم (المنار)، من دعوات لإيقاظ العالم الاسلامي المهدَّد في كيانه الحضاري.

وكان حظّ (تونس) ورجال إصلاحها كبيرا بزيارة مفتي الديار المصرية العلامة محمد عبده[2] لها مرتين، حيث كان لهما أبعد الأثر في نفوس الناس، وهو ما يشير إليه بعضهم[3] بقوله: « إن زيارة الأستاذ الإمام مرتين لـ(تونس) لم تكن من باب الصدفة، بل جاءت نتيجة تلك السمعة التي أصبحت تتمتَّع بها الحركة الإصلاحية التونسية لدى روَّاد النهضة الفكرية في الشرق الإسلامي، وقد لفتت الحركة التونسية انتباه الأستاذ الإمام إلى أهمَّيَّة بلدان المغرب العربي بالنسبة لدعوته، فتجده يعرِّج على (الجزائر) بمناسبة زيارته الثانية إلى (تونس)، ويقرّر فيما بعد زيارة (المغرب الأقصى)، لكن الموت يسرع إليه، فيحول بينه وبين زيارة المغرب الكبير للمرة الثالثة، ولم تكن زيارته لتونس سحابة صيف، بل تركت أثرا عميقا ومراسلات واتِّصالات متينة، وقد مهَّدَت إليها علاقات بين فئة من المثقَّفِين التونسيين وبين (جمعية العروة الوثقى) التي أسسها جمال الدين الأفغاني بـ(كلكته) سنة (1882م).

وكان عمر الشيخ الطاهر ابن عاشور ثماني سنوات، بمعنى أنّه كان صغيرا وقت زيارة الشيخ محمد عبده إلى (تونس) الأولى، يوم: (6 ديسمبر 1884) إلى غاية (4 جانفي 1885)؛ بينما كان عمره في الزيارة الثانية يوم (24 سبتمبر 1903م) // (1391 هـ) ثلاثا وعشرين سنة[4]، وهو السنّ الملائم الذي أخذت فيه تلك الأفكار الإصلاحية تخامر

---

(1) انظر: بلقاسم الغالي، المرجع نفسه، (ص/25 ـ 26).

(2) هو: الشخصية الثانية في الحركة الإصلاحية في العالم الإسلامي بعد جمال الدين الأفغاني في القرن العشرين.

(3) هو الدكتور الحبيب الجنحاني التونسي.

(4) انظر: بلقاسم الغالي، شيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر بن عاشور حياته وآثاره، (ص/49).

عقل الشيخ ابن عاشور، حيث بدأ يلحظ الخلل الواقع في مؤسسات الدولة وواقع حياة الناس.

وهذا الأمر جعله يسجّل باهتمام بالغ، وبفكر ثاقب، وبملاحظات دقيقة، فكان لا يفارق شاردة ولا واردة إلا سجّلها في ذهنه، تأثّرا بتلك الآراء الإصلاحية التي بثها محمد عبده في جمعية العروة الوثقى، وأرسلها إلى نخبة من زعماء الإصلاح في تونس وما جاورها.

وتاقت نفس ابن عاشور للقاء هذا المصلح الكبير، بعد أن قرأ كثيرا من أفكاره، وتشبَّع بآرائه، وفعلا تمَّت له لقاءات عديدة به في المحافل العامة والخاصة، فحضر بصحبته المآدب التي أقيمت على شرفه من قبل الأمراء والوزراء، إلى درجة أنّه أثبتها في مذكراته، مسجلا فيها ما رآه وما سمعه[1].

وعقدت المجالس العلمية بين الأستاذ الامام محمد عبده وبين النخبة التونسية، وكان الشيخ بن عاشور لا يتخلّف عنها، وكان من بين الذين تقدّموا للأستاذ الإمام باقتراح يطلبون منه إلقاء محاضرة بـ(الجمعية الخلدونية) التي كان عضوا بمجلسها الإداري، وقد تمَّت في جمادى الثانية سنة (1321 هـ) // (سبتمبر 1903م)، ووجدت صدى كبيرا في النفوس المتعطِّشة إلى الاصلاح[2].

وتوطدت الصداقة بين الإمامين الكبيرين ابن عاشور ومحمد عبده[3]، إلى أن أطلق هذا الأخير عليه لقب (سفير الدعوة في الجامعة الزيتونية)، لأن كل صفات الحركة الاصلاحية

---

(1) كالمأدبة التي حضرها يوم: (16 سبتمبر 1903م) بدار الشيخ محمد محسن الأكبر بتونس والمأدبة التي أقيمت على شرفه بالمرسى عند الوزير خليل بوحاجب بقصره المعروف هناك، وكان هذا الوزير زوجا لامرأة مصرية هي الأميرة نازلي هانم فكان ذلك سببا لنزوله ضيفا بالمرسى

(2) انظر: بلقاسم الغالي شيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر بن عاشور حياته وآثاره، (ص/50).

(3) ظهرت هذه الصداقة بوضوح بين الشيخين حينما اشتدت المحنة على مفتي الديار المصرية محمد عبده في (الفتوى الترنسفالية) نسبة إلى إقليم (الترنسفال)؛ واستغلها خصوم الشيخ السياسيون بإيعاز من القصر والحزب الوطني يومئذ لمحاولة التشنيع عليه، وإبطال فتواه، وإظهاره بمظهر المتنكر للدين؛ وفيما يلي تفصيلها: « وَرَدَ على الأستاذ الإمام مفتي الديار المصرية من الترنسفال، أحدِ أقاليم اتحاد جنوب إفريقيا، استفتاءٌ ذو ثلاث شعب، من أحد المسلمين هناك، وقد كان السؤالان الأوَّلان:

أ ـ حكم لبس المسلم القبعة، لأن كثيراً من أفراد الناس في الترنسفال يلبسون القبعات لبعض مصالحهم، وعود الفوائد إليهم.

ممثلة فيه؛ بل يعتبر الشيخ بن عاشور ـ عند بعضهم ـ امتدادا لحركة الشيخين الأفغاني ومحمد عبده.

وكان منهج الشيخ محمد عبده الإصلاحي والتربوي والاجتماعي أقرب إليه من جمال الدين الأفغاني، الذي كان يجنح إلى الإصلاح السياسي، لأنّ الأراء الإصلاحية والاجتماعية التي نادى بها ابن عاشور لها استمداد من واقع المجتمع التونسي الآخذ بمنهج التربية والتعليم بـ(جامع الزيتونة).

وهو ما يبدو جليا من خلال مصنفاته العلمية القيمة، المستندة إلى الأدلة الشرعية، وفق المذهب المالكي، حيث دافع فيها عن صحَّة آرائه، ووجاهة فتاويه.

3 ـ صلة ابن عاشور بالشيخ محمد رشيد رضا[1]:

يُعَدُّ الشيخ رشيد رضا من طلائع علماء الإصلاح في زمن الشيخ بن عاشور، فقد اتصل بالشيخ محمد عبده، واقتنع بآرائه ومبادئه الإصلاحية التي عمل على نشرها، والذود عنها، فأنشأ سنة (1316 هـ) // (1898م) مجلة (المنار) التي كان لها دورا إصلاحيا فعّالا في البلاد العربية والإسلامية، وظلت لسان الحركة الاصلاحية أكثر من ثلث قرن، توضِّح معالم الإصلاح، وتشرح أهدافه، وتحمي الدعوة من كيد أعدائها، وتقاوم البدع والخرافات، وتحارب التعصب للمذاهب، وتحضّ على التسامح والتآلف بين الفرق الإسلامية المختلفة،

ب ـ حكم أكل الموقوذة، ونحوها من ذكاة أهل الكتاب، لأن ذبح نصارى هذه البلاد مخالف للذكاة الشرعية عندنا، فهم يضربون البقر بالبلطة ثم يذبحونها بغير تسمية، وكذلك يذبحون الغنم بغير تسمية.

وذهب الأستاذ الإمام محمد عبده في إجابته عن السؤال الأول إلى أن لبس القلنسوة إذا لم يقصِد فاعلُه الخروجَ عن الإسلام والدخولَ في دين غيره لا يعدّ مكفّراً، وإذا كان اللباس لحاجة من حجب الشمس، أو دفع مضرة أو مكروه، أو تيسير مصلحة لم يكره ذلك لزوال التشبّه.

وقال في الإجابة عن السؤال الثاني: يجوز أكل ذبيحتهم تلك، لعموم قوله تعالى: ﴿**وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ**﴾ [المائدة: 5]، ولأن الله سبحانه حين أباح لنا طعامهم كان أعلمَ بحالهم ونوع ذكاتهم، واشتهرت هذه الفتوى في ربوع العالَمين العربي والإسلامي، كما كانت سبباً في إثارة السياسيين والفقهاء عليه، فحمل هذا عدداً كبيراً من العلماء على إعادة النظر فيها، والتنبيه إلى أصولها ومراجعها التي اعتمد عليها الإمام؛ أما الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور فقد وقف موقف المحلل لها، المؤيّد لمضمونها بما كتبه فى المسألتين؛ انظر: مقاصد الشريعة الإسلامية، (431/1 ـ 435).

(1) بلقاسم الغالي، شيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر بن عاشور حياته وآثاره، (ص/26).

وقد اقتناها عدد هائل من الناس، وبها خدم رشيد رضا منهجه[1]، ونشر فكره وآراءه التي كانت لها آثار جيِّدة[2].

وقد حضيت هذه المجلة بعدد كبير من المؤيدين لها في الأقطار الإسلامية، ومنها (تونس) السبَّاقة إلى إصلاح التعليم، ولم يزدها هذا الاتصال بالمشرق إلا شدّة وقوّة ونُضْجًا، للصلة المتينة بين الشيخ محمد رشيد رضا والمصلحين التونسيين، خصوصا بعد زيارة الشيخ محمد عبده إلى تونس مرتين.

وكان الشيخ رشيد رضا يتابع الأحداث بـ(تونس)، ويعقد الصلات القوية مع مفكريها، ناقدا مشيدا، ومصوِّبًا مرشدا[3]، وينقل عن شيخه محمد عبده قوله: « إن مسلمي تونس سبقونا إلى إصلاح التعليم حتى كان ما يجرون عليه في جامع الزيتونة خيرا مما عليه أهل الأزهر »؛ كما كان يشيد بمفكري تونس[4] وآرائهم وردودهم.

فالشيخ محمد رشيد رضا وإنْ لَمْ يَزُرْ (تونس)، إلَّا أنَّ صلته كانت متينة برجالها، وكانت مجلته (المنار) صدى لآرائهم، حافزة للهِمَمِ، مظهرة لطرائق الإصلاح، ناقدة للبدع والخرافات، محرِّكة للسواكن في عصر الشيخ ابن عاشور[5].

والحقيقة أنّ أفكار المصلحين وهمومهم كانت مشتركة في المشرق والمغرب، إذْ هدفها النهوض بالأمَّة الإسلامية من انحطاطها وتخلّفها.

---

(1) وهو الذي بثّه في عدد من مصنفاته، منها: (تفسير المنار)، و(تاريخ الأستاذ الإمام محمد عبده)، و(نداء إلى الجنس اللطيف)، وهو بيان حقوق النساء في الإسلام، و(الوحي المحمدي) و(الوحدة الإسلامية)، ومقالات كثيرة أخرى؛ انظر: المرجع نفسه، (87/1).

(2) منها: إحياء تعاليم (العروة الوثقى) التي أنشأها الأفغاني، والتعريف بقواعد الوحدة الإسلامية، مع البحث في البدع، وتفصيل القول في التعاليم الفاسدة والعقائد الزائفة، والدعوة إلى التربية المفيدة، وبثّ المضمون السياسي للجامعة الإسلامية عن طريق الإصلاحين الديني والتربوي؛ انظر: الطاهر بن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، (86/1).

(3) الطاهر بن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، (ص/26).

(4) مثل: إشادته بالشيخ محمد البشير النيفر؛ وثنائه على كتابي محمد الطاهر ابن عاشور، ومحمد الخضر حسين في نقدهما العلمي لكتاب (الإسلام وأصول الحكم) لعلي عبد الرزاق.

(5) بلقاسم الغالي، شيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر بن عاشور حياته وآثاره، (ص/27).

فمصدر التلقي عندهم واحد، ولهذا الْتَفَّ العلماءُ المصلحون شرقا وغربا، حول خطٍّ إصلاحيٍّ واحدٍ، وَضَعَ ملَامِحَه جمال الدين، وعدَّلَهُ بِحُكْمِ الظروف محمد عبده، وسار على نهجه محمد رشيد، ووصل صداه إلى المغرب العربي، وتبنَّاه الشيخ بن عاشور، وإن اختلفت الوسائل وتنوعت الأساليب، فالغاية واحدة، والمنهج واحد، لذلك كانت العلاقة متينة بين محمد الطاهر ابن عاشور ومحمد رشيد رضا عن طريق التراسل وتقريظ الكتب والرسائل[1].

4 ـ تأثر الشيخ ابن عاشور بـ(شكيب أرسلان):

تقلّد الأديب شكيب أرسلان العديد من الوظائف الإدارية والثقافية ببلاده[2]؛ كما ارتقى في المراتب الفكرية والمناصب العلمية، وانشغل بالمسائل السياسية والاجتماعية، المتعلقة بقضايا الأمَّة العربية والإسلامية، إلى أن لَـمَعَ اسمه، وذاع صيته، وانتشرت كتبه ومقالاته. وبذل جهده في الرَّدِّ على القوى الاستعمارية، وكشف مخططاتها؛ ونادى بالتعبئة الكاملة لمواجهة التحدّيات، واسترجاع العزّة والكرامة، وتحرير الأوطان.

وكان من أنصار الدولة العثمانية، وأشدِّ المتحمِّسِين لها، مدافعا عن القضايا العربية، حيث أصدر في مدينة (جنيف) مجلة (الأمة العربية) باللغة الفرنسية (La Nation Arabe)، للغرض نفسه.

كما قام بسياحات كثيرة في (أوربا)، وزار (أميركا) سنة (1928م)، وبلاد الأندلس سنة (1930م)، وهو في حله وترحاله لا يدع فرصة إلا كتب بها مقالا أو بحثا[3].

فارتسمت كل هذه الجهود وما أعربت عنه من اتجاهات فكرية، إصلاحية أو سياسية، في النوعين من إنتاجه واللونين من نشاطه[4].

---

(1) انظر: بلقاسم الغالي، نفس المرجع، (ص/51).

(2) كان مديرا لمنطقة (الشويفات)، و(قائم مقام الشوف)، وعضو نائب عن (حوران) بمجلس المبعوثان (البرلمان العثماني)؛ وكان في الوقت نفسه شاعرا وكاتبا وأديبا، وعضوا بالمجمع العلمي العربي بـ(دمشق).

(3) الطاهر بن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، (90/1)، الأعلام للزركلي (173/3 ـ174).

(4) نلمس ذلك أولاً في ديوان شعره (1887)، وفي الدرة اليتيمة لابن المقفع (1893)، وفي رواية آخر بني سراج (1897م)، وفي رسائل أبي إسحاق الصابي (1898)، وفي (الحلل السندسية في الرحلة الأندلسية)؛ وثانيا: في كتبه ومقالاته وتعليقاته واستدراكاته، مثل لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرُهم، وغزوات العرب في فرنسة وإيطالية

وملأ ذكره العالم الاسلامي، وملأت كتاباته الصحف العربية في المشرق والمغرب، وعرف بفصاحته وبلاغة أسلوبه، حتى سمى بـ(أمير البيان)، فكان لسان الإسلام الذي يذبّ عن دولته، ومفكِّرا كرَّس عقله للبحث عن أسباب تأخّر المسلمين، فكتب رسالته: (لماذا تأخّر المسلمون؟، ولماذا تقدم غيرهم؟)، فانتشر ذكرها، وشاع أمرها في العالَمِ الاسلامي[1].

وقويت صلة شكيب أرسلان في زياراته لأنحاء العالم الاسلامي برجال الإصلاح في العالَم الإسلامي، وخاصَّة في (تونس) و(الجزائر) و(المغرب)، يحارب الجهل والتخلّف، ويدعو إلى العِلْم والنهوض بالأمَّة، ويضرب الأمثال من تاريخ الإسلام وأمجاده ومآثره الخالدة.

وقد اطَّلع الشيخ ابن عاشور على آراء الشيخ شكيب أرسلان، وتأثَّر بها كثيرا، على الرغم من أنّه يوافقها أحيانا، ويخالفها أحيانا أخرى[2].

5 ـ علاقة الشيخ ابن عاشور بتلميذه عبد الحميد بن باديس[3]:

يعتبر الشيخ عبد الحميد بن باديس أحد رواد النهضة الإصلاحية بالجزائر، طيلة ثلث قرن، حيث تميَّز بدقة علمه، واستقامة منهجه الفكري والعقدي، واطلاعه على واقع الشعب، فكان خطابه الإصلاحي نافعا، إذ يدعو إلى الاعتصام بحبل الله تعالى، استنادا إلى العروبة والإسلام.

وسويسرة، وكتاب ابن خلدون، وتمثّل الموسوعةَ أو المعلمة الإسلامية تعليقاتُه الضافية على حاضر العالم الاسلامي للمؤرخ الأمريكي لوثروب ستودارد؛ انظر: الطاهر بن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، (91/1).

(1) أشار فيها إلى أهمّ أسباب تأخر المسلمين: الجهل والعلم الناقص وفساد الأخلاق والجبن والهلع، بعد أن كانوا أشهر الأمم في الشجاعة واحتقار الموت؛ وانضمّ إلى ذلك كله اليأس والقنوط من رحمة الله؛ ومن أثر انحطاط المسلمين الجمود على القديم؛ أما عوامل التطوّر والمدنية في الإسلام فهي أكثر من أن تحصى، بل إنّ المدنية الإسلامية من المدنيات الشهيرة التي يزدان بها التاريخ العام، والتي تغصّ سجلّاته الخالدة بمآثرها الباهرة.

(2) انظر: بلقاسم الغالي، شيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر بن عاشور حياته وآثاره، (ص/27 ـ 28).

(3) عبد الحميد بن محمد المصطفى بن مكي ابن باديس القسنطيني الجزائري، ولد سنة (1305 هـ) // (1887م)، العلامة، المفسر، المصلح، درس بـ(جامع الزيتونة) بـ(تونس)، كان شديد الحملات على الاستعمار، ترأَّسَ جمعية العلماء المسلمين بالجزائر، منذ قيامها سنة (1931م)، إلى وفاته، وأصدر مجلة (الشهاب) وغيرها، له (تفسير القرآن الكريم) شفويا بـ(المسجد الكبير) زهاء (25 سنة)، جمع بعضه باسم (مجالس التذكير)، توفي بـ(قسنطينة) سنة (1359 هـ) // (1940م)؛ انظر: الزركلي، الأعلام، (289/3).

وقد كرَّس حياته لمحاربة الغزو الفكري الذي سبَّبه الاستدمار الفرنسي الصليبي الذي أراد القضاء على الإسلام واللغة العربية، واعتبر الاسلام دينا فاعلا صالحا لكل زمان ومكان بإمكانه أن يستوعب قضايا العصر.

وصلة الشيخ ابن باديس بـ(تونس) وثيقة، منذ دارسته بـ(جامع الزيتونة)، وازدادت هذه الصلة كلّما تمكّن من زيارتها، إلى درجة أنّ علماءها يحتفلون به، ويقيمون له عدة لقاءات علمية وأدبية[1] تكريما وإجلالا، حيث كان يخطب فيها زعماء الإصلاح، ويتحاورون، ويتناظرون حول مناهج الإصلاح الديني، ودور العلماء فيه.

وفي هذه الأثناء كان ابن باديس يشيد بالدور الفعال والكبير لـ(جامع الزيتونة)[2]، محليا وإقليميا ودوليا، خصوصا في هذا الشمال الإفريقي، فهو الحصن المنيع، والدرع الواقي، الذي حافظ على مقدسات هذه الربوع من خطر الاستعمار ومحاولة طمس هويتها العربية والإسلامية، ولا يزال يحافظ على الدور، على الرغم من كثير من العراقيل.

وقد كان لهذه الحوارات صداها القريب والبعيد في فكر شيخ الإسلام محمد الطاهر بن عاشور، فهو أحد شيوخ ابن باديس ـ رحمه الله ـ.

---

(1) ينقل الباحث بلقاسم الغالي، في كتابه: شيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر بن عاشور حياته وآثاره، (ص/28 ـ 30)، نصا مهمًّا عن (المجلة الزيتونية) التونسية تحت عنوان: (اقتبال المجلة الزيتونية للشيخ عبد الحميد بن باديس)، جاء فيها ما يلي: «حل بتونس في أوائل شهر شوال سنة (1355هـ) الموافق لسنة (1936م) حضرة العالم العامل الفاضل الشيخ عبد الحميد بن باديس رئيس جمعية العلماء المسلمين بالجزائر، فاقتبل من علماء جامع الزيتونة الذين كان لهم به اتصال متين تكون من عهد مباشرة الشيخ التعلم والتعليم بجامع الزيتونة؛ وقد أقيمت له عدة احتفالات من طرف عدة هيئات علمية وأدبية، واغتنمها الشيخ فرصة ليعبر عن حنينه لجامع الزيتونة، واشتياقه للبلاد التونسية وتصريحه في كل تلك المواطن بأن منبع السعادة في هذا الشمال الافريقي هو جامع الزيتونة عمره الله، وأنه المنبع الفياض لكل حركة علمية أو إصلاحية حيث تخرج منه رجال أتقنوا علوم الدين والدنيا وساروا في أعمالهم على مسار الشريعة؛ ووقع الخوض حول تقوية الروابط بين الشقيقتين الجزائر وتونس وبقية أقطار الشمال الافريقي المغرب وطرابلس ليبيا، كما وقع التحدث عن مناهج الاصلاح الديني وواجب العلماء نحوه، والفوارق الموجودة بين الجزائر وتونس في ميدان الاصلاح، كما وقع التنبيه إلى أن واجب العلماء هو الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة حتى لا تعود تلك الحركة على موضوعها بالنقض، وفي يوم (الثلاثاء 15 شوال) رجع الشيخ إلى (الجزائر) صحبته السلامة في الضعن والإقامة ».

(2) هذه المؤسسة العلمية العريقة ـ في نظره ـ لها إسهامها العلمي ومدّها الحضاري، فقد تخرّج منها علماء ومصلحون بارزون، كان لهم أثرهم البارز في المحافل العلمية والأدبية.

ولهذا رأينا ابن باديس يثني على شيخه ابن عاشور، ويحاوره، ويأخذ عنه كثيرا من أفكاره واجتهادته، من خلال اللقاءات الفكرية المتعدّدة التي جمعتهما، وإن كان يخالفه في بعضها، ويناقشه فيها.

6 ـ علاقة ابن عاشور بالشيخ محمد الحجوي[1]:

ترجع صلة الشيخ محمد الحجوي المغربي بالشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، عند زيارته لـ(تونس)، حيث التقى فيها بعدد من المصلحين الكبار، أمثال: الشيخ محمد عبده وعبد الحميد بن باديس، وغيرهما، ممن نادوا بضرورة التجديد والإصلاح، والاهتمام بالعلوم الشرعية، والدنيوية العصرية،، وقد ألقى محاضرة قيِّمَة في (جامع الزيتونة) عام (1357 هـ)، ركَّز فيها على أهمية تجديد علوم الدين.

وكان موضوع (التجديد) من أشدّ الأمور التي طغت على الساحة الفكرية في البلدان الإسلامية وقتها في شتى المجالات، ومنها المجال الديني، وهو ما دعى الحجوي للخوض فيه، حيث يقول: « إن أصول الدين في هذه الديار الإفريقية المغربية، قد استقرّت، ورسخت فيها قَدَمُ السُّنَّة، وذهبت البدع أدراج الرياح، منذ استولى عليها المذهب الأشعري وسادها ومهَّد جبالها ووهادها، ولقد بدا بعض التزلزل من شراذم لا أهمية لها، والعبرة بالأكثرية الساحقة؛ وإنني أحمد الله أن حفظ لعموم الأمَّة معتقدها الصحيح، فنحن على بيِّنَة بأنَّ عموم الأمَّة في المشرق والمغرب من ناحية أصول الدين غير محتاجة إلى تجديد، وإنما هو مفتقرٌ إلى التعليم الصحيح، وترك ما يؤدِّي إلى التشكيك »[2].

---

(1) هو: محمد بن الحسن بن العربيّ بن محمد الحجوي الثعالبي الجعفري الفلالي المغربي، أحد رجال العلم والحُكْم، ولد بـ(فاس) سنة (1291 هـ) // (1874م)، درس ودرَّس في القرويين، أسندت إليه سفارة المغرب بالجزائر سنة (1321 هـ ـ 1323 هـ)، وولي وزارة العدل، ثم وزارة المعارف، في عهد الحماية الفرنسية، من كتبه: (الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي)، (ثلاث رسائل في الدين)، (المحاضرة الرباطية في إصلاح تعليم الفتيات في الديار المغربية)، (التعاضد المتين بين العقل والعلم والدين)، (مستقبل تجارة المغرب)، (النظام في الإسلام)، و(الفتح العربيّ لإفريقيا الشمالية)، (تفسير الآيات العشر الأولى من سورة لقد أفلح)، توفي بـ(الرباط) سنة (1376 هـ) // (1956م)؛ انظر: الأعلام للزركلي (96/6)؛ الفكر السامي، (199/4 ـ 210).

(2) بلقاسم الغالي، شيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر بن عاشور حياته وآثاره، (ص/29 ـ 30).

إنّ هذا الكلام من الشيخ محمد الحجوي انتقاد صريح لأساليب التعليم المتَّبعة في المؤسسات الدينية، وتشديد على أهمِّيَّة إصلاحها، بإصلاح طُرُق التعليم فيها، ونفي ما يؤدِّي إلى الخلاف والتشكيك.

من هنا ندرك اهتمام الشيخ ابن عاشور بهذا المجال، فقد كانت محور مؤلفاته ومصنفاته، بل شغله الشاغل الذي ملك عليه نفسه، مثلما يومئ إليه كتابه الشهير: (أليس الصبح بقريب)[1].

في ظلّ هذه البيئة السياسية والاجتماعية والفكرية نشأ العلامة محمد الطاهر بن عاشور وترعرع، إلى أن اشتدَّ عوده، واكتمل فكره، وهو ما سنوضّحه في المبحث الآتي الذي يُبيِّن أهمّ تلك العوامل التي صاغت تفكيره، وأسهمت في بناء شخصيته[2].

(1) انظر: بلقاسم الغالي، المرجع نفسه، (ص/33).

(2) انظر: بلقاسم الغالي، المصدر نفسه، (ص/39).

المبحث الثاني

حياة الإمام العلمية والعملية

ولد الشيخ الطاهر ابن عاشور في فترة شهدت تآمر أوروبا على دولة الخلافة العثمانية، وسعت هذه الدول الغربية بكلّ ما تملك إلى اقتسام أطراف السلطنة، ومحاولة بسط نفوذها على الولايات العثمانية في أوروبا والشرق العربي وشمالي إفريقيا.

وتبعَ هذا الأمر هزّات كبرى، وتوتّرات شديدة، كان لها أثرها الظاهر في حياة الشيخ ـ رحمه الله ـ، ومن هنا كان لزاما عليّ أنّ أبدأ بتقديم لمحة موجزة توضِّح حياته من مولده إلى وفاته، وهو ما سنراه الآن مفصَّلًا.

المطلب الأول: حياته الشخصية ونشأته العلمية

1 ــ اسمه ولقبه ونسبه

هو: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي[1]، الإمام، العلامة، الأصولي، الفقيه، المفسر الشهير، والمصلح المجدد.

2 ـ مولده وأسرته ونشأته في طلب العلم

ولد الشيخ بقصر جدّه للأم بمدينة (المرسى)[2] إحدى مدن (تونس) الشمالية سنة (1296 هـ) // (1879م)[3]؛ وهو ينتمي إلى إحدى الأسر الأندلسية النازحة إلى (المغرب الأقصى)[4] ترجع أصولها إلى أشراف المغرب الأدارسة.

---

(1) انظر ترجمته في المصادر الآتية: الطاهر بن عاشور، مقاصد الشريعة الاسلامية، (153/1).

(2) هي: إحدى مدن تونس الشمالية الساحلية، تقع على ضفاف البحر الأبيض المتوسط، على مسافة (18 كلم) من العاصمة (تونس)؛ انظر:

(3) وقد كفله جدُّه من أُمِّه ـ منذ هذه الولادة ـ الشيخ محمد العزيز بوعتور؛ انظر: إسماعيل الحسني، نظرية المقاصد عند الإمام محمد الطاهر بن عاشور، (ص/80).

(4) من أفرادها الأعلام: الشيخ أحمد بن عاشور، ومحمد بن عاشور، ومحمد الطاهر بن عاشور الجدّ، ومحمد الفاضل بن عاشور؛ وأسرة (آل عاشور) يعود أصلها الأول إلى محمد بن عاشور المولود بـ(سلا) بـ(المغرب الأقصى)، والمتوفى سنة (1110 هـ)، وكان والده قد فَرَّ من (الأندلس) بدينه من القهر والتنصير؛ وأمّا جدُّ الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور فقد ولد سنة (1230هـ) وكان شخصية علمية مرموقة، تقلّد منصب القضاء والإفتاء والتدريس والإشراف

نشأ الشيخ الجليل في بيتٍ مشهورٍ أَفْرَادُهُ بحبِّ العلم، فكان والده[1] المصدر الأول في التلقّي، حيث حفّظه القرآن الكريم وهو في سنّ السادسة من عمره، وعلّمه مبادئ القراءة والكتابة.

ثم انتقل بعد ذلك للأخذ عن شيوخ بلده مبادئ العلوم، وبعدها التحق بـ(جامع الزيتونة) سنة (1310 هـ)، وقد حصل منه بعد سبع سنوات على (شهادة التطويع) سنة (1317 هـ) الموافق لسنة (1899م)، درس خلالها على علمائه ورواد الإصلاح به، أمثال: الشيخ محمد العزيز بوعتور[2]، وأحمد بن الخوجة[3]، ومحمد بيرم[4]، وسالم بوحاجب[5]؛ وكانت صلته بهم قويّة ومتينة.

ولم يقتصر الشيخ على التلقي، بل كان يُخضِع المعارف التي يتلقاها إلى ميزان النقد حتّى صقلت ملكته، ودرس ابن عاشور في هذه المرحلة من دراسته بـ(جامع الزيتونة) علوما شتى، خصوصا كتب العلوم الشرعية وعلوم الآلة[6].

فقرأ في النحو (قطر الندى) و(الألفية) و(لامية الأفعال) وغيرها؛ وفي البلاغة قرأ (التلخيص بشرح المطول للسعد) و(المفتاح)؛ وفي اللغة درس (المزهر) وديوان الحماسة) و(المثل السائر)، وغيرها، وفي المنطق قرأ (السلم المنورق) و(التهذيب)، وفي علم الكلام (العقيدة الكبرى) و(الوسطى) و(الصغرى) و(العقائد النسفية)، و(العقائد العضدية) بشرح

على الأوقاف الخيرية؛ من كتبه: (حاشية على قطر الندى)، و(شرح على بردة البصيري) و(الغيث الإفريقي)؛ انظر: بلقاسم الغالي، شيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر بن عاشور حياته وآثاره، (ص/35).

(1) هو: الشيخ محمد ابن عاشور التونسي، وهو وإن لم تكن له آثار علمية، إلَّا أنه قد برز في ميدان المسؤوليات الوظيفية، فتولى رئاسة مجلس دائرة جمعية الأوقاف، فأحسن إدارتها؛ تزوج بابنة الوزير محمد العزيز بوعتور، التي أنجبت له ولده محمد الطاهر؛ وبهذا الزواج تعمقت أواصر عائلة آل بن عاشور بالعائلات التونسية، وازدادت صلاتها لما امتاز به أفرادها من نبوغ وأخلاق كريمة وجد في طلب العلم وميل إلى الاصلاح والتجديد؛ انظر: بلقاسم الغالي، شيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر بن عاشور حياته وآثاره، (ص/36).

(2) ستأتي ترجمته في مبحث شيوخه، عند (ص/ 33 ـ 34).

(3) ستأتي ترجمته في مبحث شيوخه، عند (ص/34).

(4) سبقت ترجمته، عند (ص/11).

(5) ستأتي ترجمته في مبحث شيوخه، عند (ص/34 ـ 35).

(6) بلقاسم الغالي، شيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر بن عاشور حياته وآثاره، (ص/38).

سعد الدين التفتازاني و(المواقف) وشروحه؛ وفي الفقه قرأ (المدونة) و(مختصر خليل) و(شرح الدردير) وشرح ميارة على (المرشد المعين) و(الرسالة)، وغيرها؛ وهكذا في أصول الفقه: قرأ الحطاب على (الورقات) وشروحاتها، و(التنقيح)؛ وفي الحديث درس صحيح البخاري ومسلم وكتب السنن وشروحاتها؛ وفي السيرة قرأ (الشفاء في بيان حقوق المصطفى)، وفي التاريخ درس (المقدمة) وغيرها.

وفي هذه المرحلة بدأت ملامح تفوَّق ابن عاشور تظهر؛ وقد ساهمت في هذا النضج عوامل ذاتية وموضوعية، ساعدته على النبوغ والابتكار والريادة[1]، منها:

أ ـ قدراته الذهنية، فقد شبَّ على جِدٍّ واجتهادٍ، وهمَّة طمَّاحةٍ إلى المعالي، وذكاءٍ فائقٍ، ومحافظة على وواجبات الدين وآدابه، وألْمَعِيَّةٍ مكَّنَتْهُ من الظهور والنبوغ بين أهل العلم[2].

ب ـ بيئته العائلي الشهير بالعلم والعلماء[3].

ج ـ قوة تأثير شيوخه، الذين نهل من علمهم، وأناروا سبيله وفتحوا ذهنه على واقع عصره، بعد أن عمقوا ثقافته الإسلامية بمختلف العلوم[4].

3 ـ شيوخه

يجد الدارس لمصنفات الشيخ بن عاشور بأنّه قد أوتي ثقافة واسعة، شملت علوم الشريعة واللغة والفلسفة والأديان والملل والنحل.

حباهُ الله بحافظة قويّة للقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، وأشعار العرب؛ وكان له شغف بفنون الحِكْمَة ومعرفة الأخبار والتاريخ، فضلا عن حبّه الشديد لعلوم عصره، ربطا بين

---

(1) بلقاسم الغالي، شيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر بن عاشور حياته وآثاره، (ص/40).

(2) انظر:محمد الخضر حسين، موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين، محمد الخضر حسين، جمعها وضبطها: المحامي علي الرضا الحسيني، دار النوادر، سوريا الطبعة الأولى: (1431 هـ ـ 2010 م)، (156/11).

(3) فمحمد الطاهر ابن عاشور (الجدّ) كان عالما، وجده للأم محمد العزيز بوعتور عالما تولّى الوزارة، وأبوه موظّف حكومي في عصرٍ علَا فيه شأن الوظيف؛ والأسرة من أشرف أسر العاصمة، ومن ذوي اليسار، لها مكتبات علمية، كـ(المكتبة العاشورية) وغيرها، تشتمل على مخطوطات نادرة في الأدب والدين والقانون.

(4) بلقاسم الغالي، شيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر بن عاشور حياته وآثاره، (ص/40).

الماضي والحاضر والمستقبل، الناشئ عن منهجه ورؤيته الشاملة للإصلاح، ومنه الشقّ المتعلّق بالتعليم الزيتوني، خاصة ما يتعلق بضرورة تعلّم اللغات الأجنبية[1].

وكان الشيخ ابن عاشور يعتزّ بتلك الإجازات والمرويات التي أخذها عن شيوخ عصره[2]، والتي تؤكّد مرتبته العلمية ومكانته الاجتماعية بين الناس.

ومن أهمّ الأسباب التي يرجع إليها الفضل في بيان مكانة الشيخ: كثرة شيوخه[3] الذين نهل من علمهم وأخلاقهم وهمّتهم، وسأقتصر على ذكر بعضهم ممن كان لهم الأثر القويّ في حياته، وهم على الترتيب الآتي:

1 ـ محمد العزيز بوعتور التونسي[4]، الشيخ، العالم، الوزير، ولد عام (1240هـ)، حفظ القرآن الكريم صغيرا، دَرَسَ بـ(جامع الزيتونة) سنة (1254 هـ)، وأخذ

---

(1) كان الشيخ محمد الطاهر بن عاشور واسع الاطلاع، قويّ الحفظ، عميق الفهم، على درجة علمية وأدبية كبيرة، عز وجودها بيين مفكري وعلماء عصره؛ وقد ساعده في ذلك: دراسته للّغة الفرنسية التي تعلّمها على أستاذه أحمد بن وناس المحمودي؛ انظر: بلقاسم الغالي، شيخ الجامع الأعظم محمد الطاهر بن عاشور حياته وآثاره، (ص/39).

(2) يقول محمد الطاهر ابن عاشور: « « ولي أربعة أسانيد...:

أولها: ما أجاز لي العلامة المفتي أثر الشريعة في فعله وقوله جدي والد أمي، وأبي في تربية نفسي وتقويم فهمي: الوزير الأكبر بتونس الشيخ محمد العزيز بوعتور المولود في (رجب 1340هـ) والمتوفى في المحرم سنة (1325هـ)، ثابت الحفظ، محكم الفهم، وكانت إجازته في جمادى الأولى سنة (1321هـ).

وثانيهما: ما أجاز لي العلامة الضليع شيخ الاسلام محمود بن الخوجة، كبير أهل الشورى للمذهب الحنفي بتونس المولود سنة (1250هـ)، والمتوفي سنة (1329هـ) وكانت إجازته لي في جمادى الأولى سنة (1326هـ).

وثالثهما: ما أجاز لي العلامة النحرير شيخ الاسلام، الشيخ سالم بوحاجب كبير أهل الشورى للمذهب المالكي بتونس المولود سنة (1244هـ) والمتوفى سنة (1342 هـ)، وكانت إجازته في رمضان (1323هـ).

ورابعهما: ما أجاز لي الأستاذ العلامة المفتي المالكي بتونس الشيخ عمر بن أحمد المعروف بابن الشيخ، المتوفى سنة (1329هـ)، وقد ناهز التسعين، وكانت إجازته لي في ربيع الأول سنة (1325 هـ) ».؛ انظر: أليس الصبح بقريب، (ص/9).

(3) تذكر مراجع أخرى شيوخا آخرين لابن عاشور مثل الحبيب بن الخوجة، ومحمد النخلي، ومحمد صالح الشريف، ومحمد العربي الدرعي، وأحمد جمال الدين، ومحمد الطاهر جعفر، وأحمد بن وناس المحمود؛ انظر: إسماعيل الحسني، نظرية المقاصد عند الإمام محمد الطاهر بن عاشور، (ص/81 ـ 82).

(4) يمتد نسبه إلى بيت الشيخ محمد الكافي العثماني، من صلحاء القرن السابع الهجري، دفين الزاوية المشهورة باسمه في صفاقس، وهو من سلالة سيدنا عثمان رضي الله عنه؛ انظر: الزركلي، الأعلام، (268/6)؛ إسماعيل الحسني، نظرية المقاصد عند الإمام محمد الطاهر بن عاشور، (ص/82 ـ 83).

عن أعلامه، استفاد منه الشيخ محمد الطاهر بن عاشور كثيرا، خاصة طريقته في النظر المبني على الحرية في البحث والتحقيق، ومعرفة أسرار وغايات كل قضية، علمية كانت أو عادية.

أُسنِدَتْ له خطَّة الوزارة الكبرى بعد عامٍ على الاحتلال الفرنسي للبلاد، وفي عام (1262هـ) ارتقى، فانتخب لخطة الكتابة بالدولة، على الرغم من حداثة عهده.

ولم تشغله هذه الوظائف السامية عن متابعة دروس العلم، فقد كان يحضر دورسَ جَدِّ الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور بـ(جامع الزيتونة)، في عهد الدولة الصادقية وهو يومئذ وزير ومن كبار رجال الدولة.

2 ـ محمود بن محمد بن الخوجة التونسي، أبو الثناء، شيخ الإسلام، العالم، المدرِّس بـ(جامع الزيتونة الأعظم)، سنة (1278 هـ)، تسلَّم خطَّة الإفتاء سنة (1303 هـ)، ثمّ مشيخة الإسلام عام (1318 هـ)، توفي عام (1329هـ)، له رسائل وفتاوى، منها: (القول المنتقى في مسألة الشرط من كتاب أبي البقاء) و(القول النفيس في مسألة تعدد التحبيس) و(روضة المقلّ في مسألة طلاق المختبل) و(طلب العليل في مسألة ثبوت الدين في زعم الكفيل) و(القول البديع في مسألة المشتري من الشفيع) و(رسالة في المذهبين الحنفي والمالكي في الرشد والسفه) و(الحواشي التوفيقية على الألفية)، و(الحصن الحصين على التبيين)[1].

3 ـ سالم بوحاجب المنستيري التونسي[2]: الشيخ، العالم، السياسي، ولد بقرية (نملة) من قرى (المنستير) سنة (1244 هـ)، حفظ القرآن الكريم صغيرا، تعلَّم بـ(الجامع الأعظم)، وأخَذَ العلم عن شيوخه، ولفرط ذكائه وألمعيته انْتُخِبَ لكتابة المجلس البلدي عند تأسيسه، فكان ذلك منفذ معرفته بخير الدين التونسي، حتى استحكمت بينهما أسباب الصداقة، بل كان أحد العقول الكبيرة التي أعانت خير الدين على تأليف كتابه (أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك)؛ وقد شارك بوحاجب في نشاطات سياسية عدَّة، وباشر أعمالا إدارية وتعليمية وصحافية وإصلاحية.

---

(1) انظر: محمد الخضر حسين، موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين، (137/11)؛ إسماعيل الحسني، نظرية المقاصد عند الإمام محمد الطاهر بن عاشور، (ص/84).

(2) انظر: محمد الخضر حسين، المرجع نفسه، (182/11) وما بعدها.

4 ـ عمر بن الحاج أحمد بن علي بن قاسم البنزرتي التونسي، المعروف بابن الشيخ، أبو حفص، الشيخ، العالم، ولد ببلدة (رأس الجبل) عام (1237 هـ)، التحق بـ(الجامع الأعظم) سنة (1259 هـ)، فأخذ عن علمائه وشيوخه، إلى أن انضمّ بدوره للتدريس من سنة (1268 هـ) إلى سنة (1283هـ).

كان نافذ الفكر، قادرا على حلّ المسائل العويصة، له أسلوب نافع في التعليم، تولى خطَّة الإفتاء ونيابة النظارة العلمية، وعرف بنشاطه العلمي، وله مصنّفات مطبوعة مثل: (الفوائد المهمَّة والدقائق اللطيفة)، طبعت سنة (1138 هـ)، توفي ـ رحمه الله ـ سنة (1329 هـ)[1].

المطلب الثاني: أعماله ووظائفه وتآليفه

عرف عن الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور كثرة نشاطه العِلْمِيّ والعَمَلِيّ، ودَأْبِهِ المعرفي، وهو ما نلاحظه في النقاط الآتية:

أولا: أعماله ووظائفه

توزَّعت أعمال الشيخ في مجالات أربعة رئيسية، هي: مجال الإدارة، مجال الإصلاح، مجال التعليم، ومجال التأليف.

1 ـ مجال الإدارة[2]:

انصبّت الأعمال الإدارية التي تقلدها ابن عاشور على الشكل الآتي:

أ ـ اعتناؤه بضبط المخطوطات في كل من (جامع الزيتونة) والمكتبتين (العبدلية) و(الصادقية)، من سنة (1905م) إلى غاية سنة (1960م).

ب ـ عمله بالنظارة العلمية للجامع الأعظم بعدما عُيِّنَ نائبا للدولة بها عام (1907م).

---

(1) انظر: محمد الخضر حسين، موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين، (38/11، 140)؛ إسماعيل الحسني، نظرية المقاصد عند الإمام محمد الطاهر بن عاشور، (ص/86).

(2) انظر: إسماعيل الحسني، نظرية المقاصد عند الإمام محمد الطاهر بن عاشور، (ص/87).

ج ـ تحريره مقالًا شاملا عن الحالة التعليمية لـ(جامع الزيتونة) الأعظم من قبل لجنة الإصلاح بها سنة (1328 هـ).

د ـ حصوله على خطّة العدالة، وتعينه في مجلس الأوقاف عام (1329 هـ)، ثم قاضيا مالكيا بعد ذلك بعامين، ثمّ مفتيا عام (1341 هـ)، ثم نائب باشا مفتيا عام (1343 هـ)، ثم باشا مفتيا عام (1345 هـ)، ليصبح مستشارا للحكومة في الشؤون الدينية وشيخ الإسلام المالكي وشيخ الجامع الأعظم عام (1351هـ)، وهما اللقبان اللذان تفرد بهما، إلا أنه بعد عام استقال من إدارة الجامع، ليعود إليه عام (1364 هـ).

ومنذ هذا التاريخ إلى حين ظهور القانون المؤسس لجامع الزيتونة والذي أصبح كلية للشريعة وأصول الدين، كان ابن عاشور يعمل جاهدا لإصلاح هذه المؤسسة[1].

2 ـ مجال الإصلاح[2]:

أسهم الشيخ في عددٍ من الإنجازات والمبادرات الهادفة لتطوير البرامج التعليمية في (الجامع الأعظم)، منها: إنشاء فروع للجامع في أطراف البلاد التونسية.

3ـ مجال التدريس[3]:

بدأ الشيخ مجال التدريس سنة (1317 هـ) بصفةِ مدرِّسٍ متطوِّعٍ، ثم ارتقى إلى رتبة مدرِّس من الدرجة الثانية عام (1320هـ)، ثم مدرِّس من الطبقة الأولى بعد ذلك بثلاث سنوات، قام خلالها بتدريس كتب عالية في جامع الزيتونة، خاصة تفسير القرآن الكريم، و(موطأ مالك بن أنس)، وغير ذلك.

كما كان يلقى دروسا بـ(المدرسة الصادقية)، ويُحَاضِرُ بـ(الجمعية الخلدونية)[1]؛ وعُيِّن سنة (1940م) عضوا في (المجمع اللغوي) بـ(القاهرة)، ثم عضوا مراسلا للمجمع العلمي الأدبي العربي بـ(دمشق) عام (1955م).

---

(1) إسماعيل الحسني، نظرية المقاصد عند الإمام محمد الطاهر بن عاشور، (ص/87).

(2) إسماعيل الحسني، المرجع نفسه، (ص/88).

(3) سعى في هذا المجال إلى النهوض بعلوم اللغة العربية، فقام بإدماج بعض الكتب القيمة في هذا المجال، مثل: (دلائل الإعجاز) للجرجاني في علم البلاغة، و(شرح المحلى لجمع الجوامع)، و(تنقيح الفصول للقرافي)، و(مقدمة ابن خلدون في علم التاريخ)؛ وكانت له جهود إصلاحية تجديدية معتبرة في علوم اللغة، صنّف فيها كتبا هامة، تدلّ على سعة اطلاعه، وإلمامه بعلوم الإسلام والعربية؛ انظر: المرجع نفسه، (ص/88).

ثانيا: مؤلفات الطاهر ابن عاشور (مصنفاته العلمية)

حَفلَتْ حياةُ شيخ الإسلام محمد الطاهر ابن عاشور بنشاطٍ علميٍّ ملحوظٍ، وجهدٍ فكريٍّ مشكورٍ، أنتجت عددا معتبرا من التصانيف والكتب والرسائل، أبانت عن تبحّره في العلوم، وكشفت عن دقة في المنهج، واستقامة في الفكر، وصواب في الرأي، وسدادٍ في الفهم، بل أظهرت نمطًا فريدًا من الشيوخ لم يُعْرَفْ مِثْلُه بين المعاصرين.

وهذه الميزات الرفيعة نالها بانكبابه على التعلّم والتعليم، واشتغاله المتواصل بالمطالعة، مع العناية المستمرة بتدوين فوائد العلوم وعيون نُكَتِهِ، وتقديم ما يحتاجه الناس من المعارف والآداب، الناتجة عن ملاحظاته وتأمّلاته في شتّى حقول المعرفة الدينية الشرعية، وفي الدراسات اللغوية والأدبية.

ويلاحظ على مصنّفاته[2] ميزة في غاية الأهمية، وهي: الاهتمام بالجانب الإصلاحي، ومنه معالجة أوضاع التعليم بـ(جامع الزيتونة)، ودفاعه عن الإسلام في أصوله وآدابه، بما وهبه الله تعالى من متانة العلم، وسعة الثقافة، وعمق النظر، وملكة النقد، وقدرة لا تفتُر عن التدوين والنشر، ظهر أثرها في طريقة الجمع بين الأصول والتفريعات، وما يلحق بها من التصرّفات والإبداعات.

وهكذا صدرت مقالاته وتحقيقاته وبحوثه وتآليفه متدفّقة متوالية من غير انقطاع أو ضعف، فنُشر منها ما نُشر، وبقي الكثير منها محفوظاً بـ(خزانة آل عاشور) ينتظر مَن يتولى نشره وطبعه وتحقيقه[3].

أ) ـ الآثار المطبوعة للشيخ محمد الطاهر ابن عاشور[1]:

---

(1) انظر: إسماعيل الحسني، نظرية المقاصد عند الإمام محمد الطاهر بن عاشور، (ص/88 ـ 89).

(2) قام الشيخ اسماعيل الحسني بجمع ثَبْتٍ لمؤلفات الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، بعد البحث والتنقيب في كتبه، اعتمادا على ثبت مؤلفات الشيخ الذي سجله (الحبيب شيبوب) في النشرة التي تولى إعدادها لمهرجان ذكراه، والتي أصدرتها إدارة الآداب بوزارة الشؤون الثقافية في (تونس)؛ وهكذا فعل البشير العربي في مقاله عن: (الشيخ ابن عاشور من خلال تفسيره)، فجمع كل ما وصلت إليه يده من مؤلفات، وترجم لبعضها ترجمة موجزة، بذكر زمن التأليف وبعض خصائص المؤلف ومضمونه؛ انظر: إسماعيل الحسني نظرية المقاصد عند الإمام محمد الطاهر بن عاشور، (ص/89).

(3) انظر: الطاهر بن عاشور، مقاصد الشريعة، (ص/315).

1 ـ (**تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد**)[2].

2 ـ (**مقاصد الشريعة الاسلامية**)[3].

3 ـ (**حاشية التوضيح والتصحيح لمشكلات التنقيح على شرح تنقيح الفصول في الأصول**)[4].

4 ـ (**أصول النظام الاجتماعي في الاسلام**)[5].

---

(1) محمد محفوظ، معجم المؤلفين التونسيين، (307/3 ـ 308).

(2) تناول الشيخ ابن عاشور في هذه الموسوعة العلمية ـ التي يحق لتونس الافتخار بها ـ تفسير القرآن من جهات رئيسية ثلاثة:

أ) ـ جهة كون القرآن جامعا لمصالح الدنيا والدين.

ب) ـ جهة احتوائه على كليات العلوم ومعاقد استنباطها.

ج) ـ جهة أخذ القرآن قوس البلاغة من محل نياطها.

وهذا التفسير يدلّ على تبحّر صاحبه في علوم الشريعة، حيث قضى في تحريره ووضعه خمسين عاما كاملة؛ وقد ابتدأه بمقدمات عشر جعلها عونا للباحث، منها المقدمة الرابعة التي خصصها لمقاصد القرآن، توجيهًا للمفسِّر والقارئ معًا؛ أمَّا المفسِّر فيدعوه إلى العناية بتلك المقاصد، وأما القارئ فيوجهه فيها إلى طلب المقاصد عوض الوقوف الجامد عند الجزئي من معاني وألفاظ القرآن؛ انظر: إسماعيل الحسني، نظرية المقاصد عند الإمام محمد الطاهر بن عاشور، (ص/90 ـ 91)؛ مقاصد الشريعة الإسلامية، (318/1 ـ 322).

(3) يعود سبب تأليف هذا الكتاب في نظر الشيخ إلى افتقار الحِجَاج الفقهي إلى التأسيس المقاصدي، عند الاختلاف الفقهي؛ وقد تناول فيه توظيف المقاصد الشرعية في فقه الشريعة، حيث ساهم في التقليل من حدّة الخلاف الفقهي، الراجع إلى اختلاف الأعصار، وتَبَدُّلِ الأحوال، وتعرَّض فيه للمقاصد الشرعية من جهة مشروعيتها في فقه الشريعة، وطرق إثباتها، ومراتبها؛ وعالج المقاصد الشرعية العامة والخاصة بالمعاملات؛ وتناول في القسم التطبيقي منه مقاصد المعاملات في الشريعة، وانتهى إلى استنباطات فقهية مرتكزة عل المقاصد الشرعية؛ ولمزيد من المعرفة والتفصيل انظر: إسماعيل الحسني نظرية المقاصد عند الإمام محمد الطاهر بن عاشور، (ص/91 ـ 92)؛ مقاصد الشريعة الإسلامية، (411/1 ـ 420).

(4) هذا الكتاب تجميع لما كان يلقيه ابن عاشور من شروح على تنقيح الفصول للقرافي، لمَّا كان مُدَرِّسًا في (الجامع الأعظم)، اهتم فيه بتحقيق هدفين أساسيين: **الأول**: هو تحقيق مراد المصنف؛ **والثاني**: هو تحقيق مسائل كتاب التنقيح، تحقيقا مشفوعا بالشواهد الشرعية المنزلة على ماليس متداولا من الفروع الفقهية؛ انظر: إسماعيل الحسني نظرية المقاصد عند الإمام محمد الطاهر بن عاشور، (ص/92).

(5) يبين ابن عاشور في هذا الكتاب أسباب نهوض المجتمع الإسلامي الأول، وأسباب جموده، ووسائل إصلاح المجتمع الإسلامي، والأسس التي يقوم عليها النظام الاجتماعي في الإسلام، تمشيا مع الفطرة والاعتدال والتوسط والسماحة وغيرها، الهادفة إلى تحقيق الإصلاح الفردي والجماعي عقديا وعمليا، على أساس فكرة الجامعة

5 ـ (**أليس الصبح بقريب**)[1].

6 ـ (**كشف المغطى من المعاني والألفاظ الواقعة في الموطأ**)[2].

7 ـ (**نقد علمي لكتاب الإسلام وأصول الحكم**)[3].

8 ـ (**النظر الفسيح عند مضايق الأنظار في الجامع الصحيح**)[4].

9 ـ (**رسالة فقهية حول الفتوى الترنسفالية**)[5].

10 ـ (**قصة المولد**)[6].

11 ـ (**أصول الإنشاء والخطابة**)[7].

الاسلامية؛ انظر: إسماعيل الحسني، نظرية المقاصد عند الإمام محمد الطاهر بن عاشور، (ص/92 ـ 93)؛ مقاصد الشريعة الإسلامية، (671/1 ـ 709).

(1) بدأ الشيخ في تحرير هذا الكتاب سنة (1903م)، وأتَمَّهُ سنة (1967م)، ولأهمِّيَّتِه اعْتُبِرَ وثيقة من وثائق الحركة الاصلاحية في (تونس)، إذ تناول فيه موضوع إصلاح التعليم بـ(جامع الزيتونة) منذ سنة (1842م) إلى سنة (1910م)؛ وقد أشار فيه إلى مقدِّمَات عامة تتعلّق بتاريخ التعليم بالعالم الإسلامي، ثم بيان حالة التعليم بـ(جامع الزيتونة)، كما تعرّض لبيان برنامج الإصلاح الذي يقوم على محاور ثلاثة، هي: إصلاح النظام، وإصلاح التآليف، وإصلاح نظام المناظرة في اختيار المدرسين؛ انظر: إسماعيل الحسني، نظرية المقاصد عند الإمام محمد الطاهر بن عاشور، (ص/93).

(2) تناول الشيخ في هذا الكتاب جملة من النكت والتحقيقات التي كانت تَعْرِضُ لهُ في (جامع الزيتونة)، عند دراسته وتدريسه للموطأ، وتتجه همته في هذه النكت والتحقيقات إلى تلك الحقائق والألفاظ التي أشكلت أو أهملت أو أغفلت؛ انظر: إسماعيل الحسني، نظرية المقاصد عند الإمام محمد الطاهر بن عاشور، (ص/94)؛ مقاصد الشريعة الإسلامية (365/1).

(3) هذا الكتاب عبارة عن خواطر نقدية على كتاب (الإسلام وأصول الحكم) لعلي عبد الرزاق، نشرها في بعض الجرائد ثم طبعت في كتاب مستقل في (مصر) عام (1350 هـ).

(4) عرض الشيخ ابن عاشور في هذا الكتاب مواقفه المختلفة، إزاء شراح (الجامع الصحيح) للإمام البخاري.

(5) تتعلق الفتوى بلبس المسلم القبعة، وأكله ذبائح النصارى التي لا تتوافر فيها شروط الذكاة الإسلامية، ودعَّم ابن عاشور فيها رأي محمد عبده، وهي منشورة في مجلة المنار، الجزء الرابع والعشرون، المجلد السادس.

(6) هي رسالة صغيرة الحجم بحث فيها نسب الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومولده ونشأته وبعثته وهجرته وسلوكه وأزواجه وأبناءه وشمائله وأخلاقه وأسماءه الشريفة.

(7) يقول عنه ابنه المدعو: الفاضل ابن عاشور: « كان في تحريره العالي، وتعمّقه في روح العربية الصافية، وتحليله لمناهج التفكير وفنون التعبير مظهرا أساسيا لمظاهر النثر العلمي المتين »؛ وقد تناول الشيخ في هذا الكتاب الأصول المؤسِّسة لكلٍّ من الإنشاء والخطابة، حيث عرَّف فيه الإنشاءَ، وقسَّمَه إلى قسمين: 1 ـ (معنوي)، بحث فيه أحوال

12 ـ (**أصول التقدم والمدنية في الإسلام**)[1].

13 ـ (**موجز البلاغة**)[2].

14 ـ (**شرح وتحقيق المقدمة الأدبية للمرزوقي**).

ب) ـ تحقيقات الكتب: وهي كما يأتي:

ـ (**تحقيق قصيدة الأعشى الأكبر في مدح المحلق**).

ـ (**تحقيق بشار بن برد**).

ـ (**تحقيق ديوان النابغة الذبياني**).

ج ـ الآثار المخطوطة[3].

1 ـ (**رسالة القدرة والتقدر**).

2 ـ (**قلائد العقيان**)، شرح وتحقيق وإكمال.

3 ـ (**الفتاوى**).

4 ـ (**قضايا وأحكام شرعية**).

5 ـ (**مسائل فقهية وعلمية تكثر الحاجة إليها ويعول في الأحكام عليها**).

6 ـ (**تعليق وتحقيق على شرح حديث أم زرع**).

7 ـ (**آمال على مختصر خليل**).

8 ـ (**آراء اجتهادية**).

9 ـ (**تحقيق وتعليق على كتاب خلف الأحمر**)، المعروف بـ(**مقدمة في النحو**).

10 ـ (**تعاليق على المطول وحاشية السيلكوتي**).

المعاني، 2 ـ و(لفظي)، بحث فيه عن أحوال الألفاظ؛ أما (الخطابة)، فبعد أن بيَّن حقائقها، حدَّد اصطلاحها العام وكشف عن أصولها البيانية؛ انظر: إسماعيل الحسني، نظرية المقاصد عند الإمام محمد الطاهر بن عاشور، (ص/94 ـ 95).

(1) عنوان محاضرة قدمها في الجمعية الخلدونية، ونشر ابنه الفاضل ابن عاشور مقتطفا منها في كتابه الحركة الأدبية والفكرية؛ المرجع السابق نفسه والصفحة.

(2) وقد قررت النظارة العلمية سنة (1923م) تدريسه في (جامع الزيتونة) بـ(تونس).

(3) إسماعيل الحسني، نظرية المقاصد عند الإمام محمد الطاهر بن عاشور، (ص/96 ـ 97)، محمد محفوظ، معجم المؤلفين التونسيين، (ج3/308 ـ 309).

11 ـ (**آمالٍ على دلائل الإعجاز**).

12 ـ (**تراجم لبعض الأعلام**).

13 ـ (**تحقيق وتصحيح وتعليق على كتاب: الاقتضاب**) لابن السيد البطليوسي مع شرح كتاب (**أدب الكاتب**).

14 ـ (**جمع وشرح ديوان سحيم**).

15ـ (**شرح معلقة امرئ القيس**).

16 ـ (**شرح ديوان الحماسة**).

17 ـ (**مراجعات تتعلق بكتابي: أحمد واللامع للعزيزي**).

18 ـ (**تحقيق لشرح القرشي على ديوان المتنبي**).

19 ـ (**غرائب الاستعمال**).

20 ـ (**تصحيح وتعليق على كتاب: الانتصار لجالينوس**) للحكيم ابن زهر.

21 ـ (**كتاب تاريخ العرب**).

إنّ هذه البحوث قد ألقاها الشيخ على شكل محاضرات عامّة، ونُشِرَ أكثرُها في مجلَّاتٍ تونسية وعربية، في المشرق والمغرب.

وفاة الشيخ ابن عاشور:

توفي الشيخ الجليل محمد الطاهر بن عاشور ـ رحمه الله ـ بعد حياة علمية حافلة بالنشاط والجهد في خدمة الدين والوطن، يوم الأحد (13 رجب 1393 هـ) // (2 أوت 1973م) بمحلّ سكناه بـ(المرسى)، ودفن بـ(مقبرة الزلاج).

فقدت الأمة الإسلامية والقطر التونسي بموته أحد أبرز رجالها الأبرار، وعلمائها الكبار، وصلحائها الأخيار، وترك فراغا لا يملؤه إلا من كان مثله في الجدّ والاجتهاد.

خامسا: ثناء العلماء عليه

حضي الشيخ ابن عاشور بثناء منقطع النظير من قبل كلّ مَنْ عَرَفَهُ والتقى به من زملائه ورفقاء دربه، فضلا عمّن تتلمذ على يديه.

وصفه زميله ورفيق دربه الشيخ الخضر حسين[1] ـ رحمه الله ـ بجملة من الخصال الحميدة والصفات الطيبة التي تدلّ على شرف أصله وندرة معدنه الثمين، ومكانته العلمية، إذ يقول عنه: « شب الأستاذ على ذكاء فائق، وألمعية وقادة، فلم يلبث أن ظهر نبوغه بين أهل العلم...، وكنت أرى شدة حرصه على العلم ودقة نظره متجليتين في لحظاته وبحوثه...، وللأستاذ فصاحة منطق، وبراعة بيان، ويضيف إلى غزارة العلم وقوة النظر: صفاء الذوق، وسعة الاطلاع في آداب اللغة...، فكنت أرى لساناً لهجته الصدق، وسريرة نقية من كل خاطر سيئ، وهمة طماحة إلى المعالي، وجداً في العمل لا يمسه كلل، ومحافظة على واجبات الدين وآدابه، وبالإجمال: ليس إعجابي بوضاءة أخلاقه، وسماحة آدابه بأقل من إعجابي بعبقريته في العلم»[2].

وهو كما قال عنه علامة الجزائر البشير الابراهيمي[3] ـ رحمه الله ـ: « الأستاذ الأكبر، الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، عَلَمٌ من الأعلام الذين يعدّهم التاريخ الحاضر من ذخائره،

---

(1) محمد الخضر بن الحسين بن علي بن عمر الحسني التونسي : عالم إسلامي أديب باحث، من أعضاء المجمعين العربيين بدمشق والقاهرة، وممن تولوا مشيخة الأزهر. ولد في نفطة (من بلاد تونس) سنة: (1377هـ)//(1876م)، وأصله من الجزائر، تخرج بجامع الزيتونة، ودرّس فيه، وأنشأ مجلة (السعادة العظمى)، وولي القضاء، وعمل في لجنة تنظيم المكتبتين العبدلية والزيتونة، زار عدة عدة بلدان ثم استقر بالقاهرة، نال شهادة العالمية من الأزهر، ودرّس به، أنشأ جمعيات ومجلات وكان حياته حافلة بالنشاطات العلمية والعملية، خص قسما كبيرا من وقته لمقاومة الاستعمار، وتوفي بالقاهرة سنة (1293هـ)//(1958م)، له تآليف كثيرة، وقد جمعت أعماله في (15) عشر مجلدا، أنظر:الأعلام للزركلي (6/ 113 ـ114).

(2) هذه بعض الميزات التي تميّز بها الشيخ ابن عاشور حسبما أثني عليه بها زميله ورفيق دربه الشيخ العلامة محمد الحضر حسين ـ رحمه الله تعالى؛ انظر: موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين (11/ 1/ 156 ـ 157).

(3) محمّد بن بشير بن عمر الإبراهيمي: مجاهد جزائري، من كبار العلماء، ولد ونشأ بدائرة سطيف ولد في: (1385هـ)//(1889م)،أخذ العلم عن عمه، ثم تفقه وتأدب في هجرة عائلته إلى المشرق، أقام في المدينة النبوية وأخذ عن علمائها، ثم عاد إلى الجزائر فأنشأ جمعية العلماء سنة(1931م) مع ابن باديس واختير الأخير رئيسا لها والإبراهيمي نائبا عنه، تولى رئاسة الجمعية بعد وفاة ابن باديس، وزار الكثير من البلدان لجمع المال وبناء المدارس وإرسال بعثات من الطلبة الجزائريين، توفي سنة: (1306هـ)//(1965م)، جمعت آثاره في خمسة مجلدات، أنظر:الأعلام للزركلي (6/ 54).

فهو إمام متبحّر في العلوم الإسلامية، مستقلّ في الاستدلال لها، واسع الثراء من كنوزها، فسيح الذرع بتحمّلها، نافذ البصيرة في معقولها، وافر الاطّلاع على المنقول منها، أقرأ وأفاد، وتخرّجت عليه طبقات ممتازة في التحقيق العلمي، وتفرّد بالتوسّع والتجديد لفروع من العلم ضيّقها المنهاج الزيتوني، وأبلاها الركود الذهني، وأنزلتها الاعتبارات التقليدية دون منزلتها بمراحل: فأفاض عليها هذا الإمام من روحه وأسلوبه حياة وجدّة، وأشاع فيها مائية ورونقًا، حتى استرجعت بعض قيمتها في النفوس، ومنزلتها في الاعتبار.

وبعيد جدًّا أن يبلغ الإصلاح في الكلية الزيتونية مبلغه قبل أن تقوم الدراسات العليا فيه على ساق، وقبل أن تنفق لها في عرصاته سوق، وقبل أن تشمل تلك الدراسات التفسير والحديث والأخلاق والأدب والتاريخ؛ هذه لمحات دالة ـ في الجملة ـ على منزلته العلمية، وخلاصتها أنه إمام في العِلْمِيَّات لا يُنازِعُ في إمَامَتِه أحدٌ » [1].

وقال عنه أيضا: « لم ير جامع الزيتونة في عهوده الأخيرة عهدًا أزهر من هذا العهد، ولم يرَ في الرجال المسيرين له رجلًا أقدر على الإصلاح، وأمدّ باعًا من شيخه الحالي، وإذا كان الإصلاح يسير ببطء فما الذنب ذنبه، وإنما الذنب لطبيعة الزمان والمكان، وضعف المقتضيات، وقوّة الموانع، وحسبه أنه حرّك الخامد، وزعزع الجامد، وأجال اليد المصلحة في الإدارة وفي كتب الدراسة وفي أشياء أخر؛ وتلك هي مبادئ الإصلاح التي ينبني عليها أساسه، وحسبه أيضًا أنه نبّه الأذهان إلى أنّ إصلاحات خير الدين كعهد الأمان، كلاهما لا يصلح لهذا الزمان، وشتّان ما بين زمنٌ كله ممهّد للاحتلال، وزمن كل ما فيه ينادي بالاستقلال...

إن الإصلاح المنشود للزيتونة لا يتمّ إلا في جوّ بعيد عن القصر و وساوسه، وعن الهيكل الوزاري ودسائسه، وعن الاستعمار ومكائده ومصائده.

وإن الزيتونة لا تتبوّأ مكانها الرفيع إلا بواسطة جهاز داخلي متماسك الأجزاء من علمائها، يؤُمّهم إمام مدرّب محنّك فقيه في المذاهب الإدارية، مجتهد في أصولها...

---

(1) هذه شهادة الشيخ محمد البشير الإبراهيمي ـ رحمه الله ـ، على الرغم من أنّه لم يتتلمذ عليه، ولكنها كافية في الدلالة على مكانة الشيخ ابن عاشور؛ انظر: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، (549/3).

وإن ذلك الإمام المدرّب الفقيه المجتهد الجامع لشروط الإمامة في هذا الباب لهو الأستاذ الأكبر الشيخ محمد الطاهر بن عاشور.

إن الذين يُثيرون في وجهه الغبار، أو يضعون في وجهته العواثير لمجرمون. وإنا ـ إن شاء الله ـ للأستاذ الأكبر في طريقه الإصلاحي لمؤيّدون وناصرون » [1].

(1) محمّد بن بشير بن عمر الإبراهيمي، آثَارُ الإِمَام مُحَمَّد البَشِير الإِبْرَاهِيمِي جمع وتقديم: نجله الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، (1997م)، عدد الأجزاء: (5)، (3/550 ـ 552).

الفصل الثاني

علم مقاصد العقائد

نشأته قواعده وفوائده

فيه مبحثان:

المبحث الأول: تعريف علم مقاصد العقائد ونشأته وآفاقه.

المبحث الثاني: قواعد علم مقاصد العقاد وفوائده

الفصل الثاني

علم مقاصد العقائد نشأته وقواعده وفوائده

إنّ التمييز بين مقاصد الأحكام وبين مقاصد العقائد مطلقا من دون تفصيل حكم خاطئ، يشهد النقل والعقل بخلافه، فالموضوع وإن كان مختلفا، إلَّا أنّ المنهج يصلح عند إعماله في مجال العقائد، وهذا الذي ينادي به أهل العلم المختصون في علم المقاصد.

ونرى في هذا الفصل نبذة مختصرة عن الجذور الأولى لعلم مقاصد العقائد، وبعض أسسه، من خلال كلام أهل الاختصاص؛ وقد فصّلت الكلام فيه في مبحثين أساسيين، وهما:

المبحث الأول: تعريف علم مقاصد العقائد ونشأته وآفاقه.

المبحث الثاني: قواعد علم مقاصد العقائد وفوائده.

وبيان هذه المعاني يكون على الشكل الآتي:

المبحث الأول

أسس علم مقاصد العقائد

إنّ فهم موضوع مقاصد العقائد وأسسه التي يقوم عليها، يبتدئ ببيان مفهوم كلمة (المقاصد) وتعريفها لغويا واصطلاحيا، ثم التعريج على كلمة (العقائد)، لترابطها بها، ثم المعنى الناتج عن المركب الإضافي منهما، وهو (مقاصد العقائد).

المطلب الأول: تعريف علم المقاصد في اللغة والاصطلاح

أوَّلًا: مفهوم لفظة (المقاصد) في اللغة والاصطلاح:

(**المقاصد**) لغة: جمع (**مقصد**)، وهو طلَبُ الشيء وإتيانُه وأَمُّهُ، لأنّه في ذاته هَدَفٌ مقصود وغايةٌ تُرْجَى؛ وهو مصدر ميميّ، مشتقّ من قولك: (قَصَدَ الشيءَ، يقصده، قصدا، فهو قاصد له): إذا أَتَاهُ وَيمَّمَهُ وطلبَ الوصول إليه بعينه، فهو (مقصودٌ) و(مَقْصد)، و(إليه قصدي، ومقصدي): اسم المكان المقصود[1].

ويطلق على اللفظ الحسّيّ والمعنوي؛ فـ(المقصد) و(المقصود) هو: الجهة والغاية والهدف والاتِّجاه المرجو الوصول إليه، كقولك: (إلى مكَّة مَقْصَدي)، وهذا الشخص سيّئ المقصد)، أي: خبيث النيَّة والهدف[2]؛ و(مَقْصِدُ الكلام): مَدلولُه ومضمونُه المفهوم مما وراء السطور وما بينها، يقال: (لم أفهم مقْصَدَ كلامِك)، بمعنى: لم أفهم مَغْزَى كلامك، أي: أنّ إشارة كلامك ليست ذات مَغْزًى، أو أنّ كلامك ليس ذو مَغْزًى دقيق[3].

(وبَلَغوا مِن المقاصِد الغاية)، أَي: انتَهوْا ووَصَلُوا في مُهِمَّاتهم المقصودة إلى نهايتها والغاية منها[4]؛ و(قَصَد مَقْصِدًا حسنًا): طلب الوصول إليه[1].

---

(1) أحمد بن محمد بن علي الفيومي، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، الناشر: المكتبة العلمية ـ بيروت، عدد الأجزاء: 2 (في مجلد واحد وترقيم مسلسل واحد)، (504/2).

(2) انظر: أحمد مختار عبد الحميد عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة، بمساعدة فريق عمل، الناشر: عالم الكتب، الطبعة: الأولى، (1429 هـ - 2008 م)، (1820/3)، برقم: (4033).

(3) انظر: المرجع نفسه، (1617/2)؛ وكذا (1820/3).

(4) انظر: تاج العروس، تحقيق: مجموعة من المحققين، الناشر: دار الهداية، (66/1).

وعليه، فـ(المقصد) لغة: هو ما يُطْلَبُ من حقٍّ وغيره، تقول: (لي عندك مقصد)، أي: مَطْلَبٌ وهدف يُسعى إلى تحقيقه، فـ(الحريَّة مقصد)، لأنها مطلبُ الناس جميعهم[2].

وأما اصطلاحا، فإنّ لفظة (**مقاصد**) تعني: الأهداف والغايات التي قصدت الشريعة الإسلامية تحقيقها من وراء تشريع الأحكام، ومفردها (**مقصد**)، والمراد به: المعنى والهدف والغرض الذي قصده الشارع، فهو قَصْدٌ له، وهو مقصود له أيضا[3].

ومن هنا يطلق على تلك الأهداف والغايات التي وضعت لها: (**مقاصد الشريعة**)، أي: ملاءمة العلَّة فيها للحُكْمِ، وهي أن تحقِّق العلَّةُ مقصد الشارع الذي أراده من الحُكْم، بمعنى: أنها وصْفٌ ظاهرٌ، منضبِطٌ، يلزم من ترتُّبِ الحُكْم عليه ما يصلح أن يكون مقصودا من حصول مصلحة أو دفع مفسدة[4].

ومنه يعرِّف الريسوني ـ بناء على ما سبق ذكره ـ (مقاصد الشريعة) بقوله: « هي الغايات المستهدفة والنتائج والفوائد المرجوة من وضع الشريعة جملة ومن وضع أحكامها تفصيلا، أو هي الغايات التي وضعت الشريعة لأجل تحقيقها، لمصلحة العباد » [5].

ومعنى هذا أن (مقاصد الشريعة) تمثِّل مراد الله وغاية ما كلَّف به عبادَه، وما شرعه لهم فهي بمنزلة الثمرة من الشجرة » [6].

ثانيا: مفهوم لفظة (العقيدة) في اللغة والاصطلاح:

---

(1) انظر: معجم الصواب اللغوي، أحمد مختار عمر بمساعدة فريق عمل، معجم الصواب اللغوي دليل المثقف العربي، الناشر: عالم الكتب، القاهرة، الطبعة: الأولى،(1429 هـ - 2008 م) (1/ 721)، برقم: (4786) ـ مادة (مقصد).

(2) انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، (2/ 1408)، برقم: (2).

(3) أحمد الريسوني، محاضرات في المقاصد، دار الكلمة للنشر والتوزيع مصر القاهرة، الطبعة الثانية (1434هـ ـ 2013م)، أحمد مختار عمر بمساعدة فريق عمل، معجم الصواب اللغوي دليل المثقف العربي، الناشر: عالم الكتب، القاهرة، الطبعة: الأولى،(1429 هـ - 2008 م)، (ص/9).

(4) انظر: محمد رواس قلعجي ـ حامد صادق قنيبي: معجم لغة الفقهاء، الناشر: دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، (1408 هـ ـ 1988م)، (ص/461).

(5) أحمد الريسوني، نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي، (ص/7).

(6) أحمد الريسوني، الفكر المقاصدي قواعده وفوائده، كتاب الجيب رقم (9)، (ديسمبر 1999م)، منشورات جريدة الزمن، طبع مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء (ص/13).

تطلق لفظة (**العقيدة**) لغة: على التصميم والإصرار على الشيء والثبات عليه، مشتقة من قولك: (عقد الحبل، يعقده، عقدا، فانعقد): إذا شدَّه، فهو (عاقد عليه)؛ و(اعْتَقَدَ الإخَاءُ والمَوَدَّةُ بينهما)، أيْ: ثَبَتَ[1]؛ و(عقَّدَ الحبلَ ونحوَه): بالغ في عَقْده؛ أي: في ربطه وشدِّه حتَّى غَلُظ، و(عَقَّدَ اليمينَ): أكّدها وقصد توثيقَها وعزَم على البِرِّ بها، ومنه قوله تعالى: ﴿**وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الأَيْمَانَ**﴾ [المائدة: 89].

وأصل (العقد): نقيض (الحلّ)، ثم اسْتُعْمِل في أنواع العقود من البيوعات والنكاح، وسائر العقود؛ ثم استعمل في التصميم والاعتقاد الجازم[2].

ويرادفها (العقيدة) لفظ (اعتقاد)، وجمعه (اعتقادات)، و(معتقد) وجمعه (المعتقدات)، وهي كل ما يعتقد الإنسان من الأفكار والآراء، سواء كانت صحيحة أو باطلة، أي: التصديق القاطع بشيء مما يُؤمن به هذا الإنسان مجموعة من الأشخاص، كالاعتقاد بحقّ الإنسان في الحياة الكريمة التي هي أساس التَّمدُّن والارتقاء[3].

وأما اصطلاحا: فللعلماء في تعريفها عبارات عديدة متنوعة، منها على سبيل المثال قولهم: « ما أقرَّ به المؤمن بقلبه من أركان الإيمان »[4]، أي: إقراره بالحقائق الإيمانية الحقَّة المستمدة من كتاب الله تعالى وسنّة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم المقرَّرة في ديننا الإسلامي نقلًا وعقلًا.

ثالثا: تعريف مقاصد العقائد كلقب مستقل

---

(1) انظر: الخليل بن أحمد الفراهيدي، العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري، تحقيق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، الناشر: دار ومكتبة الهلال، (140/1)؛ معجم اللغة العربية المعاصرة، (1527/2)، برقم: (3421).

(2) انظر: محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، تاج العروس من جواهر القاموس، (394/8).

(3) انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، (1527/2)، برقم: (3421).

(4) انظر: أحمد بن محمد بن الصادق النجار، كتاب القواعد العقدية تأصيل وتأسيس ويليه مقدمات يقينية لا يستغني عنها طالب علم العقيدة، دار النصيحة المدينة النبوية، الطبعة الأولى(1437م)، (ص/12).

وأما (مقاصد العقائد)، فهو ـ عند بعض الباحثين المعاصرين ـ: « ما يرمي الشارع الحكيم إلى تحقُّقه من سلوكات عملية ومنهجية من وراء تشرُّب العقائد الإيمانية بما يعود على المؤمن بصلاح العاجل والآجل »[1].

وبناء عليه، وبما سبق من كلام الريسوني في تعريفه لمقاصد الشريعة، يمكنني استنباط تعريف مقرّب لمصطلح (مقاصد العقائد) بأنها: « الغايات المستهدفة والنتائج والفوائد المرجوة من أركان الإيمان جملة ومن وضع العقائد تفصيلا، أو هي الغايات التي وضعت العقيدة لأجل تحقيقها، لمصلحة العباد ».

ومعنى هذا أن مقاصد العقائد تمثّل مراد الله وغاية ما أمر عباده، بعقد القلب عليه، والإيمان به، فهي بمنزلة الأصل للشجرة، والشريعة بمنزلة الثمرة.

رابعا: هل العقائد مبنية على التصديق؟ أم على الطلب (الإنشاء)؟.

هذه المسألة مهمة جدًّا، لأن معرفتها تساعد على دفع بعض الشُّبَه التي يقع فيها البعض ممن ينتسب إلى العلم فضلا عن العوام، ممن يظنّ أنّ كلمة (المقاصد) دخيلة على علم العقيدة، وأنّ (العقائد) هي أخبار، والأخبار لابدّ فيها من الإيمان والتصديق وكفى، ويخوضون حروبا جدلية لا طائل منها، فيذكرون خلاف المعتزلة والجهمية[2] وغيرها من الفرق التي اندثرت، ويُغْفِلُونَ أعظمَ شيءٍ وهو المقصود من العقائد، ألا وهو أنها تدعو إلى العمل، فما من عقيدة إلا وينبني عليها عمل قلبي، أو عمل ظاهر للجوارح.

---

(1) انظر: بوطيب عبد القادر، مقاصد العقائد عند الإمام العز بن عبد السلام، رسالة ماجستير، نوقشت سنة (2013م)، إشراف: الدكتور عمار جيدل، كلية العلوم الإسلامية ـ الخروبة ـ جامعة الجزائر، (ص/30).

(2) هم: أصحاب جهم بن صفوان الترمذي الجبري، ظهرت بدعته بـ(ترمذ)، كان جبريا خالصا، وافق المعتزلة في نفي الصفات الأزلية، وزاد عليهم أشياء، كان يقول: لا فعل ولا عمل لأحدٍ غير الله تعالى، وإنما تنسب الأعمال للمخلوقين على المجاز؛ قتله الأمير خالد بن عبد الله القسري سنة (124 هـ) بتهمة النزدقة والإلحاد؛ انظر: الملل والنحل، (86/1)؛ الفرق بين الفرق، (ص/128).

والدليل على ذلك: كثرة نصوص القرآن والسنة الطافحة بالأمر بالإيمان المقرون بالعمل الصالح، كما في قوله تعالى: ﴿**وَالعَصْرِ إِنَّ الأِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ**﴾ [العصر: 1ـ 3][1].

وقد تكلَّم الشيخ عن هذه المسألة في سورة الفاتحة عند قوله تعالى: ﴿**الحَمْدُ للهِ**﴾ [الفاتحة:1]، ذاكرا خلاف المفسرين فيها، هل يقصد منها الخبر؟، أم الإنشاء؟، مبتدئا بالحديث عن أصل المسألة، وخلاف العلماء فيها؛ ثم رجّح ما رآه صوابا، بقوله: « وجماع القول في ذلك أن الإنشاء قد يحصل بنقل المركَّب من الخبرية إلى الإنشاء، وذلك كصِيَغِ العقود، مثل: (بِعْتُ) و(اشْتَرَيْتُ)، وكذلك أفعال المدح والذم والرجاء، كـ(عسى) و(نِعْمَ) و(بِئْسَ).

ثم يحدِّد موقفه بوضوح تام، وهو أنّ الحق الذي لا محيد عنه أن ﴿**الحمد لله**﴾ خبر مستعمل في الإنشاء، فالقصد هو الإنشائية، لا محالة، وعَدَلَ إلى الخبرية لتَحَمُّلِ جملة (الحمد) من الخصوصيات ما يناسب جلالة المحمود بها، من الدلالة على الدوام والثبات والاستغراق، والاختصاص والاهتمام، وشيءٌ من ذلك لا يمكِنُ حصولُه بصيغة إنشاءٍ، نحو: (حمدًا لله)، أو (أحمدُ للهِ حَمْدًا)، ومما يدلّ على اعتبار العرب إياها إنشاءً، لا خبرًا، قول ذي الرمة[2]:

ولمَّا جَرَتْ فِي الجَزْلِ جَرْيًا كَأَنَّهُ * سَنَا الفَجْرِ أَحْدَثْنَا لِخَالِقِهَا شُكْرًا

---

(1) يقول الإمام الشافعي ـ رحمه الله تعالى ـ بيانا لعظمة السورة وفضلها: « لو ما أنزل الله حجة على خلقه إلا هذه السورة لكفتهم »؛ انظر: ابن تيمية، الاستقامة، (ص/482)، ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، (205/1).

(2) هو: غيلان بن عقبة بن نهيس بن مسعود العدوي المضري، أبو الحارث، ذو الرمة، أحد فحول الشعراء المشهورين في عصره، ولد سنة (77 هـ) // (696م)، أكثر شعره تشبيب وبكاء أطلال، يذهب في ذلك مذهب الجاهليين. وكان مقيما بالبادية، يحضر إلى اليمامة والبصرة كثيرا، وامتاز بإجادة التشبيه، له ديوان شعر، مطبوع، توفي بـ(أصبهان) سنة (117 هـ) // (735م)؛ انظر: الأعلام، للزركلي، (5/ 124)؛ فيات الأعيان، (404/1).

فعبر عن ذكر لفظ (الحمد) أو (الشكر) بـ(الإحداث)، و(الإحداث) يرادف (الإنشاء) لغةً، فقوله (أحدثنا) خبرٌ حكى به ما عبّر عنه بـ(الإحداث)، وهو حمده الواقع حين التهابها في الحطب[1].

ومما يدلّ على أن العقائد الإيمانية أخبار يقصد منها طلب العمل بها: قوله تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ الأَسْماءُ الحُسْنى فَادْعُوهُ بِها**﴾ [الأعراف: 180]، وقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: « **إِنَّ للهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مَائَةً إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ** »[2]، وفي رواية: « **مَنْ حَفِظَهَا** ».

فالآية والحديث نصَّان صريحان في أن أسماء الله الحسنى لا يقصد منها مجرّد حفظها عن ظهر قلب، ومعرفة معناها، وإن كان هذا مطلوبا، ولكن المقصود منها أسمى من ذلك، وهو الدعاء والتعبّد لله عزّ وجلّ بها[3]، كما جاء عن أئمة السلف وأئمة التفسير وأئمة الحديث.

خامسا: مكانة المقاصد العقدية وأنواعها

يرتّب العلماء (مقاصد العقائد) في مرتبة الضروريات، فهي داخلة في كلية حفظ الدين، التي إذا اختلَّت وقع الناسُ في شقاء الدنيا والخسران الآخرة[4].

وانطلاقا من هذه القاعدة، يقسّم الشيخ المقاصد الشرعية إلى نوعين هامَّيْنِ، هما: (**المعاني الحقيقية**)، و(**المعاني العرفية العامة**).

---

(1) انظر: الطاهر ابن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (160/1 ـ 162).

(2) أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب الدعوات، باب: لله عز وجل مائة اسم غير واحد، (118/9)، برقم: (7392)، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ؛ ومسلم في صحيحه ـ كتاب الذكر والدعاء، باب في أسماء الله تعالى وفضل من أحصاها، (2063/4)، برقم: (2677).

(3) سيأتي الحديث عن مقاصد الإيمان بأسماء الله وصفاته تعالى في الفصل الرابع.

(4) يقول نعمان جغيم في كتابه طرق الكشف عن مقاصد الشارع، (ص/28): « ما يترتّب على ذلك في الآخرة من كون مصير من ضيع الدين الجحيم فهو أعظم الخسران، ولا فرق بين أن يكون الخسران في الدنيا أو في الآخرة، إذ هما مرحلتان لحياة واحدة ».

أ) ـ أما (**المعاني الحقيقيّة**): فهي التي لها تحقُّقٌ في نفسها، بحيث تُدْرِكُ العقولُ السليمةُ ملاءَمَتَها للمصلحة، أو منافرَتَها لها، أي: تكون جالبة للنفع العامِّ أو الضُّرِّ العامِّ، إدراكا مستقلاً عن التوقّف على معرفة عادةٍ أو قانونٍ.

ب) ـ وأما (**المعاني العرفية**): فهي المجرَّبَات التي أَلِفَتْهَا نفوسُ الجماهير، واسْتَحْسَنَتْهَا استحسانًا ناشئًا عن تجربة ملاءمتها لصلاح الجمهور[1].

وقد اشترط الشيخ لهذين النوعين: (الثبوت)، و(الظهور)، و(الانضباط)، و(الاطراد).

وعند النظر نجد بأن مقاصد العقائد تنتمي إلى النوع الأول ألا وهو المعاني الحقيقية، لأن مصدرها النقل وهي توقيفية مأخوذة من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، فهي حقائق إيمانية يقينية، تتلقى بالتسليم والانقياد ثم يستدل عليها[2]، فإذا أسقطنا الشروط الأربعة التي ذكرها الشيخ على العقائد وجدناها تمتاز بـ:

1 ـ (**الثبوت**)، فالعقائد كلها تحتوي على معاني مجزومة متحققة، ولا يقبل فيها مجرّد الظنّ أو غلبته.

2 ـ (**الظهور**)، ويقصد به الشيخ الوضوح، والعقائد مبنية على التفصيل والتعليل[3].

3 ـ (**الانضباط**)، أي: أن يكون للمعنى حدٌّ معتبرٌ لا يتجاوزه، ولا يقصر عنه، فأصول العقائد متَّفَقٌ عليها بين المسلمين، على اختلاف مذاهبهم، وألفاظها ومعانيها كذلك، إلَّا ما جاء في بعض المسائل التي وقع فيها الخلاف بين أهل السنة، كالخلاف في بعض فروع العقيدة.

4 ـ (**الاطّراد**)، أيْ: أنْ لَا يكونَ المعنى مُخْتَلِفًا باختلاف أحوال الأقطار والقبائل والأعصار، وإذا نظرنا إلى العقائد وجدناها مشتركة عند جميع الأمم، كأركان الإيمان الستَّة وغيرها من مسائل العقيدة[4].

---

(1) الطاهر بن عاشور، مقاصد الشريعة الاسلامية، (3/165 ـ166).

(2) انظر: الطاهر بن عاشور، أصول النظام الاجتماعي في الاسلام، (ص/51) بتصرف.

(3) انظر: الطاهر بن عاشور، المصدر نفسه، (ص/49 ـ 50)، وسيأتي بيان ذلك في الفصل الثالث.

(4) انظر: الطاهر بن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، (3/166 ـ 167).

فإذا تحقَّقت هذه المعاني بشروطها حصل اليقينُ بأنها مقاصد شرعية، فإن دلت أدلة شرعية على أن الشريعة اعتبرت من مقاصدها معاني اعتبارية، أو معاني عرفية خاصة احتاجت الشريعة إلى اعتبارها في مقاصدها لما تشتمل عليه من تحصيل صلاح عام أو دفع ضرّ[1].

ويستثني الشيخ في بيان موقفه الأوهامَ، وهي المعاني التي يخترعها الوَهْمُ من نفسه دون أن تصل إليه من شيء مُحقَّق في الخارج؛ وكذلك التخيّلات، وهي المعاني التي تخترعها قوةُ الخيال بمعونة الوَهْمِ، بأن يركِّبها الخيال من عدّة معان محسوسة محفوظةٍ في الحافظة، فليس شيءٌ من هذين بصالحٍ لأنْ يُعدّ مقصدًا شرعيًا، بدليل قول الله تعالى لنبيّه الحبيب: ﴿**إِنَّكَ عَلَى الحَقِّ المُبِينِ**﴾ [النمل: 79] أيْ: الذي ليست فيه شائبةٌ من باطلٍ أو فسادٍ.

ويرى الشيخ في هذا السياق أنّ الشريعة ــ بعد استقراء نصوصها ـ لا تراعي الأوهام والتخيلات، بل تأمر بِنَبْذِهَا، لأنها غير صالحة لأنْ تكون مقاصد شرعية[2].

المطلب الثاني: طرق إثبات المقاصد العقدية

كما يحتاج الكشف عن المقاصد إلى طرق متعددة[3]،يحصرها الشيخ الطاهر بن عاشور في ثلاث طرق رئيسة[4]، هي:

---

(1) انظر:الطاهر بن عاشور، المصدر نفسه، (169/3).

(2) انظر: الطاهر بن عاشور، المصدر نفسه، (171/3ـ 172).

(3) من تلك الطرق ما هو خاصّ بالعبادات المبنية على على معرفة العلّة، للقياس عليها، بخلاف العقيدة، فلا يدخلها القياس، إلا في بعض المسائل العقدية العملية الطارئة، مثل: قياس ما تفعله بعض القنوات الخاصة بعلم الأبراج من ادعاء علم الغيب، على علم النجوم(التنجيم)، وكذلك بعض المظاهر الشركية المنتشرة في بعض بلدان المسلمين التي لم تكن موجودة في زمن التنزيل، فتقاس على أمثالها، قياس الأولى وقياس الشبه.

(4) ما ذهب إليه الشيخ ابن عاشور ـ رحمه الله ـ قريب تماما مما قرَّره الإمام أبو إسحاق الشاطبي في كتابه الشهير الموافقات في أصول الشريعة، (134/3 ـ 139)، فهو يرى أنّ مقصد الشارع يعرف من جهات ثلاث: **إحداها:** مجرد الأمر والنهي الابتدائي التصريحي. فإن الأمر كان أمرا لاقتضائه الفعل، فوقوع الفعل عنده مقصود للشارع، وكذلك النهي في اقتضاء الكف؛ **الثانية:** اعتبار علل الأمر والنهي؛ **الثالثة:** أن للشارع في شرع الأحكام مقاصد أصلية ومقاصد تابعة، فمنها منصوص عليه، ومنها مشار إليه، ومنها ما استُقرئ من المنصوص؛ فاستدللنا بذلك على أن كل ما لم ينص عليه مما ذلك شأنه هو مقصود للشارع.

أ) ــ استقراء الشريعة في تصرفاتها، وهو على نوعين:

الأول: استقراء الأحكام المعروفة عللها، وهو أعظمها.

الثاني: استقراء أدلة أحكام اشتركت في علّة، بحيث يحصل لنا اليقين بأن تلك العلّة مقصد مراد للشارع.

ب ـ أدلة القرآن الواضحة الدلالة التي يضعف احتمال أن يكون المراد منها غير ما هو ظاهرها بحسب الاستعمال العربي[1].

ج ـ السنة المتواترة.

المطلب الثالث: مستويات المقاصد

يرى العلماء أن مقاصد الشريعة فيها مستويان، الأول: (**مقاصد الخطاب والألفاظ**)[2] والثاني: (**مقاصد الأحكام**)[3] والشيخ ابن عاشور وإن لم يصرح بذلك إلا أنه يشير إلى أهمية العلاقة بين الألفاظ والمعاني كما سيأتي بيانه في الصفحات الآتية.

---

(1) الطاهر ابن عاشور، مقاصد الشريعة الاسلامية، (ص/56 ـ 63).

(2) (**مقاصد الخطاب**): هي مقاصد الشارع من كلامه ومن خطابه، بمعنى ماذا قصد من هذا النص؟، ومن هذه العبارة؟، ومن هذا الأمر؟، ومن هذه الآية؟، ومن هذا الحديث؟، أي المعنى المقصود والحكم المقصود؛ انظر: أحمد الريسوني، محاضرات في مقاصد الشريعة، (ص/9)؛ ويقول العلامة القرافي في هذا السياق نفسه: « والألفاظ إنما هي وسائل، والأحكام الشرعية مقاصد بالنسبة إلى الألفاظ، والمقاصد أفضل من الوسائل »؛ الفروق للقرافي، أنوار البروق في أنواء الفروق (224/2)؛ ويقول العلامة ابن القيم الجوزية ـ رحمه الله ـ في كتابه إعلام الموقعين عن رب العالمين، (169/1): « ولهذا كان معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله أصل العلم وقاعدته وأخيته التي يرجع إليها، فلا يخرج شيئا من معاني ألفاظه عنها، ولا يدخل فيها ما ليس منها، بل يعطيها حقها، ويفهم المراد منها »؛ يقول الله تعالى: ﴿**الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ**﴾ [التوبة: 97]، فإذا لابد من معرفة الدلالات الشرعية والمعاني الشرعية، المقصودة وليست الملفوظة، فكثيرا ما يكون المعنى المقصود على خلاف الظاهر الملفوظ، فتدبر الملفوظ بحثا عن المقصود، إنما هو تعرف على حدود الله تعالى ووقوف على حدود الله.

(3) (**مقاصد الأحكام**): هو معرفة الحِكَم والمصالح الشرعية المطلوبة والمفاسد المدفوعة، فمثلا: لماذا نهى الله عن الشرك؟، ولماذا أمر بالتوحيد؟، وما هي الحكمة إرسال الرسل وإنزال الكتب؟، وغيرها من الأمور؛ انظر: أحمد الريسوني، مدخل إلى مقاصد الشريعة، (ص/20 ـ 22) ـ بتصرف.

ويُلاحَظ هنا أنّ ما ذهب إليه الشيخ هو ما قرَّره علماء الإسلام قبله، فالمسألة قد أصَّلَها قديمًا العلامةُ أبو إسحاق الشاطبي في كتابه (الموافقات)، محددا الرُّكْنَيْنْ الرئيسيين لاستنباط أحكام الشريعة، وهما:

أ ـ (العلم باللسان العربي)، الذي كان فطريا عند الصحابة والتابعين فهم من العرب الخُلَّص، ولم يكونوا في حاجة لقواعد تضبطه لهم.

ب ـ (الإحاطة بأسرار الشريعة ومقاصدها): وقد حصل الصحابة هذا الركن من طول صحبتهم لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومعرفتهم الأسباب التي ترتب عليها التشريع، حيث كان ينزل القرآن وترد السنة نجوما، بحسب الوقائع مع صفاء الخاطر؛ فأدركوا المصالح، وعرفوا المقاصد التي أعتبرها الشارع في التشريع، كما يعرف ذلك من وقف على شيء من محاوراتهم عند أخذ رأيهم، واستشارة الأئمة لهم في الأحكام الشرعية التي كانوا يتوقَّفون فيها.

وبناء على ما ذكر نجد الشاطبي يشدد على أهمية الاعتناء بالمعاني المبثوثة في الخطاب فهو المقصود الأعظم، فإن العرب اهتموا بالمعاني، وأصلحوا الألفاظ من أجلها، وهذا الأصل معلوم عند أهل العربية، فاللفظ إنما هو وسيلة إلى تحصيل المعنى المراد، والمعنى هو المقصود، فإن المعنى الإفرادي قد لا يعبأ به، إذا كان المعنى التركيبي مفهوما دونه.

وبناء على ما سبق بيانه وذكره، يجب على كلّ من يريد معرفة الأحكام أن يعتني بفهم معنى الخطاب ومقاصد الأحكام في نصوص الكتاب والسنة، لأنه المقصود والمراد[1].

وتبعا لهذا الأمر، يرى الشيخ بن عاشور، أنّ فهم الخطاب ومعرفة مقاصده لا يتأتّى إلّا بالتضلّع في علوم اللغة العربية وفهم نصوصها، مثلما هو واضح عند قوله تعالى: ﴿**يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ**﴾ [الممتحنة: 1]، فيشير إلى أنّ اللغة العربية واضحة، وسياق الكلام حارس من الفهم المخطئ، فلو وقف القارئ على قوله: ﴿**الرسولَ**﴾ لا يخطر ببال العارف باللغة أن قوله: ﴿**وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ**﴾ تحذير من الإيمان بالله، وكيف يخطر ذلك وهو موصوف بقوله: ربكم، فهل يحذر أحد من الإيمان بربه؟![2].

---

(1) انظر: أبو إسحاق الشاطبي الموافقات في أصول الشريعة الاسلامية، (140/2).

(2) انظر: الطاهر بن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (83/1).

ولعل أوضح مثال على ما ذهب إليه الشيخ ابن عاشور في هذا الشأن: ما ورد في الصحيح عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: « لما نزلت هذه الآية: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ...**﴾ [الأنعام: 82]، شَقَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وَقَالُوا: « **أَيُّنَا لَمْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ؟** »، فَقَالَ النَّبِيُّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ: « **لَيْسَ كَمَا تَظُنُّونَ، إِنَّمَا هُوَ كَمَا قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾** [لقمان: 13] »[1].

يشير ـ رحمه الله ـ إلى أنّ وصف الشرك بالظلم العظيم، لأنه أكبر الاعتداء، إذ هو اعتداء على المستحق المطلق العظيم، لأن من حقه أن يفرد بالعبادة اعتقادا وعملا وقولا، لأن ذلك حقه على مخلوقاته، وذلك أن الشرك جمع بين الاعتراف لله بالإلهية، والاعتراف لغيره بالربوبية أيضا.

ولما كان الاعتراف لغيره ظلما كان إيمانهم بالله مخلوطا بظلم وهو إيمانهم بغيره، وحمله على هذا المعنى هو الملائم لاستعارة اسم الخلط لهذا المعنى، لأنّ الإيمان بالله وإشراك غيره في ذلك كلاهما من جنس واحد، وهو اعتقاد الربوبية، فَهُمَا متماثلان، وذلك أظهر في وجه الشَّبَهِ، لأنَّ شأن الأجسام المتماثلة أن يكون اختلاطها أشدّ، فإنَّ التشابه أقوى أحوال التشبيه عند أهل البيان، والمعنى الذين آمنوا بالله ولم يشركوا به غيره في العبادة[2].

ومثله أيضا: قول الله تعالى: ﴿**اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ وَالمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُواْ إِلاَّ لِيَعْبُدُواْ إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ [التوبة: 31] ففي حديث عديّ بن حاتمٍ، قال: « أتيتُ النبيّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ وفي عنقي صليبٌ من ذهبٍ، فقال: « **يَا عَدِيُّ اطْرَحْ عَنْكَ هَذَا الوَثَنَ،** وَسَمِعْتُهُ يَقرأ في سورة براءة: ﴿**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ**﴾ [التوبة: 31]، قال:

---

(1) أخرجه البخاري في: صحيحه ـ كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم ـ باب ما جاء في المتأولين، (18/9)، برقم: (6937)، عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ.

(2) انظر: الطاهر بن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (332/7 ـ 333)؛ ولمزيد من المعرفة والتفصيل انظر: أبو إسحاق الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، (27/4 ـ 29).

أَمَا إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَحَلُّوا لَهُمْ شيئًا اسْتَحَلُّوهُ، وَإِذَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ شَيْئًا حَرَّمُوهُ » [1].

يقول ابن عاشور في تفسيرها: « ومعنى اتخاذهم هؤلاء أربابا أن اليهود[2] ادعوا لبعضهم بنوة الله تعالى، وذلك تأليهٌ، وأن النصارى[3] أشدّ منهم في ذلك، إذ كانوا يسجدون لصور عظماء ملَّتِهِم، مثل: صورة مريم، وصور الحواريين، وصورة يحيى بن زكرياء، والسجود من شعار الربوبية، وكانوا يستنصرون بهم في حروبهم، ولا يستنصرون بالله؛ وهذا حال كثير من طوائفهم وفرقهم، ولأنهم كانوا يأخذون بأقوال أحبارهم ورهبانهم المخالفة لما هو معلوم بالضرورة أنه من الدين، فكانوا يعتقدون أن أحبارهم ورهبانهم يحلِّلُون ما حرَّم الله، ويحرِّمون ما أحلَّ الله، وهذا مُطَّرِدٌ في جميع أهل الدِّينَيْنِ... »[4].

إلى أن يقول: « فحصل من مجموع أقوال اليهود والنصارى أنهم جعلوا لبعض أحبارهم ورهبانهم مرتبة الربوبية في اعتقادهم، فكانت الشناعة لازمة للأُمَّتَيْنِ، ولو كان من بينهم من لم يقل بمقالهم، كما زعم عدي بن حاتم، فإنَّ الأُمَّة تؤاخذ بما يصدر من أفرادها إذا أقرَّتْهُ ولم تنكره، ومعنى اتخاذهم أربابا من دون الله أنهم اتخذوهم أربابا دون أن يفردوا الله بالوحدانية، وتخصيص المسيح بالذكر، لأنَّ تأليهَ النصارى إيَّاهُ أشنعُ وأشهرُ »[5].

---

(1) أخرجه الترمذي في: سننه ـ تفسير سورة التوبة، (278/5)، برقم: (3095)، ثم قال: « هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب »؛ والطبراني في: المعجم الكبير، (92/17)، برقم: (218)؛ والبيهقي في: السنن الكبرى، (198/10)، برقم: (20350)؛ وأورده الألباني في: سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها، (861/7)، برقم: (3293).

(2) هم: أمة سيدنا موسى عليه السلام، وكتابهم التوراة؛ والكلمة مشتقّة من قولك: (هاد الرجل)، أي: رجع وتاب؛ وإنما لزمهم هذا الاسم؛ لقول موسى عليه السلام: ﴿**إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ**﴾ [الأعراف: 156]، أي: رجعنا وتضرعنا؛ انظر: الملل والنحل (2/ 15).

(3) هم: قوم وأتباع سيدنا عيسى عليه السلام، وانقسموا إلى فِرَقٍ ضالة؛ منهم، (الملكية) القائلون: إنّ عيسى ابن الله؛ و(اليعاقبة) القائلون: إنّ عيسى هو الله نزل وأخذ ابن آدم وعاد يعني تصوّر بصورة آدم ثم رجع إلى تعاليه؛ ومنهم (المثلّثة) القائلون: إنّ الله في نفسه عبارة عن ثلاثة عن آب وهو الروح القدس وعن أم وهي مريم وعن ابن وهو عيسى؛ انظر: كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، (2/ 1700).

(4) انظر: الطاهر بن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (10/ 170).

(5) انظر: المصدر نفسه والصفحة.

ومنها كذلك: الحديث القدسي الذي تولى الله عز وجل بيان ما اشتبه منه على عبده[1]، وهو قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: « **إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ يَوْمَ القِيَامَةِ: يَا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُودُكَ؟ وَأَنْتَ رَبُّ العَالَمِينَ، قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلَانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ؟ يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ وَكَيْفَ أُطْعِمُكَ؟ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطْعَمَكَ عَبْدِي فُلَانٌ، فَلَمْ تُطْعِمْهُ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي، يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَسْقَيْتُكَ، فَلَمْ تَسْقِنِي، قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَسْقِيكَ؟ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، قَالَ: اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فُلَانٌ فَلَمْ تَسْقِهِ، أَمَا إِنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ وَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي** »[2].

والأمثلة والنماذج في هذا الباب كثيرة جدًّا، ويكفي ما أوردتُه هنا لبيان أهمية فهم خطاب الشارع، ومعرفة أغراضه ومقاصده، بشتَّى التعبيرات التي ترادف كلمة (مقاصد الشريعة)[3].

---

(1) انظر: الطاهر بن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (482/2).

(2) أخرجه مسلم في: صحيحه ـ كتاب البر والصلة والآداب ـ باب فضل عيادة المريض، (1990/4)، برقم: (2569).

(3) عبَّر علماء الإسلام عن المقاصد بتعبيرات أخرى، ونبَّهوا عليها، وبيَّنوا أهمية معرفة الألفاظ التي استعملت قديما، وحصروا ذلك في سببين:

أ ـ التوهُّم بأنّ العلماء لم يتكلَّموا عن مقاصد الشريعة، بينما هم قد استعملوا ألفاظا أخرى مرادفة لها، فلابد من معرفتها والتنبّه لها.

ب ـ أن هذه الألفاظ الأخرى قد تزيد المعنى توضيحا، وتستوعب مضامينها أكثر.

ويعبِّرون عنها العلماء بـ(**الحِكَم**)، فنجدهم يتحدثون في مؤلفاتهم الفقهية وغيرها، عن الأحكام والحكم، فيتناولون حُكْم المسألة، ثم يتبعونه بحِكْمَتِها، فيقولون مثلا: (الصلاة: حكمها، حكمتها)، (الزكاة: حكمها، حكمتها)، (البيع: حكمه حكمته)، وهكذا؛ كما يعبرون عنها أيضا بـ(**العلل**)، و(**الأسرار**)، وهي الحقائق والدقائق العلمية العميقة التي تحتاج إلى نظر وسداد وجُهْدٍ، لأنَّ العلم عبادةٌ وجهادٌ، هناك من يجاهد بالحفظ والرواية، وهناك من يجاهد بالنظر والدراية، فيقولون: (أسرار الشريعة) و(أسرار التشريع)، وهكذا، حتى أنّ الشاطبي سمى كتابه الموافقات بـ(التعريف بأسرار التكليف) ثم عدل عنه؛ وربما عبروا عنها بـ(**المراد**) و(**الغرض**)، فيقولون: (مراد الشرع كذا)، و(غرض الشرع كذا)، أو (غرض الشارع) أو (مراد الله تعالى في هذه الآية)، و(مراد رسوله ـ صلى الله عليه

المبحث الثاني

نشأة علم مقاصد العقائد

قبل الشروع في الحديث عن مقاصد العقائد نشير إلى قاعدة هامَّة ذكرها أهل العلم، وهي أنَّه لا يجوز الخوض في دين الله عز وجل من دون دليل من كتاب أو سنة، في أيّ تخصص من التخصُّصات، وبخاصة العلوم الشرعية، سواء تعلّق الأمر بالتفسير، أو الحديث، أو الفقه، أو العقيدة، أو غير ذلك.

ويمكن طرح وبيان هذه الفكرة، ابتداء من الإشارة إلى نشأة هذا العلم وبيان آفاقه، وهو ما سنراه بشيء من التفصيل في المطلبين الآتيين:

المطلب الأول: لا مقصد إلا بدليل

تتأكد الحاجة إلى العلم في ميدان المقاصد، سواء مقاصد الشريعة أو مقاصد العقيدة، إذ لا يجوز ـ في نظر العلماء[1] ـ القول بها ولا تحديدها، ولا إثباتها ولا نفيها إلا بدليل.

فنسبة مقصد ما إلى الشريعة هو كنسبة قولٍ أو حكمٍ إلى الله تعالى، لأن الشريعة شريعته والقصد قصده، والقول بأن مقصود الشريعة كذا وكذا، من غير إقامة الدليل على ذلك هو قول على الله بغير عِلْمٍ وبغير حقٍّ.

وهذا المعنى يؤكِّده قوله الله تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالبَغْيَ بِغَيْرِ الحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾ [الأعراف: 31]؛ وقوله عز وجلّ: ﴿**وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ**﴾ [الإسراء: 36].

يقول الشيخ الطاهر بن عاشور في تفسير قوله عز وجل: ﴿**وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ**

وسلم ـ في هذا الحديث)؛ وسمَّاه الإمام الزركشي (**فقه الفقه**)، وأطلق عليه الريسوني (**الفقه الحي**)؛ انظر: أحمد الريسوني، مدخل إلى مقاصد الشريعة، (ص/22 ـ 28).

(1) انظر: أحمد الريسوني، الفكر المقاصدي قواعده وفوائده، (ص/59).

عَلَى اللَّهِ الكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ [النحل: 116]: « والآية تحذِّر المسلمين من أن يَتَقَوَّلُوا على الله ما لم يقله بنصٍّ صريحٍ أو بإيجاد معانٍ وأوصاف للأفعال قد جعل لأمثالها أحكامًا، فمن أثبت حلالًا وحرامًا بدليلٍ من معانٍ ترجع إلى مماثلة أفعال تشتمل على تلك المعاني فقد قال بما نصب الله عليه دليلا » [1].

وفي موضع آخر يقول: « ثم إن هذا التقسيم الذي فرضناه إنما هو في العلوم والتكاليف التي تدخل تحت سلطان الإدراك البشري، بحيث إذا وقع التردّد فيها، أو طلب الاستدلال عليها، يمكن الانتهاء في الاستدلال عليها إلى البراهين التي تقوم بها الحجة، حتى إذا خَفِيَ المطلوبُ، وارتقى الاستدلالُ، فلابدّ أن ينتهي إلى دليلٍ ضروريٍّ من حسٍّ، أو عقلٍ، أعني: في الأمور التي يمكن بواسطة الحسّ أو بالبرهان التصديق بها أو التكذيب، أما ما لا يدخل تحت سلطان الإدراك البشري، وهو ما كان راجعا إلى عالم الغيب، أيْ: العوالم التي تجاوزت نظام عالَمِ المادَّة، وهي العوالم المترتبة نظمها على غير النظام الذي جعل عليه عالم هذه الحياة، فما أعرض الشارع عن بيانه في هذا النوع يجب أن نقتدي به كما علمنا الله تعالى بقوله: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَما أُوتِيتُمْ مِنَ العِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا**﴾ [الإسراء: 85]، وما أعطاه الشارع حظًّا من بيانٍ لحقيقته، يجب أن نتلقَّاها على قدرِ ما بيَّنها الشارع دون زيادة »[2].

بمعنى: « أنّ المقاصد من الله تعالى، هو الذي يحدِّدُها ويدلّ عليها، لا العبدُ القاصر في كلّ حواسِّه، إذ عقله قد لا يدرك المصالح الحقيقية، أو يغفل عنها، وقد لا يدركها على وجه الكمال، وكذا قد يظن المفسدة مصلحة »[3].

---

(1) الطاهر ابن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، الدار التونسية للنشر، تونس، طبعة (1984 هـ)، (312/14).

(2) الطاهر ابن عاشور، أصول النظام الاجتماعي في الاسلام، الشركة التونسية للتوزيع تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، الطبعة الثانية، (جويلية 1985م)، (ص/45).

(3) محمد بكر إسماعيل حبيب مقاصد الشريعة تأصيلا وتفعيلا، إدارة الدعوة والتعليم سلسلة دعوة الحق كتاب شهري محكم، (1427 هـ)، السنة الثانية والعشرون، (ص/23).

وهذا الذي يذكره الشيخ ابن عاشور هو الذي يقرَّره علماء الإسلام[1]، مثلما يشير إليه الشاطبي[2] ـ رحمه الله ـ بقوله: «كما أنّ من لم يعرف مقاصدهما، أي: الكتاب والسنة، لم يحلّ له أنْ يتكلَّم فيهما »[3].

المطلب الثاني: نشأة علم مقاصد العقائد وآفاقه

يدافع الإمام الشاطبي عن تعليل الأحكام في الكتاب والسنة، وعلى رأسها العقائد، وتفاصيل المسائل، وعن الاستقراء منهجا لاستنباط العلل والمقاصد منها.

وقبله نجد الحكيم الترمذي[4] يكتب عن أسرار وعلل العقائد في كتابه (إثبات العلل)، حيث يذكر علّة الإقرار بالتوحيد مثلا، فيقول: « ... فاقتضى الله العباد الإقرار بالإيمان، لتكون حجّة الله تعالى قائمة، كما بعث الله الرسل ليبيِّنَ لهم، لئلَّا يكون للناس على الله

---

(1) انظر: جاسر عودة، الاجتهاد المقاصدي من التصور الأصولي إلى التنزيل العملي، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، (2013م)، (ص/138 ـ 139)؛ وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ التأليف في (علم مقاصد العقائد)، وإن كان مجهولا لدى عامة المسلمين، وحتى العلماء منهم، إلّا أنه ليس بدعا من العلوم، بل هو باب من أبواب المقاصد، كبقية الأبواب الأخرى، قديم جديد، بحث فيه الأئمة، وتحدَّثوا عنه بمصطلحات تختلف عن مصطلح (مقاصد العقائد) في الشكل، ولكنّها تتَّفق في المضمون، وذلك كحديثهم عن (الأسرار) و(الحِكَم) و(الأغراض) و(المحاسن) و(المناقب) التي تتعلَّق بالعقائد من إيمان بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر، إلى صفات الله تعالى وأفعاله، وغير ذلك من مسائل الاعتقاد.

(2) هو: إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشاطبي المالكي، أبو إسحاق، الإمام، العلامة، الحافظ، الأصولي، الفقيه، اللغوي، المدقِّق، المحقِّق، من كتبه: (الموافقات في أصول الفقه)، و (المجالس) شرح به كتاب البيوع من صحيح البخاري، (الإفادت والإنشادات) رسالة في الأدب، (الاتِّفاق في علم الاشتقاق)، (أصول النحو)، (الاعتصام) في أصول الفقه، (المقاصد الشافية في شرح خلاصة الكافية)، توفي سنة (790 هـ) //(1388م)؛ انظر: الأعلام للزركلي، (75/1).

(3) أبو إسحاق الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان للنشر، الطبعة الأولى، (1417 هـ ـ 1997م) (213/3).

(4) هو: محمد بن علي بن الحسن بن بشر الحكيم الترمذي، أبو عبد الله، الإمام، المحدث، الزاهد، الباحث، اهتمّ بالحديث وأصول الدين وغيرها، حدّث ودرَّس بـ(نيسابور)، من كتبه: (نوادر الأصول في أحاديث الرسول)، (غرس الموحدين)، (الرياضة وأدب النفس)، (الصلاة ومقاصدها)، (المسائل المكنونة)، (الأكياس والمغترين)، (بيان الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللبّ) رسالة طبعت سنة (1958م)، (العقل والهوى)، (العلل)، توفي نحو سنة (320 هـ) //(932م)؛ انظر: الأعلام للزركلي، (272/6)؛ لسان الميزان، لابن حجر، (308/5)؛ مفتاح السعادة، (170/2)؛ طبقات السبكي، (20/2).

حجّة بعد الرسل، أن يقولوا ماجاءنا من بشيرٍ ولا نذيرٍ، فهذه علّة الإقرار، صيَّر اللهُ تبارك وتعالى اسمه هذه الكلمة عصمة للمؤمنين في الدنيا والآخرة... »[1].

وهكذا فعل شيخ الإسلام الهروي[2] ـ رحمه الله ـ في كتابه (منازل السائرين)، إذ يقول: « ولطائف سرائر التَّوْبَة ثَلَاثَة أَشْيَاء:

أَولهمَا: أَن تنظر بَين الجِنَايَة والقضية، فتتعرف مُرَاد الله فِيهَا، إِذْ خَلَّاكَ وإتيانَها، فَإِنَّ الله عزَّ وَجلَّ إِنَّمَا يُخَلِّي العَبْد والذَّنْبَ لأحد مَعْنيين:

أَحدهمَا: أَن تعرف عزته فِي قَضَائِهِ وبره فِي ستره وحلمه فِي إمهال رَاكِبه وَكَرمه فِي قبُول العذر مِنْهُ وفضله فِي مغفرته.

وَالثَّانِي: لِيُقيمَ على العَبْد حجَّة عدله فيعاقبه على ذَنبه بحجته.

واللطيفة الثَّانِيَة: أَن تعلم أَن طلب البَصِير الصَّادِق سيئته لم يبْق لَهُ حَسَنَة بِحَال لِأَنَّهُ يسير بَين مُشَاهدَة المِنَّة وتطلب عيب النَّفس وَالعَمَل.

واللطيفة الثَّالِثَة: أَن مُشَاهدَة العَبْد الحكم لم تدع لَهُ اسْتِحْسَان حَسَنَة. وَلَا استقباح سَيِّئَة. لصعوده من جَمِيع المعَانِي إِلَى معنى الحكم »[3].

وأما الإمام الغزالي[1]، فقد اشتهر بنظراته المبدعة في (الأسرار)، والتي تعدَّى بها الحديث عن الأحكام والعبادات والمعاملات ـ كما في إحياء علوم الدين ـ إلى الحديث عن أسرار العقائد في معرض كلامه عن معارف فقهاء الإسلام وعلمائه الأولياء وأحوالهم[2].

---

(1) أبو عبد الله محمد بن علي الحكيم الترمذي، إثبات العلل، تحقيق ودراسة خالد زهري، (ص/80)؛ وانظر أيضا: جاسر عودة، الاجتهاد المقاصدي من التصور الأصولي إلى التنزيل العملي، (ص/137)؛ أحمد الريسوني، نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي، (ص/26).

(2) هو: عبد الله بن محمد بن علي الأنصاري الهروي الحنبلي، أبو إسماعيل، العلامة، الفقيه، شيخ خراسان في عصره، ولد سنة (396 هـ) //(1006م) من ذرية أبي أيوب الأنصاري، كان بارعا في اللغة، حافظا للحديث، عارفا بالتاريخ والأنساب، مظهرا للسنّة، داعيا إليها، من كتبه: (ذمّ الكلام وأهله)، (الفاروق في الصفات)، (كتاب الأربعين في التوحيد)، (الأربعين في السنة)، (منازل السائرين)، توفي سنة (481 هـ) //(1089م)؛ انظر: الأعلام، للزركلي، (122/4).

(3) أبو إسماعيل عبد الله بن محمد بن علي الأنصاري الهروي، منازل السائرين، دار الكتب العلمية ـ بيروت، (د ـ ت) (ص/14).

وكتبَ الإمام عِزُّ الدين بن عبد السلام[3] عن أسرار قرب الله عزّ وجلّ وعظمته ومعرفته، وأثر ذلك على العبد خضوعا وخشوعا وتذللا لله تعالى[4]، كقوله ـ مثلا ـ: « جعل الله عز وجل لكلّ معرفة حَالا ينشأ عنها، فمن عرف نعمة الله تعالى كان حَاله الخوف ومن عرف سعة رحمة الله كان حاله الرَّجاء، ومن عرف توحيد الرب وبالنفع والضر والرفع والخفض لم يتوكل فِي جلب النَّفْع وَدفع الضّر والإعطاء والحرمان إِلَّا عليه ولم يفوض أمره إلا إليه... »[5].

وبرعَ ابن عطاء الله السكندري[6] في كتابه القيِّم (الحكم العطائية والكلم الفارقية)، في بيان تلك الحِكَم المتعلّقة بمعرفة الله، وعبادته، وخوفه، والطَّمَعِ فيما عنده، وهي مقامات للسير إلى الله عز وجل، وهو ما نلاحظه ـ مثلا ـ في حديثه عن الحكمة الثالثة والتسعين،

---

(1) هو: محمد بن محمد بن محمد الغَزَالي الطوسي، أبو حامد، حجة الإسلام، العلامة، الفقيه، الأصولي، المتكلم، الفيلسوف، المتصوف، ولد بـ(الطابران) بـ(طوس) سنة (450 هـ) //(1058م)، رحل إلى عدد من البلدان، من كتبه: (إحياء علوم الدين)، (الاقتصاد في الاعتقاد)، (معارج القدس في أحوال النفس)، (مقاصد الفلاسفة)، (المنقذ من الضلال)، (جواهر القرآن)، (التبر المسبوك في نصيحة الملوك)، (المستصفى من علم الأصول)، (المنخول من علم الأصول)، (ياقوت التأويل في تفسير التنزيل)، (المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى)، توفي سنة (505 هـ) //(1111م)؛ انظر: الأعلام، للزركلي، (22/7 ـ 23).

(2) انظر ـ مثلا ـ: إحياء علوم الدين، باب بيان العلم الذي هو فرض كفاية، دار المعرفة ـ بيروت، (24/1).

(3) هو: عبد العزيز بن عبد السلام بن محمد بن الحسن السلمي الدمشقيّ، عز الدين، الملقب بـ(سلطان العلماء)، ولد بـ(دمشق) سنة (577 هـ) //(1181م)، الإمام، العلامة، الفقيه الشافعيّ، بلغ رتبة الاجتهاد، تولى الخطابة بـ(الجامع الأموي)، اشتهر بإنكاره على السلطان الصالح إسماعيل ابن العادل حين سلّم (قلعة صفد) للفرنجة، من كتبه: (التفسير الكبير)، (قواعد الأحكام في إصلاح الأنام)، (بداية السول في تفضيل الرسول)، توفي بـ(القاهرة) سنة (660 هـ) //(1262م)؛ انظر: الأعلام للزركلي (21/4).

(4) انظر: عز الدين بن عبد السلام، شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال والأعمال، (ص/41 ـ 42)، تحقيق: أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، الطبعة الأولى: (1424 هـ ـ 2003م).

(5) العز بن عبد السلام، الفوائد في اختصار المقاصد، تحقيق: إياد خالد الطباع، دار الفكر المعاصر دمشق، الطبعة الأولى، (1416 هـ)، (ص/145 ـ 147).

(6) هو: أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عَطَاء الله الإسكندري، أبو الفضل، تاج الدين، الإمام، الزاهد، الصالح، من تصانيفه الشهيرة: (الحكم العطائية) في الزهد، (تاج العروس) في الوصايا والعظات، (لطائف المنن في مناقب المرسي وأبي الحسن)، توفي بـ(القاهرة) سنة (709هـ) //(1309م)؛ الأعلام للزركلي (221/1 ـ 222).

بقوله: « متى أعطاك أشهدك بِرَّهُ، ومتى منعك أشهدك قَهْرَهُ، فهو في كلّ ذلك متعرِّفٌ إليكَ، ومُقْبِلٌ بوجود لطفه عليك »[1].

وصنَّف الإمام الطوفي[2] (رسالة في مراعاة المصلحة)، دافع فيها عن تعليل أفعال الله بالمصالح، وذكر فيها بعضا منها، بقوله: « ما من آية في كتاب الله عز وجل إلَّا وهي تشتمل على مصلحة أو مصالح...، وعند التحقيق إنما راعى مصلحة العباد عموما، حيث دعا الجميع إلى الإيمان، الموجب لمصلحة العباد »[3].

وعلى هذا النهج سار شيخ الإسلام ابن تيمة[4]، فهو ذو باع كبير في هذا الميدان، وكتبه طافحة بالحديث عن أسرار العقائد، منها: ما يذكره ـ رحمه الله ـ بقوله: « فالمقصود أن يكون الدين كلُّه لله، وأن تكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الله اسم جامع لكلماته التي تضمنها كتابه، وهكذا قال تعالى: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الكِتَابَ**

---

(1) ابن عباد النفزي الرندي: شرح الحكم العطائية، دراسة: محمد عبد المقصود هيكل، إشراف ومراجعة: عبد الصبور شاهين، الطبعة الأولى: (1408هـ ـ 1988م)، مركز الأهرام للترجمة والنشر، (ص/62).

(2) هو: سليمان بن عبد القوي بن الكريم الطوفي الصرصري الحنبلي، أبو الربيع، نجم الدين، الإمام، العالم، الأصولي، الفقيه، اللغوي، المفسر، المتكلم، ولد (طوف) بـ(العراق) سنة (657 هـ) //(1259)، انتقل إلى (دمشق) سنة (704 هـ)، وزار (مصر)، وجاور بالحرمين، من كتبه: (بغية السائل في أمهات المسائل) في أصول الدين، (الإكسير في قواعد التفسير)، (الذريعة إلى معرفة أسرار الشريعة)، (الإشارات الإلهية والمباحث الأصولية)، (البلبل في أصول الفقه)، (مختصر الجامع الصحيح للترمذي)، توفي بـ(الخليل) بـ(فلسطين) سنة (716 هـ) //(1316م)؛ انظر: الأعلام للزركلي (3/127 ـ 128).

(3) الطوفي، رسالة في رعاية المصلحة، تحقيق: أحمد عبد الرحيم السايح، الناشر الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الأولى، (1413 هـ ـ 1993م)،(ص/30 ـ 33).

(4) هو: أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية النميري الحراني الدمشقيّ الحنبلي، أبو العباس، تقي الدين، شيخ الإسلام، العلامة، الفقيه، المفسر، ولد في (حران) بـ(الشام) سنة (661 هـ) //(1263)، برع في عدد من العلوم، كالتفسير والأصول والفقه وغير ذلك، وكان فصيح اللسان، حسن العبارة، سجن مدة طويلة، بسبب آرائه وفتاواه، من كتبه: (السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية)، (الفتاوى الكبرى)، (الفرقان بين أولياء الله وأولياء الشيطان)، (الواسطة بين الحق والخلق)، (الصارم المسلول على شاتم الرسول)، (مجموع الفتاوى)، (رفع الملام عن الأئمة الأعلام)، توفي سنة (728 هـ) //(1328م)؛ الأعلام للزركلي (1/144).

وَالمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالقِسْطِ﴾ [الحديد: 25]، فالمقصود من إرسال الرسل، وإنزال الكتب، أن يقوم الناس بالقسط، في حقوق الله وحقوق خلقه » [1].

ومنها: ما يقوله ـ رحمه الله ـ منكرا على الذين حصروا المقاصد في حفظ الكليات الخمس، بقوله: « وقوم من الخائضين في أصول الفقه، وتعليل الأحكام الشرعية بالأوصاف المناسبة، إذا تكلّموا في المناسبة، وأن ترتيب الشارع للأحكام الشرعية بالأوصاف المناسبة يتضمَّن تحصيل مصالح العباد، ودفع مضارهم، ورأوا أن المصلحة نوعان: (أخروية)، و(دنيوية)، جعلوا الأخروية: ما في سياسة النفس وتهذيب الأخلاق من الحكم، وجعلوا الدنيوية: ما تضمَّن حفظَ الدماء، والأموال، والفروج، والعقول، والدين الظاهر، وأعرضوا عن العبادات الباطنة والظاهرة من أنواع المعارف بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله، وأحوال القلوب وأعمالها، كمحبة الله, وخشيته، وإخلاص الدين له، والتوكل عليه، والرجا لرحمته ودعائه، وغير ذلك من أنواع المصالح في الدنيا والآخرة، وكذلك فيما شرعه من الوفاء بالعهود، وصلة الأرحام، وحقوق المماليك والجيران، وحقوق المسلمين بعضهم على بعض، وغير ذلك من أنواع ما أمر به ونهى عنه: حفظًا للأحوال السنية، وتهذيب الأخلاق، ويتبين أن هذا جزء من أجزاء ما جاءت به الشريعة من المصالح » [2].

وتوسّع ابن القيم[3] ـ رحمه الله ـ في هذه المسألة أكثر من شيخه، في عدد من مصنَّفاته، حيث تناول فيها مقاصد العقائد، كما يظهر ذلك بوضوح في كتابه الشهير

---

(1) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، تاريخ النشر: (1416هـ ـ 1995م)، (263/28)؛ نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي، أحمد الريسوني، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الطبعة الثانية، (1412 هـ ـ 1992م)، (ص/54).

(2) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، (234/32)؛ نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي، (ص/54 ـ 55)،

(3) هو: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد بن قيم الجوزية الزُّرْعي الدمشقيّ، الحنبلي، أبو عبد الله، شمس الدين، ولد سنة (691 هـ) //(1292م)، الإمام، العلامة، المفسر، الأصولي، الفقيه، المصلح، تتلمذ لشيخ الإسلام ابن تيمية، وانتصر لآرائه، وسجن معه في قلعة دمشق، كان حسن الخُلُق، محبوبا عند الناس، من كتبه: (إعلام الموقعين)، (الطرق الحكمية في السياسة الشرعية)، (شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل)، (مفتاح دار السعادة)، (مدارج السالكين بين إياك نعبد وإياك نستعين)، (حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح)، (التبيان في أقسام القرآن)، توفي بـ(دمشق) سنة (751 هـ) //(1350م)؛ انظر: الأعلام للزركلي (56/6).

(مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين)[1]، ومما جاء فيه قوله: « فاعلم أن سرَّ العبودية، وغايتها وحكمتها إنما يطَّلِعُ عليها مَنْ عرَفَ صفاتَ الرَّبِّ عزَّ وجلّ، ولم يعطِّلْها، وعرف معنى الإلهية وحقيقتها، ومعنى كونه إلها، بل هو الإله الحق، وكل إله سواه فباطل، بل أبطل الباطل، وأن حقيقة الإلهية لا تنبغي إلا له، وأن العبادة موجب إلهيته وأثرها ومقتضاها، وارتباطها بها كارتباط متعلق الصفات بالصفات، وكارتباط المعلوم بالعلم، والمقدور بالقدرة، والأصوات بالسمع، والإحسان بالرحمة، والعطاء بالجود » [2].

وللإمام الجليل ولي الله الدهلوي[3] كلام نفيس عن مقاصد العقائد، أورده في أبواب متعددة من كتبه، كباب الإيمان بصفات الله تعالى والقدر، وأنّ العبادة حقّ الله تعالى على عباده، لأنّه مُنْعِمٌ عليهم مجاز لهم بالارادة وباب تعظيم شعائر الله (القرآن، والكعبة، والنبي، والصلاة)، وغير ذلك من الأبواب الاعتقادية[4].

وهذه المعاني يوضحها أحد العلماء المعاصرين، وهو الشيخ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني في كتابه (العقيدة الإسلامية وأسسها)، حيث تناول الحديث عن أركان الإيمان، وبيَّنَ بعض آثارها، كما في حديثه عن أسماء الله وصفاته، إذ يقول: « أثر ملاحظة صفة القدرة لله تعالى بمراتبها المختلفة: فمن عرف أن الله هو القوي، المتين، القادر... رجع في كل شيء إلى قدرته تعالى، متوكلا عليه سبحانه، فلم يعظم عليه مطلب، بل يهون في نفسسه كل أمر،

---

(1) هو شرح مفصّل لكتاب (منازل السائرين) لشيخ الاسلام عبد الله بن محمد بن علي الأنصاري الهروي، المتوفى سنة (481 هـ).

(2) إبن قيم الجوزية، مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي ـ بيروت، الطبعة الثالثة، (1416 هـ ـ 1996م)، (118/1).

(3) هو: أحمد بن عبد الرحيم الفاروقي الدهلوي الهندي الحنفي، أبو عبد العزيز، الملقب (شاه وَليُّ الله)، ولد سنة (1110 هـ) //(1699م)، كان فقيها، محدِّثًا، محبا للسنة، محييا لها، وَلِيًّا لله، زاهدا، زار الحجاز سنة (1143 هـ) إلى (1145 هـ)، من كتبه: (الفوز الكبير في أصول التفسير)، (الاعتقاد الصحيح)، (البدور البازغة) في التصوف والحكمة، (القول الجميل في بيان سواء السبيل)، (فتح الرحمن في ترجمة القرآن)، توفي سنة (1176م) //(1762م)؛ الأعلام للزركلي (149/1).

(4) انظر: جاسر عودة، الاجتهاد المقاصدي من التصور الأصولي إلى التنزيل العملي، (ص/139).

لأنه ينظر إلى قدرة قادر عظيم يستمد منها العون والتوفيق، ويعتمد عليها في تحقيق ما يرجو من خير وقوة وسعادة »[1].

ومثله الشيخ يوسف القرضاوي، الذي يشير إلى مدى السعة في مجال البحث في مقاصد الشريعة، بقوله: « الذي أرجِّحُه أنَّنَا نعني مقاصد الإسلام كلّه، وأحسب أنَّ الأصوليِّين الذين حصروا مقاصد الشريعة في الكلِّيَّات الخمس، أرادوا أن تشمل العقائد فيما تشمل، ولهذا جعلوا الدين هو الضرورة الأولى، والعقائد هي رأس الدين وأساس بنيانه كله »[2].

وكذا الشيخ محمد بن صالح بن محمد العثيمين في تدريسه للعقيدة الإسلامية، يذكر بعد كلّ مسألة المقاصد العقدية، ويسميها (الفوائد والآثار المسلكية)، كما في تفسيره لقوله تعالى: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ**﴾ [الشورى: 11]، إذ يقول ـ رحمه الله ـ: « في هذه الآية إثبات اسمين من أسماء الله، هما: السميع، والبصير؛ وثلاث صفات، هي: كمال صفاته من نفي المماثلة، والسمع، والبصر، وفيها من الفوائد المسلكية: الكفّ عن محاولة تمثيل الله بخلقه، واستشعار عظمته وكماله، والحذر من أن يراك على معصيته، أو يسمع منك مالا يرضاه »[3].

وكذلك الشيخ محمد الزحيلي، في بيانه لأهمية العقيدة ومقاصدها، حيث يقول: « فالعقيدة بمختلف أصولها وفروعها إنما جاءت لرعاية مصالح الانسان لهدايته إلى الدين الحق، والإيمان الصحيح مع تكريمه والسمو به عن مزالق الضلال والانحراف، وإنقاذه من العقائد الباطلة، والأهواء المختلفة، والشهوات الحيوانية، فجاءت أحكام العقيدة لترسيخ الإيمان بالله تعالى، واجتناب الطاغوت، ليسمو الإنسان بعقيدته وإيمانه، وينجو من الوقوع في شرك

(1) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، العقيدة الإسلامية وأسسها،(د ـ ت)، (ص/165).

(2) جاسر عودة، الاجتهاد المقاصدي من التصور الأصولي إلى التنزيل العملي، (ص/140 ـ 142).

(3) محمد بن صالح بن محمد العثيمين، شرح العقيدة الواسطية، خرج أحاديثه واعتنى به: سعد بن فواز الصميل الناشر: دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الطبعة السادسة، (1421 ه)، (208/1).

الوثنية، وتأليه المخلوقات من بقر وشجر وقرود، وشمس وقمر، ونجوم وشياطين، وغير ذلك »[1].

ويخصِّص الدكتور محمد بن عبد العزيز بن محمد العقيل فصلا للحديث عن أركان الإيمان وما فيها من مقاصد وثمرات، بقوله: « للإيمان باليوم الآخر ثمرات جليلة منها:

الأولى: الرغبة في فعل الطاعة، والحرص عليها، رجاء لثواب ذلك اليوم.

الثانية: الرهبة من فعل المعصية، ومن الرضا؛ خوفًا من عقاب ذلك اليوم.

الثالثة: تسلية المؤمن عما يفوته من الدنيا بما يرجوه من نعيم الآخرة، وثوابا »[2].

وحثّ الدكتور أحمد الريسوني على تفعيل البحث في مقاصد العقائد، فكتب يقول: « وهذا المجال في تقديري هو أهم المجالات والآفاق التي على البحث المقاصدي ارتيادها وإلحاقها بمجالات الدراسات المقاصدية، وأعني به: البحث في (مقاصد العقيدة الإسلامية)، تماما مثلما بحث السابقون ويبحث المعاصرون في (مقاصد الشريعة الإسلامية)، وليست شرائع الإسلام أولى بالعناية وبالبحث عن مقاصدها عن عقائد الإسلام، فلماذا نجد الحديث ينمو ويتكاثر عن مقاصد الأحكام ولا نجد شيئا عن مقاصد العقائد؟!...، مجال العقائد (علم التوحيد وعلم الكلام) قد خلا تقريبا من النظر المقاصدي، وكأنّ عقائد الإسلام ليس لها مقصد ولا غرض ولا ثمرة ترجى، وأنّ على المكلَّف أن يعتقدها ويعقد عليها قلبه ليس إلَّا...، المهمّ لكي تستعيد عقائدنا وجهها الحقيقي وتؤدي دورها الحقيقي، وتستعيد موقعها الأساس في حياتنا وعلومنا وثقافتنا، لابدّ من البحث في مقاصدها الشرعية، ودراستها والتعامل معها في ضوء مقاصدها تلك، فهذا مجال كبير وبكر من مجالات (علم المقاصد)، يحتاج إلى باحثين أفذاذ ومستكشفين رواد »[3].

---

(1) محمد الزحيلي، قضايا فكرية معاصرة، المجلد الخامس، دار المكتبي للطباعة والنشر، سوريا دمشق، (د ـ ت ـ ط) (ص/668).

(2) محمد بن عبد العزيز بن محمد العقيل، العقيدة الاسلامية والمذاهب المعاصرة، تاريخ الطبعة:(شوال 1430 هـ)، جامعة الملك فيصل كلية الآداب، قسم الدراسات الإسلامية، العقيدة الاسلامية والمذاهب المعاصرة، (ص/99).

(3) جاسر عودة، الاجتهاد المقاصدي من التصور الأصولي إلى التنزيل العملي، (ص/140 ـ 142).

وتبعا لذلك يشير الريسوني في سياق كلامه إلى المقاصد العقدية من بعثة الأنبياء عموما، ومن بعثته ـ صلى الله عليه وسلم ـ خاصة[1].

المطلب الثالث: مسألة تعليل أفعال الله وعلاقتها بعلم المقاصد

كثر الحديث عن هذه المسألة قديما وحديثا في كتب العقائد وعلم الكلام بين أنصار علم المقاصد، وبين غيرهم من أصحاب الظاهر[2] الذين ينفون تعليل أفعال الله وأحكامه بأغراض ومصالح ومقاصد، مبالغة منهم في تنزيه الله تعالى، ويمكنني الإشارة إليها من خلال عرض مذهب الشيخ ـ رحمه الله ـ فيها ومستنده فيها.

أوَّلًا: مذهب الشيخ الطاهر بن عاشور في مسألة تعليل أفعال الله عزوجل

من الطبيعي أن يبيِّن الشيخ ابن عاشور أهمية معرفة العلل والحكم الموجودة في الأحكام ـ ومنها العقائد ـ بقوله: « ولكن في بيان الحكمة تخفيفا من مشقّة التكليف، وفيه تعويد المسلمين بتلقِّي الشريعة معلَّلَة مذلَّلَة، فأشار الشارع الحكيم إلى أن حكمة التكليف تعتمد المصالح ودرء المفاسد، ولا تعتمد ملاءمة الطبع ومنافرته، إذ يكره الطبع شيئا وفيه نفعه، وقد يحبّ شيئا وفيه هلاكه، وذلك باعتبار العواقب والغايات »[3].

ويوضح الشيخ بشكل صريح مذهبه في تعليل أفعال الله تعالى بقوله: « وإذا كانت أفعال العقلاء تُصَانُ عن العبثِ، فكيف بأفعال أحكم الحكماء تعالى وتقدس؟! »[4].

---

(1) أحمد الريسوني، الفكر المقاصدي قواعده وفوائده، كتاب الجيب رقم (9)، (ديسمبر 1999م)، منشورات جريدة الزمن، طبع مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء، (ص/17 ـ 23، 80).

(2) نسبة إلى مذهب فقهي يأخذ بظواهر النصوص، ينسب إلى الإمام أبي سليمان داود بن علي بن خلف الأصبهاني المعروف بالظاهري، المولود عام (202 هـ)، والمتوفى بـ(بغداد) سنة (270 هـ)، ويقوم المذهب الظاهري على العمل بظاهر الكتاب والسنة والإجماع، ويرفض القياس رفضا تاما؛ ومن أشهر فقهاء الظاهرية الإمام ابن حزم الأندلسي؛ انظر: كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، (738/1)؛ وفيات الأعيان، (2/ 255).

(3) الطاهر بن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (321/2)؛ ويذكر ـ رحمه الله ـ في (381/1) أنّ الشاطبي نقل عن جمهور الفقهاء والمتكلمين « أن أحكام الله تعالى معللة بالمصالح ودرء المفاسد ».

(4) الطاهر ابن عاشور، المصدر نفسه ، (318/18).

وهو ما يعضده ـ في موضع آخر ـ بقوله: « فإنّ أفعال الله تعالى كلها منوطة بحِكَمٍ وغاياتٍ، لعلمه تعالى وحكمته، وذلك عن إرادة واختيار، لا كصدور المعلول عن العلَّة، كما يقول بعض الفلاسفة، ولا بوجوبٍ وإلجاءٍ كما تُوهِمُهُ عباراتُ المعتزلة[1] وإن كان مرادهم منها خيرًا، فإنهم أرادوا أنَّ ذلك واجبٌ لذاته تعالى، لكمال حكمته »[2].

وقد تناول الشيخ بيان مذاهب العلماء في هذه المسألة بشيء من التفصيل في تفسيره، إذ يقول: « لا يمتري أحد في أن كلّ شريعة شُرعت للناس أنّ أحكامها ترمي إلى مقاصد مرادة لمشرّعها الحكيم تعالى، إذ قد ثبت بالأدلَّة القطعية أنّ الله لا يفعل الأشياء عبثًا، دلّ على ذلك صنعه في الخلقة، كما أنبأ عنه قوله تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ. مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالحَقِّ**﴾ [الدخان: 38 ـ 39]، وقوله تعالى: ﴿**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا**﴾ [المؤمنون: 115] »[3].

ثم ينتقل إلى بيان محلّ الاتفاق فيها بين العلماء بقوله: « فإنّ جميع المسلمين اتَّفَقُوا على أنّ أفعال الله تعالى ناشئة عن إرادة واختيارٍ، وعلى وفق علمه، وأنَّ جميعها مشتملٌ على حكم ومصالح، وأنَّ تلك الحكم هي ثمرات لأفعاله تعالى، ناشئة عن حصول الفعل، فهي لأجل حصولها عند الفعل تُثْمِرُ غاياتٍ، هذا كلُّه لا خلاف فيه ».

---

(1) هي: فرقة إسلامية تغالي في استخدام العقل، ترجع في أصل نشأتها إلى واصل بن عطاء الغزَّال وأتباعه، حين اعتزل مجلس الحسن البصري ـ رحمه الله ـ وذلك أنّه دخل على الحسن رجل فقال يا إمام الدين: ظهر في زماننا جماعة يكفّرون صاحب الكبيرة يعني الخوارج، وجماعة أخرى يرجون الكبائر ويقولون لا يضرّ مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة، فكيف تحكم لنا أن نعتقد ذلك؟ فتفكّر الحسن وقبل أن يجيب، قال واصل: أنا لا أقول إنّ صاحب الكبيرة مؤمن مطلقا ولا كافر مطلقا، فأثبت المنزلة بين المنزلتين، وقال: إذا مات مرتكب الكبيرة بلا توبة خلّد في النار، إذ ليس في الآخرة إلّا فريقان: فريق في الجنّة وفريق في السعير، لكن يخفّف عليه ويكون دركته فوق دركات الكفّار. فقال الحسن: قد اعتزل عنّا واصل، فلذلك سمّي هو وأصحابه معتزلة؛ ويلقّبون أيضا بـ(القدرية)، لإسنادهم أفعال العباد إلى قدرتهم، وإنكارهم القدر فيها؛ ويلقِّبُون أنفسهم بـ(أصحاب العدل والتوحيد)، وقد أوجبوا على الله ما هو الأصلح لعباده، وثواب المطيع وغيرها من الأمور؛ انظر: كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم (2/ 1575).

(2) الطاهر بن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (20/2).

(3) الطاهر ابن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، (35/3).

ويردف كلامه ببيان محلّ الخلاف فيها، وهل توصف بكونها أغراضا وعللا غائية؟، أم لا؟، مشيرا في الوقت نفسه إلى أنهم انقسموا فيها إلى رأيين:

أ ـ فأثبت ذلك جماعة منهم، مستدلين بآيات القرآن الكريم، من نحو قوله تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالأِنْسَ إِلاّ لِيَعْبُدُونِ**﴾ [الذاريات: 56].

ب ـ ومنعه آخرون، مستندين إلى أنَّ الذي يفعل لغرض يلزم أن يكون مستفيدا من غرضه ذلك، ضرورةَ أنَّ وجودَ ذلك الغرض أولى بالقياس إليه من عدمه، فيكون مستفيدا من تلك الأولوية؛ ويلزم من كون ذلك الغرض سببا في فعله أن يكون هو ناقصا في فاعليته، محتاجا إلى حصول السبب[1].

وينتقد الشيخ ـ رحمه الله ـ في هذا السياق هؤلاء الذين نفوا تعليل أفعال الله، بأنَّ الدليل الذي استدلوا به يشتمل على مقدمتين سفسطائيتين:

الأولى: قولهم: إنَّه لو كان الفعل لغرض للزم أن يكون الفاعل مستكملا به، وهذا سفسطة شُبِّهَ فيها الغرضُ النافعُ للفاعل بالغرض، بمعنى: الداعي إلى الفعل، والراجع إلى ما يناسبه من الكمال لا توقف كماله عليه.

الثانية: قولهم: إذا كان الفعل لغرض كان الغرض سببا يقتضي عجز الفاعل وهذا شبه فيه السبب الذي هو بمعنى الباعث بالسبب الذي يلزم من وجوده الوجود ومن عدمه العدم وكلاهما يطلق عليه سبب.

ويتعجَّب الشيخ كيف أنَّهم يسلِّمون أنَّ أفعال الله تعالى لا تخلو عن الثمرة والحكمة، ويمنعون أن تكون تلك الحِكَم عِلَلًا وأغراضًا، مع أنَّ ثمرة فعل الفاعل، العالم بكل شيء، لا تخلو من أن تكون غرضا، لأنَّها تكون داعيا للفعل، ضرورةَ تَحقُّق علم الفاعل وإرادته.

ويُحَدِّد الشيخ منشأ الخلاف في هذه المسالة، ويحصره في سببين أساسيين:

---

(1) انظر: الطاهر ابن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (379/1 ـ 380).

الأول: أنها من آثار مراعاة الأصول عند المناظرة بين الطرفين؛ فأهل السنة والجماعة (الأشاعرة)[1] ـ لما أبطلوا وجوب فعل الصلاح والأصلح على الله تعالى، أورد عليهم المعتزلة أنّ الله تعالى لا يفعل شيئا إلا لغرض وحكمة، ولا تكون الأغراض إلا المصالح، فالتزموا أنّ أفعال الله تعالى لا تُنَاطُ بالأغراض، ولا يعبَّر عنها بالعلل، وإنما ذكروا في أدلتهم (الإحسان للغير) و(رعي المصلحة).

السبب الثاني: وهو التنزُّه عن وصف أفعال الله تعالى بما يوهم المنفعة له، أو لغيره، وكلاهما باطل، لأنَّه لا ينتفع بأفعاله، ولأنَّ الغير قد لا يكون فعل الله بالنسبة إليه منفعة.

وهذا الرأي الذي أيَّدَهُ الشيخ ونصره، هو ما قرَّرَهُ الشاطبي ـ رحمه الله ـ في (الموافقات)[2]؛ وانتصر له بعض الباحثين المعاصرين[3] في مجال المقاصد الشرعية، من أنّ القول بتعليل الأحكام أسهم في قيام علم مقاصد الشريعة، وتدوينه وتأليف متعلّقاته ومسائله المختلفة؛ وذلك على نحو تعريفه، وأقسامه وطرق إثباته وأهميته وحجيته وضوابطه وغير ذلك.

وعليه، فإنّ تعليل الأحكام الشرعية، ودارسة أسرار ومعاني وعلل الأحكام والأدلة والقرائن والمعطيات الشرعية، والنظر في غايات التشريع وأهدافه ومراميه، كل ذلك قد شكَّلَ الأساس الضروري لنشوء علم المقاصد وتطوره وصياغته واكتماله.

ثانيا: تعليل أفعال الله منهج القرآن والسنة

يرى الشيخ ـ رحمه الله ـ أنَّ تعليل أفعال الله تعالى هو منهج القرآن الكريم والسنة المطهرة، فالناظر فيهما يقف على كثير من الآيات القرآنية الكريمة التي يبيَّن الله فيها العلل

---

(1) نسبة إلى الإمام أبي الحسن الأشعري، الذي انشق عن مذهب الاعتزال، حيث رجع عمَّا قاله شيخه أبو علي الجبائي المعتزلي في مسألة التحسين والتقبيح وغيرها، مقرِّرا مذهب أهل الحق، الذي عرف بـ(مذهب أهل السنة والجماعة)، واشتهر من أعلامه تلميذه الإمام الباقلاني، وابن فورك والجويني والغزالي والأسفراييني والرازي وغيرهم، وقد صنّف الإمام ابن عساكر فيه كتابه الشهير: (تبيين كذب المفتري فيما ينسب للامام الأشعري)؛ انظر: الملل والنحل، (103/1).

(2) انظر: أبو إسحاق الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، (9/2 ـ 13).

(3) انظر: نور الدين بن مختار الخادمي، علم المقاصد الشرعية، مكتبة العبيكان للنشر، الطبعة الأولى: (1421هـ ـ 2001 م)، عدد الأجزاء: (1)، (ص/48).

والحكم المرتَّبة على أفعاله عزّ وجلّ؛ إذ يقول ـ رحمه الله ـ: « واستقراء أدلة كثيرة من القرآن[1] والسنة الصحيحة يوجب لنا اليقين بأن أحكام الشريعة الإسلامية منوطةٌ بحكمٍ وعللٍ راجعة للصلاح العام للمجتمع والأفراد كما سيأتي» [2].

فالقرآن الكريم وسنة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مملوآن من تعليل الأحكام بالحكم والمصالح، وتعليل الخلق بهما، والتنبيه على وجوه الحِكَمِ التي لأجلها شرع تلك الأحكام، ولأجلها خلق تلك الأعيان[3].

أما من السنَّة المطهَّرة، فإنّ النبيّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يعلِّل الأحكام، ويراعي المصالح والمفاسد في أوامره ونواهيه؛ ويمكنني أن أكتفي بذكر مثالين يُعَدَّانِ أصلين في مقاصد العقائد،

وهما:

أ) ـ مراعاة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ للمقاصد العقدية في بيان فساد عقائد أهل الجاهلية، مثلما هو جليّ في خطبته في الناس يوم مات ابنه إبراهيم صغيرا، فقد كسفت الشمس، فقال الناس: كُسِفَتْ لِمَوْتِ إبراهيم، فخطبهم النبيّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ بقوله: « **إِنَّ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ لَا يَخْسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ، وَلَا لِحَيَاتِهِ، وَلَكِنَّهُمَا آيَتَانِ مِنْ**

---

(1) تركنا التمثيل للتعليل في الآيات القرآنية، لأننا خصصنا الفصل الرابع كله لمقاصد العقائد من كتاب الله ـ عز وجل ـ انظر: الفصل الرابع.

(2) أحمد الريسوني، مدخل إلى مقاصد الشريعة، دار الكلمة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، (1431 هـ ـ 2010م)، (ص/30).

(3) تنوعت طرق التعليل في القرآن الكريم، فتارة يذكر لام التعليل الصريحة؛ وتارة يذكر المفعول لأجله، الذي هو المقصود بالفعل؛ وتارة يذكر (من أجل ذلك) الصريحة في التعليل؛ وتارة يذكر أداة (كي)؛ وتارة يذكر (الفاء) (وأنْ)؛ وتارة يذكر أداة (لعل) المتضمنة للتعليل المجردة عن معنى الرجاء المضاف إلى المخلوق؛ وتارة ينبِّه على السبب، يذكره صريحا؛ وتارة يذكر الأوصاف المشتقة المناسبة لتلك الأحكام، ثم يرتِّبها عليها ترتيب المسببات على أسبابها؛ وتارة ينكر على من زعم أنه خلق خلقه وشرع دينه عبثا وسدى، وهكذا؛ ؛ انظر: ابن قيم الجوزية، مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، (22/2)؛ ولهذا يقول ابن القيم: « وبالجملة، فالقرآن من أوله إلى آخره صريح في ترتُّب الجزاء بالخير والشر والأحكام الكونية والأمرية على الأسباب، بَل ترتُّب أحكام الدنيا والآخرة ومصالحهما ومفاسدهما على الأسباب والأعمال »؛ انظر: ابن قيم الجوزية، الداء والدواء، حققه: محمد أجمل الإصلاحي خرج أحاديثه: زائد بن أحمد النشيري، دار عالم الفوائد ـ مكة المكرمة، الطبعة الأولى، (1429 هـ)، (34/1).

آيَاتِ اللهِ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهُمَا فَقُومُوا فَصَلُّوا »[1][2]، حيث يشير ابن عاشور إلى أنّ الحديث الشريف فيه أدبٌ عظيم للمسلمين، لكي لا يعلِّلوا الحوادث بغير أسبابها، وينتحلوا لها عِلَلًا توافق الأهواء، كما كانت تفعله الدجاجلة من الكُهَّان، وأضرابهم[3].

ب) ـ سدّ الذرائع ودفع الشرور، ومن أمثلتها في تفسيره[4]: ذلك الرجل الذي طعن في قسمة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ للغنائم، فقال: « اعدل يا محمد!، هذه قسمة ما أريد بها وجه الله تعالى، فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: « **وَيْلَكَ، وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ، قَدْ خِبْتَ وَخَسِرْتَ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ...** »[5].

---

(1) أخرجه البخاري في: صحيحه ـ كتاب ـ باب (34/2) برقم: (1042)، عن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ؛ ومسلم في صحيحه ـ كتاب الكسوف ـ باب: ذكر النداء بصلاة الكسوف الصلاة الجامعة، (630/2)، برقم: (914).

(2) الطاهر ابن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (47/21).

(3) انظر: الطاهر ابن عاشور، المصدر نفسه، (47/21).

(4) الطاهر ابن عاشور، المصدر نفسه، (397/2).

(5) أخرجه البخاري في: صحيحه ـ كتاب المناقب ـ باب علامات النبوة في الإسلام، (200/4)، برقم: (3610)، عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ؛ ولفظه بتمامه: « **قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ـ صلى الله عليه وسلم ـ وَهُوَ يَقْسِمُ قِسْمًا، أَتَاهُ ذُو الخُوَيْصِرَةِ، وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اعْدِلْ، فَقَالَ: « وَيْلَكَ، وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ، قَدْ خِبْتَ وَخَسِرْتَ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ »، فَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ائْذَنْ لِي فِيهِ فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ؟، فَقَالَ: « دَعْهُ، فَإِنَّ لَهُ أَصْحَابًا يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلاَتَهُ مَعَ صَلاَتِهِمْ، وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ، يَقْرَءُونَ القُرْآنَ لاَ يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، يُنْظَرُ إِلَى نَصْلِهِ فَلاَ يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَى رِصَافِهِ فَمَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَى نَضِيِّهِ، – وَهُوَ قِدْحُهُ –، فَلاَ يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَى قُذَذِهِ فَلاَ يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، قَدْ سَبَقَ الفَرْثَ وَالدَّمَ، آيَتُهُمْ رَجُلٌ أَسْوَدُ، إِحْدَى عَضُدَيْهِ مِثْلُ ثَدْيِ المَرْأَةِ، أَوْ مِثْلُ البَضْعَةِ تَدَرْدَرُ، وَيَخْرُجُونَ عَلَى حِينِ فُرْقَةٍ مِنَ النَّاسِ » قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: فَأَشْهَدُ أَنِّي سَمِعْتُ هَذَا الحَدِيثَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وَأَشْهَدُ أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ قَاتَلَهُمْ وَأَنَا مَعَهُ، فَأَمَرَ بِذَلِكَ الرَّجُلِ فَالْتُمِسَ فَأُتِيَ بِهِ، حَتَّى نَظَرْتُ إِلَيْهِ عَلَى نَعْتِ النَّبِيِّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ الَّذِي نَعَتَهُ** »؛ ومسلم في صحيحه ـ كتاب الزكاة ـ باب: ذكر الخوارج وصفاتهم، (740/2)، برقم: (1063).

وفي رواية قال: « **أَلَا تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ؟!** »، فقام خالد بن الوليد، وقال: يا رسول الله دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال له النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: « **لَا، حَتَّى لَا يَتَحَدَّثَ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ** »[1].

وهذا الذي يشير إليه الشيخ ابن عاشور عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ**﴾ [التوبة: 73]، حيث يصرح أنّ النبيء إنما كان ممسكا عن قتل المنافقين سَدًّا لذريعة دخول الشكِّ في الأمان على الداخلين في الإسلام[2].

---

(1) أخرجه البخاري في: صحيحه ـ كتاب ـ باب، (200/4) برقم: (4351)، عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ؛ ولفظه عنده بتمامه: « بَعَثَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ـ صلى الله عليه وسلم ـ مِنَ اليَمَنِ بِذُهَيْبَةٍ فِي أَدِيمٍ مَقْرُوظٍ، لَمْ تُحَصَّلْ مِنْ تُرَابِهَا، قَالَ: فَقَسَمَهَا بَيْنَ أَرْبَعَةِ نَفَرٍ، بَيْنَ عُيَيْنَةَ بْنِ بَدْرٍ، وَأَقْرَعَ بْنِ حابِسٍ، وَزَيْدِ الخَيْلِ، وَالرَّابِعُ: إِمَّا عَلْقَمَةُ وَإِمَّا عَامِرُ بْنُ الطُّفَيْلِ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ: كُنَّا نَحْنُ أَحَقَّ بِهَذَا مِنْ هَؤُلاَءِ، قَالَ: فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ـ . صلى الله عليه وسلم ـ فَقَالَ: « **أَلاَ تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ، يَأْتِينِي خَبَرُ السَّمَاءِ صَبَاحًا وَمَسَاءً** »، قَالَ: فَقَامَ رَجُلٌ غَائِرُ العَيْنَيْنِ، مُشْرِفُ الوَجْنَتَيْنِ، نَاشِزُ الجَبْهَةِ، كَثُّ اللِّحْيَةِ، مَحْلُوقُ الرَّأْسِ، مُشَمَّرُ الإِزَارِ، فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، اتَّقِ اللَّهَ، قَالَ: « **وَيْلَكَ، أَوَلَسْتُ أَحَقَّ أَهْلِ الأَرْضِ أَنْ يَتَّقِيَ اللَّهَ** »، قَالَ: ثُمَّ وَلَّى الرَّجُلُ، قَالَ خَالِدُ بْنُ الوَلِيدِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلاَ أَضْرِبُ عُنُقَهُ؟، قَالَ: « **لَا، لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ يُصَلِّي** »، فَقَالَ خَالِدٌ: وَكَمْ مِنْ مُصَلٍّ يَقُولُ بِلِسَانِهِ مَا لَيْسَ فِي قَلْبِهِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صلى الله عليه وسلم ـ: « **إِنِّي لَمْ أُومَرْ أَنْ أَنْقُبَ عَنْ قُلُوبِ النَّاسِ وَلاَ أَشُقَّ بُطُونَهُمْ** »، قَالَ: ثُمَّ نَظَرَ إِلَيْهِ وَهُوَ مُقَفٍّ، فَقَالَ: « **إِنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ ضِئْضِئِ هَذَا قَوْمٌ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ رَطْبًا، لاَ يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ** »، وَأَظُنُّهُ قَالَ: « **لَئِنْ أَدْرَكْتُهُمْ لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ ثَمُودَ** » »؛ ومسلم في صحيحه ـ كتاب الزكاة ـ باب: ذكر الخوارج وصفاتهم، (742/2)، برقم: (1064).

(2) الطاهر ابن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (266/10).

المبحث الثالث

فوائد العلم بمقاصد العقائد

ينبغي على المسلم أن يتعلّم أمور دينه، وأن يشتغل بما ينفعه في دنياه وأخراه، وأولى العلوم بالاهتمام ما كان واضحا ومبنيا على أصول وقواعد منضبطة، وأعظم العلوم ما كان له علاقة بمعرفة الخالق هو (**علم العقائد**).

وسلوكُ هذا الطريق يبدأ بتعلّم مسائل الإيمان، وتفهُّمِ معانيها، والعمل بمقتضاها، والتخلُّق بها.

وقد غفل الناس في الأزمنة المتأخّرة عن معرفة هذا الطريق، واشتغلوا بالمهم عن الأهم، وتناسوا ما يُعَدُّ من قبيل الضروريات.

وانطلاقا من هذا الباب، يرى الشيخ الطاهر بن عاشور أن معرفة المقاصد الشرعية ليست متاحة لجميع الناس، باختلاف طبقاتهم ومستوياتهم العلمية، لأنّ معرفتها نوع دقيق من أنواع العلم.

فحقّ العامّيّ أن يتلقَّى الشريعة بدون معرفة المقصد، لأنَّه لا يُحْسِنُ ضَبْطَهُ، ولا تَنْزِيلَهُ، ثمّ للنَّاس أن يتوسّعوا في معرفة المقاصد بمقدار ازدياد حظِّهم من العلوم الشرعية، لئلَّا يضعوا ما يُلَقَّنُونَهُ منها في غير مواضعه، فيعود بعكس المراد[1]؛ وتوضيح هذه المسألة يكون في المطالب الآتية:

---

(1) انظر: الطاهر بن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، (51/3)؛ وهذا الذي يذهب إليه الشيخ ابن عاشور له حظّ من الاعتبار، إذ قد نَبَّهَ عليه بعض العلماء المعاصرين، وحذَّروا من سوء استعمال بعض الناس لهذا المجال الوعر، واقتحامه بدون حسيب ولا رقيبٍ، ولمزيد من التفصيل في هذه المسألة انظر: سميح عبد الوهاب الجندي في كتابه: أهمية المقاصد في الشريعة الاسلامية وأثرها في فهم النص واستنباط الحكم، (ص/101 ـ 104)؛ بدر الدين البعلي، المنهج القويم في اختصار اقتضاء الصراط المستقيم، تحقيق: علي بن محمد العمران، إشراف: بكر بن عبد الله أبو زيد، الناشر: دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، (1422 هـ)، (ص/173 ـ 174)؛ محمد بكر اسماعيل حبيب، مقاصد الشريعة تأصيلا وتفعيلا، (ص/113).

المطلب الأول: فوائد معرفة المقاصد لعموم الناس

لابدّ للمسلم هنا من ضرورة الوقوف على بعض الفوائد المرجوّة من معرفة المقاصد الشرعية، وإليك جملة منها:

1 ـ ترسيخ العقيدة وتعميق معانيها في القلوب:

وهذه الفائدة لا تتمّ إلَّا بأسلوب الإقناع الكافي، المساعد على الالتزام بأحكامها، والضامن لكلّ خير، والمحقّق لكل المصالح، والدافع لكلّ شرّ وفساد، فيزداد بذلك الإنسان إيمانا ويقينا بأن الله خلقه لأمرٍ جليلٍ، وأرسل إليه رسولًا، وأنزل عليه كتابا فيه الهدى والصلاح، فيحمد ربه الذي هداه إلى الإسلام، وجعله من أهل الإيمان الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون[1].

2 ـ زيادة الإيمان بالله واليقين به نقلا وعقلا ووجدانا

وهذا الأمر يتمّ بإعمال العقول في الواردات التي تَرِدُ على الأسماع والأبصار، لأنها نوافذ وأبواب مفتوحة على العقول والقلوب، وبالرغم من تفاوت الناس في ذلك، فإنهم يتلقون من دلائل الوحدانية في الآفاق وفي الأنفس ما يقربهم إلى الله تعالى، فيشتغلون بالتفكر في أمر الإيمان به عز وجلّ، لوضوح الأدلة، وكثرتها؛ فهي كلها آيات وعِبَرٌ ومواعظ، وقد أحسن الشيخ ابن عاشور وأجاد في تعبيره عنها بقوله: « وأما الأسماع فإنما كانت تتعلق بسماع ما يلقى إليها من القرآن، فالجماعات إذا سمعوا القرآن سمعوه سماعا متساويا، وإنما يتفاوتون في تدبره والتدبر من عمل العقول »[2].

ولذلك سأل إبراهيم ربه أن يريه كيف يحيي الموتى وعلل ذلك بقوله: ﴿**لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي**﴾ [البَقَرَة: 260]، معناه لينبت ويتحقق علمي، وينتقل من معالجة الفكر والنظر، إلى بساطة الضرورة، بيقين المشاهدة، وانكشاف المعلوم انكشافا لا يحتاج إلى معاودة الاستدلال، ودَفْع الشُّبَهِ عن العقل الي محله القلب[3].

---

(1) انظر: سميح عبد الوهاب الجندي، أهمية المقاصد في الشريعة الاسلامية، وأثرها في فهم النص واستنباط الحكم، الطبعة الأولى، (1429 هـ ـ 2008م)، مؤسسة الرسالة ناشرون، (ص/102 ـ 104).

(2) الطاهر ابن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (256/1).

(3) الطاهر ابن عاشور، المصدر نفسه، (39/3).

3 ـ تحقيق العبودية لله تعالى:

وهي التي يشير إليها ربنا عز وجل في عدد من آيات القرآن الكريم، فما خُلِقَ الإنسانُ إلَّا من أجلها، لقوله تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالأِنْسَ إلاّ لِيَعْبُدُونِ**﴾ [الذاريات: 56]، وهذا لا يتحقَّق حين تكون العبادة عادةً له، فهي عون للمكلَّفِ على القيام بالتكاليف، وامتثال أوامر خالقه سبحانه وتعالى على أحسن الوجوه وأتمهما[1]، ذلك لأنّ صلاح الاعتقاد أصل وصلاح العمل فرع وثمرة؛ فالإسلام جاء ليخرج العباد من عبادة العباد، إلى عبادة ربِّ العباد، ومن جَوْرِ الأديان، إلى عدل الاسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة.

ومن هنا كان المسلم مُطَالَبا بعبادة الله عزّ وجلّ بالعلم، لا بالجهل، لأنّه ميَّزَهُ بالعقل الذي هو مناط التكليف، وبه يحصل التدبُّر والفهم[2].

4 ـ نيل العزّة والتمكين وسعادة الدنيا والآخرة

وهذه المعاني من أهمّ الفوائد التي وعد الله تعالى بها عباده المؤمنين في القرآن الكريم إن حققوا شروطها، بقوله: ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾ [النور: 55].

جاء في تفسير الشيخ الطاهر ابن عاشور لهذه الآية الكريمة قوله: « ولكن الله قدَّم على وعدهم بالأمن أنْ وَعَدَهُمْ بالاستخلاف في الأرض، وتمكين الدين والشريعة فيهم، تنبيها لهم بأنّ سنَّة الله أنه لا تأمن أمَّةٌ بأْسَ غيْرِها حتى تكون قويَّةً، مكينةً، مهيمنة على أصقاعها؛ ففي الوعد بالاستخلاف والتمكين، وتبديل الخوف أمنا، إيماءٌ إلى التَّهَيُّؤ لتحصيل أسبابه، مع ضمان التوفيق لهم، والنجاح إنْ هم أخذُوا في ذلك، وأنَّ ملاكَ ذلك

---

(1) انظر: نور الدين بن مختار الخادمي، علم المقاصد الشرعية، مكتبة العبيكان للنشر، الطبعة الأولى: (1421هـ ـ 2001 م)، (ص: 51 ـ 52).

(2) فمعرفة مقاصد الأعمال تحرك النشاط إليها، وتدعو إلى الصبر والمواظبة عليها، وتبعث على إتقانها والإحسان فيها؛ انظر: أحمد الريسوني، مدخل إلى مقاصد الشريعة، (ص/19).

هو طاعة الله والرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ، ﴿**وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا**﴾ [النور: 54]، وإذا حلّ الاهتداء في النفوس نشأت الصالحات »[1].

5 ـ حصول الطمأنينة بمعرفة عواقب الأمور ومآلاتها

وهذه من المسائل الهامة التي يستفيدها المؤمن من استقراء كتاب الله عز وجل وسنة نبيه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، كقوله تعالى: ﴿**يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخَمْرِ وَالمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآياتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ**﴾ [البقرة: 219]، حيث يبيّن الشيخ ـ رحمه الله ـ في تفسيره لهذه الآية الكريمة الحكمة من تحريم الخمر والميسر، فيقول: « هو بيان للحكم، مع بيان علّته، حتَّى تتلقَّاهُ الأُمَّة بطيبِ نَفْسٍ، وحتَّى يُلْحِقُوا به نظَائِرَه...، وهو امتنان وتشريف بهذه الفضيلة، لإشعاره بأنَّ البيان على هذا الأسلوب مما اختصَّت به هاته الأُمَّة، ليتلقَّوا التكاليف على بصيرة، بمنزلة الموعظة التي تُلْقَى إلى كامل العقل، مُوَضَّحَة بالعواقب، لأنَّ الله أراد لهاته الأُمَّة أن يكون علماؤها مُشَرِّعِينَ »[2].

ففائدة هذا البيان كما بينه الشيخ: « ليحصل للأُمَّةِ تفكّر، وعلم في أمور الدنيا، وأمور الآخرة، لأنّ التفكُّر مظروف في الدنيا والآخرة؛ فلو اقتصر على بيان الحظر والوجوب والثواب والعقاب لكان بيانا للتفكّر في أمور الآخرة خاصَّة، ولو اقتصر على بيان المنافع والمضارِّ، بأن قيل: (قل فيهما نفع وضرّ) لكان بيانا للتفكُّر في أمور الدنيا خاصّة، ولكن ذكر المصالح والمفاسد، والثواب والعقاب، تذكيرٌ بمصلحتي الدَّارَيْنِ، وفي هذا تَنْوِيهٌ بشأن إصلاح أمور الأُمَّة في الدنيا...، ولا يخفى أن الذي يصلح للتفكُّر هو الحُكْم المنوط بالعلَّة »[3].

---

(1) الطاهر ابن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (18/ 282).

(2) انظر: الطاهر ابن عاشور، المصدر نفسه، (353/2).

(3) الطاهر ابن عاشور، المصدر نفسه، (353/2)؛ ويظهر بوضوح تامّ أنّ ما ذهب إليه ابن عاشور هو ما قرَّره علماء الأمة، وفي ذلك يقول الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ في كتابه: إعلام الموقعين عن رب العالمين، قدم له وعلق عليه وخرج أحاديثه وآثاره: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، شارك في التخريج: أبو عمر أحمد عبد الله أحمد، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، (1423 هـ)، (11/3): « فإن الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها،

والذي نخلص إليه هنا أنّ دراسة مقاصد الشريعة تبيِّن للمسلم الأهداف السامية التي يرمي إليها الشارع الحكيم، ويوضّح له الغايات الجليلة التي جاءت بها الرسل، وأنزلت لها الكتب، فيزداد إيمانا إلى إيمانه، وقناعة في وجدانه، ومحبة لشريعته، وتمسكا بدينه، وثباتا على صراط الله المستقيم، فيفخر بدينه، ويعتز بإسلامه، خاصة إذا قارن ذلك ببقية التشريعات والأنظمة الوضعية.

فالحاصل إذن من هذا كلِّه أنه يزداد إقبالًا وتشوُّفًا لتعلُّمِ دينه، كي يصل إلى تلك الأهداف الغايات.

المطلب الثاني: فوائد وحِكَم معرفة المقاصد للعلماء والدعاة

إن معرفة مقاصد الدين تُعِينُ الحُكَّامَ والعلماءَ والقُضاةَ والمشتغلين بالدعوة على أداء وظائفهم وأعمالهم على وفق مراد الشارع، ومقصود الأمر والنهي، وليس على وفق حرفيات النصوص، وظواهر الخطاب، ومباني الألفاظ[1].

ومن الطبيعي جدًّا أن يقرِّرَها الشيخ ابن عاشور، فهي فوائد جليلة، بل في غاية الأهمية، فلا غرابة أن يبثّها في ثنايا مصنّفاته العلمية القيِّمَة، منها على سبيل المثال:

1 ـ العمل بالعلم لنيل القرب من الله

وهو أمْرٌ استفاده من قوله تعالى: ﴿**فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**﴾ [محمد: 19]، إذ يشير الشيخ في تفسيره للآية أنّ من لطائف الآية أن أمر الله تعالى المسلم أن يعلم معناها قبل أن يعمل بها، ولذلك أردفها بقوله: ﴿**وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ**﴾ [محمد: 19]، ويستأنس بما ينقله عن البخاري في ترجمته لكتاب العلم من (صحيحه) بقوله: (باب العلم قبل القول والعمل)[2].

وحكمة كلها، فكل مسألة خرجت من العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث، فليست من الشريعة وإن أدخلت فيها بالتأويل »؛ وانظر ايضا: محمد بكر إسماعيل حبيب، مقاصد الشريعة تأصيلا وتفعيلا، (ص/120 ـ 121).

(1) انظر: نور الدين بن مختار الخادمي، علم المقاصد الشرعية، (ص/51 ـ 52).

(2) انظر: الطاهر ابن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (105/26).

2 ـ التدرّج في إصلاح الأمة بالحكمة والموعظة الحسنة، تحقيقًا للبصيرة في الدين

جعل الله عز وجل سبيل الدعوة إليه مبنيا على البصيرة، وهي الفقه في الدين والعلم بمقاصد القرآن والسنة، وهو ما يقتضيه قوله تعالى: ﴿**قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي**﴾ [يوسف: 108]، يبيِّن الشيخ حقيقتها من خلال تفسيرها لها بقوله: هي « استئناف ابتدائي للانتقال من الاعتبار بدلالة نزول هذه القصة للنبيّ ـ صلى الله عليه وسلم الأمي على صدق نبوَّتِه، وصدقه فيما جاء به من التوحيد، إلى الاعتبار بجميع ما جاء به من هذه الشريعة عن الله تعالى، وهو المعبَّر عنه بـ(السبيل) على وجه الاستعارة، لإبلاغها إلى المطلوب، وهو الفوز الخالد، كإبلاغ الطريق إلى المكان المقصود للسائر، وهي استعارة متكررة في القرآن وفي كلام العرب »[1].

ومثل هذا قوله عزّ وجلّ: ﴿**ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالحِكْمَةِ وَالمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ**﴾ [النحل: 125]، ما يقتضي الإحاطة بمقاصد ما ندعو إليه، ومعرفة مواضعه ومراتبه، وما يجوز تأخيره وما لا يجوز، وما يمكن التسامح فيه حتى حين، وما لا يمكن، فقد جاء رجل إلى عبد الله بن عباس يستفتيه « **هل لمن قتل مؤمنا متعمدًا توبة؟، قال: لا، إلا النار. فلما ذهب الرجل قال له جلساؤه:أهكذا كنت تفتينا؟ كنت تفتينا أن لمن قتل توبة مقبولة قال: إني لأحسبه مغضبا يريد أن يقتل مؤمنا، قال: فبعثوا في أثره فوجدوه كذلك** »[1][2]، فبعد أن كان يفتي أن للقاتل عمدًا توبة، أفتاه بأن لا توبة له، حتى يحقق المقصد الشرعي وهو الردع عن القتل والبعد عنه »[2].

---

(1) الطاهر ابن عاشور، المصدر نفسه، (13/ 64 ـ 65).

(2) الحديث بلفظه أعلاه لم أقف عليه، وإنما أخرجه البخاري بلفظ قريب منه في: صحيحه ـ كتاب التفسير ـ باب قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالحَقِّ، وَلاَ يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا**﴾ [الفرقان: 68]، (110/6)، برقم: (4762)، من طريق القاسم بن بزة أَنَّهُ سَأَلَ سَعِيدَ بْنَ جُبَيْرٍ: هَلْ لِمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَرَأْتُ عَلَيْهِ: ﴿**وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالحَقِّ**﴾، فَقَالَ سَعِيدٌ: قَرَأْتُهَا عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ كَمَا قَرَأْتَهَا عَلَيَّ، فَقَالَ: « هَذِهِ مَكِّيَّةٌ نَسَخَتْهَا آيَةٌ مَدَنِيَّةٌ الَّتِي فِي سُورَةِ النِّسَاءِ »؛ يقصد قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ يُقْتَلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا**﴾ [النساء: 93].

يقول ابن عاشور ـ رحمه الله ـ في تفسير الآية الكريمة ما ملخصه: « فالحكمة: هي المعرفة المحكمة، أي: الصائبة المجرَّدة عن الخطأ، فلا تطلق (الحكمة) إلا على المعرفة الخالصة عن شوائب الأخطاء وبقايا الجهل في تعليم الناس، وفي تهذيبهم، ولذلك عرفوا (الحكمة) بأنها: معرفة حقائق الأشياء على ما هي عليه بحسب الطاقة البشرية، بحيث لا تلتبس على صاحبها الحقائق المتشابهة بعضها ببعض، ولا تخطىء في العلل والأسباب، وهي اسم جامع لكل كلام أو علم يراعى فيه إصلاح حال الناس واعتقادهم، إصلاحا مستمرا لا يتغير...، و(الموعظة): القول الذي يُلِينُ نفسَ المقول له لعمل الخير، وهي أخصّ من (الحكمة)، لأنها حكمة في أسلوبٍ خاصٍّ لإلقائها..، ووصفها بـ(الحُسْن) تحريضٌ على أن تكون لينة مقبولة عند الناس، أي: حسنة في جنسها، وإنما تتفاضل الأجناس بتفاضل الصفات المقصودة منها »[3].

وهنا يجب على المسلم أن يكون قصده في عمله موافقا لقصد الشارع، لأنّ الأجر والثواب يتعلّق بالنية والقصد[4]، لقوله ـ عليه السلام ـ: « **إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ اِمْرِئٍ مَا نَوَى...**»[5].

وهذا كله يستفاد من معرفة المقاصد، والتمييز بينها وبين ما هو من قبيل الوسائل، ولا يقتصر هذا على جانب التشريع، بل هو عامّ، وتزداد أهميته في جانب العقيدة، فإنّ الصراع اليوم صراع عقديّ بين الدين الحقّ، والأديان الباطلة.

---

(1) أبو عبد الله محمد بن أحمد شمس الدين القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية ـ القاهرة، الطبعة الثانية، (1384هـ ـ 1964م)، (333/5).

(2) محمد بكر إسماعيل حبيب، مقاصد الشريعة تأصيلا وتفعيلا، (ص/118).

(3) الطاهر ابن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (14/ 327).

(4) يقول الشاطبي: « وعلى الجملة، فإنّ الإخلاص في الأعمال إنما يصح خلوصه من اطراح الحظوظ، لكنّه إن كان مبنيا على أصل صحيح كان منجيا عند الله، وإن كان مبنيا على أصل فاسد فبالضدّ »؛ الموافقات، (337/2)

(5) أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب بدء الوحي إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، (6/1)، برقم: (1)، عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ؛ ومسلم في: صحيحه ـ كتاب الإمارة ـ باب قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: « إنما الأعمال بالنية »، (1515/3)، برقم: (1907).

3 ـ بيان حقائق الدين والردّ على شبهات المبطلين وأعداء الإسلام:

يتخذ الشيخ من الآيات القرآنية الكريمة المتعلقة بهذه المعاني منطلقا شرعيا، ومسلكا دعويا في إبطال شبهات الخصوم من أعداء الإسلام، مثلما هو جلي في قوله تعالى في بيان الحكمة من خلق السموات والأرض وما بينهما، من الآيات الدالّة على وحدانيته تعالى، واستحقاقه للعبادة والطاعة وحده لا شريك له، حيث يقول تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ. لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ. بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ**﴾ [الأنبياء: 16 ـ 18]، يوضّح الشيخ في بيانه لمعاني الآية الكريمة أنّ الله تعالى « يبطل الباطل بالحقّ، بأن يبيِّنَ للناس بُطْلَانَ الباطلِ على لسان رسله، وبأنْ أوْجَدَ في عقولهم إدراكًا للتمييز بين الصلاح والفساد، وبأنْ يُسلِّط بعض عباده على المبطلين لاستئصال المبطلين، وبأنْ يخلق مخلوقات يسخِّرُها لإبطال الباطل »[1].

وما أحرانا في زماننا هذا إلى استلهام منهج القرآن الكريم في ردّ الهجمات المتوالية من أعداء الإسلام، خاصة بعد تزايد الغزو الفكري على بلدان المسلمين، وهو ما يفرض على حُكَّام المسلمين وعلمائهم ودعاتهم القيام بجهود جبّارة لمواجهة هذه الشبهات والشكوك التي يبثُّها هؤلاء المغرضون، في حربهم على الإسلام بنشر تلك المذاهب الهدَّامة، والتيارات الفكرية الخطيرة، ولا يحصل ذلك إلا بحسن عرض الإسلام، وبيان الحلول التي يقترحها للمشاكل والمعضلات التي تتخبط فيها البشرية.

فهذا هو المنهج الكفيل بإنصاف ديننا المفترى عليه، وإبرازه بما هو عليه وما هو أهله، وهو الكفيل بدفع الشبهات ورفع الإشكالات، وإقامة الحجة كاملة ناصعة ليهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حي عن بينة[2].

4 ـ تقليل الخلاف في الأمة:

حرص الشيخ طيلة حياته على وحدة الأمة، وجمع كلمتها، وَرَصِّ صفوفها، فهي غاية عَمِلَ على تحقيقها، كونها من مقاصد ديننا، استنادا إلى نصوص الكتاب والسنة، الدالة على

---

(1) الطاهر ابن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (34/17).

(2) أحمد الريسوني، مدخل إلى مقاصد الشريعة، (ص/24 ـ 26).

أنّ الخلاف في الأحكام مذموم شرعا، ورعاية المصلحة أمر متَّفَقٌ عليه، لا يختلف فيه عاقل، فكان اتِّبَاعُه أولى[1]، فالخلاف ـ عنده ـ شَرٌّ، لابدّ من تقليله وتفاديه، فالنصوص الشرعية عامة تأمر بالاتحاد والتآخي، وتنبذ التفرّق والاختلاف في الدين، وفي غيره من المجالات، والاتحاد يؤدّي إلى التعاون على البرّ والتقوى، ولهذا يصرّح بقوله: « وفائدة التعاون تيسير العمل، وتوفير المصالح، وإظهار الاتحاد والتناصح حتى يصبح ذلك خلقا للأمَّة »[2]، وقد أمر الله عباده بالتمسك بالوحي الذي جاء ليزيل الخلاف الحاصل بين الناس وبين أهل الكتابين في أصول الدين، والذي يؤدي إلى فوات المقصود، وحذرهم من الاختلاف المفضي إلى التفرق في عدة آيات، كما في قوله تعالى: ﴿**كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾[البقرة:213]، يقول الشيخ في تفسيرها: « والآية تقتضي تحذير المسلمين من الوقوع فيما وقعت فيه الأمم السابقة من الاختلاف في الدين أي في أصول الإسلام، فالخلاف الحاصل بين علماء الإسلام ليس اختلافا في أصول الشريعة، فإنها إجماعية، وقد أجمعوا على أنهم يريدون تحقيقها، ولذلك اتفقت أصولهم في البحث عن مراد الله تعالى وعن سنة رسوله للاستدلال عن مقصد الشارع وتصرفاته، واتفقوا في أكثر الفروع، وإنما اختلفوا في تعيين كيفية الوصول إلى مقصد الشارع، وقد استبرءوا للدين فأعلنوا جميعا أن لله تعالى حكما في كل مسألة، وأنه حكم واحد، وأنه كلف المجتهدين بإصابته وأن المصيب واحد، وأن مخطئه أقل ثوابا من مصيبه، وأن التقصير في طلبه إثم. فالاختلاف الحاصل بين علمائنا اختلاف جليل المقدار موسع للأنظار.

(1) الطوفي، رسالة في رعاية المصلحة، (ص/34).

(2) الطاهر ابن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد ، (88/6).

أما لو جاء أتباعهم فانتصروا لآرائهم مع تحقق ضعف المدرك أو خطئه لقصد ترويج المذهب وإسقاط رأي الغير فذلك يشبه الاختلاف الذي شنعه الله تعالى وحذرنا منه فكونوا من مثله على حذر»[1]

5 ـ نيل السعادة في مقامات الوظائف الاجتماعية:

هذه الفائدة من المعاني التي استفادها الشيخ الطاهر بن عاشور في فهمه لكلام الله تعالى، خاصة تلك الآيات القرآنية الكريمة المتعلقة بتفضيل العلماء على الجهال، كما في قوله تعالى: ﴿**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبابِ**﴾ [الزمر: 9]، حيث يركّز كثيرا على الإشارات التي توضّح مكانة أولي الألباب، وهم أهل العقول الراجحة، الذين يدركون حقائق الأشياء على ما هي عليه، وتجري أعمالهم على حسب علمهم، وتمْيِيزِهِم عن الجُهَّال الذين لا يعلمون، كحال الذين توهَّموا الحجارة آلهة، ووضعوا الكفر موضع الشكر، فأعمالهم تجري على غير انتظام، بل تختلط عليهم الحقائق.

فالآية الكريمة ـ في نظر الشيخ ـ تنفي بشكل صريح استواء المؤمنين الذين هم أهل علمٍ وإيمان، بالكافرين أهل الشرك والضلال.

ومن هنا يثني الله تعالى على هؤلاء العلماء الأجلاء بقوله: ﴿**إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ العُلَماءُ**﴾ [فاطر: 28]، لأدراكهم أسرار التوحيد المضادّ لأحوال أهل الشرك في الجاهلية، ومن ثمّ أمر الله عز وجل نبينا الكريم أن يردّ عليهم ضلالهم وما هم عليه، بقوله تعالى: ﴿**قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الجاهِلُونَ**﴾ [الزمر: 64]، وفي ذلك إشارة إلى أن الإيمان أخو العلم، لأنّ كليهما نور ومعرفة حقّ، وأن الكفر أخو الضلال، لأنّه والضلال ظلمة وأوهام باطلة[2].

وهذا التمييز بين الهدى والضلال، وبين الخير والشرّ، وبين العلم والجهل، وأهل العقول النيِّرَة الصحيحة من الفاسدة، لا يتمّ إلا بالتفقه في الدين، لأنّ به تزكية النفوس وتحقيق

(1) الطاهر ابن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (311/2).
(2) الطاهر ابن عاشور، المصدر نفسه، (349/23).

السعادة الأبدية في الدَّارَيْن، ومن ثَـمَّ خَصَّهُ النبيُّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالحديث في قوله: « **مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ...** »[1][2].

فالآية الكريمة فيها إثبات فضل العلم والعلماء على غيرهم، ويضرب الشيخ لذلك مثلا بمقامات ستَّة، هي جُلُّ وظائف الحياة الاجتماعية:

المقام الأول: الاهتداء إلى الشيء المقصود نواله بالعمل به، وهو مقام العمل[3].

المقام الثاني: مقام السلام من نوائب الخطأ ومزلَّات المذَلَّات، فالعالم يعصمه علمه من ذلك، والجاهل يريد السلامة فيقع في الهلكة[4].

المقام الثالث: مقام أنس الانكشاف، فالعالِمُ تتميَّزُ عنده المنافع والمضارُّ، وتنكشف له الحقائق، فيكون مأنوسا بها، واثقا بصحة إدراكه[5].

---

(1) جزء من حديث أخرجه البخاري في: صحيحه ـ كتاب الجهاد ـ باب قول الله تعالى: ﴿فأن لله خمسه وللرسول﴾، (85/4)، برقم: (3116)، عم معاوية بن أبي سفيان ـ رضي الله عنهما ـ؛ ولفظه عنده بتمامه: « قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: « **مَنْ يُرِدِ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَاللَّهُ المُعْطِي وَأَنَا القَاسِمُ، وَلاَ تَزَالُ هَذِهِ الأُمَّةُ ظَاهِرِينَ عَلَى مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ، وَهُمْ ظَاهِرُونَ** »؛ ومسلم في صحيحه ـ كتاب الإمارة ـ باب فضل الرمي والحث عليه وذم من علمه ثم نسيه، (719/2)، برقم: (1037).

(2) انظر: الطاهر ابن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (351/32).

(3) فالعالم بالشيء يهتدي إلى طرقه، فيبلغ المقصود بِيُسْرٍ، وفي قُرْبٍ، ويعلم ما هو من العمل أولى بالإقبال عنه، وغير العالِم به يَضِلُّ مسالِكَه، ويضيع زمانه في طلبه، فإما أن يخيب في سعيه، وإما أن يناله بعد أن تتقاذفه الأرزاء، وتنتابه النوائب، وتختلط عليه الحقائق، فربما يتوهم أنه بلغ المقصود، حتَّى إذا انتبه وجد نفسه في غير مراده، ومثله قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمالُهُمْ كَسَرابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إذا جاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً**﴾ [النور: 39]، ومن أجل هذا شاع تشبيه (العلم) بـ(النور)، و(الجهل) بـ(الظلمة)؛ انظر: الطاهر ابن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (349/23).

(4) فإنّ الخطأ قد يوقع في الهلاك من حيث طلب الفوز، ومثله قوله تعالى: ﴿**فَما رَبِحَتْ تِجارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ**﴾ [البقرة: 16]، إذ مثلهم بالتاجر خرج يطلب فوائد الربح من تجارته فآب بالخسران ولذلك يشبه سعي الجاهل بخبط العشواء، ولذلك لم يزل أهل النصح يسهلون لطلبة العلم الوسائل التي تقيهم الوقوع فيما لا طائل تحته من أعمالهم؛ انظر: الطاهر ابن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (349/23).

(5) وكلما انكشفت له حقيقة كان كمن لقي أنيسا بخلاف غير العالم بالأشياء فإنه في حيرة من أمره حين تختلط عليه المتشابهات فلا يدري ماذا يأخذ وماذا يدع، فإن اجتهد لنفسه خشي الزلل وإن قلد خشي زلل مقلده، وهذا

المقام الرابع: مقام الغنى عن الناس بمقدار العلم والمعلومات[1].

المقام الخامس: الالتذاذ بالمعرفة[2].

المقام السادس: صدور الآثار النافعة في مدى العمر، مما يكسب ثناء الناس في العاجل وثواب الله في الآجل[3].

المطلب الثالث: خطر إهمال المقاصد[4]

أوَّلًا: إهمال المقاصد سبب للتفرق والاختلاف في فهم النصوص الشرعية

إن تفرّق المسلمين، وكثرة الخلاف الذي وقع بينهم قديما، ولا يزالون يتجرعون غصصه إلى يوم الناس هذا، يرجع في كثير من الأحيان إلى إهمالهم علم المقاصد، وعدم فهم نصوص

المعنى يدخل تحت قوله تعالى: ﴿**كُلَّما أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قامُوا**﴾ [البقرة:20]، انظر: الطاهر ابن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (349/23).

(1) فكلما ازداد علم العالم قوي غناه عن الناس في دينه ودنياه.

(2) ؛ حصر فخر الدين الرازي اللذة في المعارف وهي لذة لا تقطعها الكثرة. وقد ضرب الله مثلا بالظل إذ قال: ﴿**وَما يَسْتَوِي الأَعْمى وَالبَصِيرُ وَلَا الظُّلُماتُ وَلَا النُّورُ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الحَرُورُ**﴾ [فاطر: 19ـ 21]، فإن الجلوس في الظل يلتذ به أهل البلاد الحارة؛ انظر: الطاهر ابن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (350/23).

(3) فإنّ العالِمَ مصدَرُ الإرشاد، والعلم دليل على الخير وقائد إليه، لمزاولته ثواب جزيل، لقول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: « **وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا، سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ، يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ، وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ، إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمِ السَّكِينَةُ، وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ، وَذَكَرَهُمُ اللهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ** »، وهو جزء من حديث أخرجه مسلم في: صحيحه ـ كتاب الذكر والدعاء ـ باب: فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، (2074/4) برقم: (2699)، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ؛ ومثله قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: « **إذا مَاتَ ابْن آدم انْقَطع عمله إِلَّا من ثَلَاث، إِلَّا من صَدَقَة جَارِيَة، أَو علم ينْتَفع بِهِ، أَو ولد صَالح يَدْعُو لَهُ** »، وهو حديث أخرجه مسلم في: صحيحه ـ كتاب الوصية ـ باب: ما يلحق الإنسان من الثواب، (1255/3)، برقم: (1631)، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ؛ انظر: الطاهر ابن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (351/32).

(4) انظر: سميح عبد الوهاب الجندي، أهمية المقاصد في الشريعة الاسلامية وأثرها في فهم النص واستنباط الحكم، (ص/114 ـ 121).

دينهم، والجهل بكفية تطبيقها على أرض الواقع؛ ولعلّ من الأسباب الأساسية التي ساعدت على ذلك:

أ ـ جرأة بعض الناس على أحكام الشريعة الإسلامية، وادعائهم فهم نصوصها، وهذا من الأسباب التي ادت إلى تفرّق المسلمين واختلافهم إلى فرقٍ عدة، ومذاهب ونحل شتَّى، خاصة ما يتعلق بإسقاطهم لأصول كبرى في عقيدتهم الإسلامية، مما أضعف وحدتهم وتماسكهم أمام الأمم والشعوب.

ب ـ ظهور كثير من الطوائف المخالفة في العقيدة والتي تنتسب على الإسلام زورا وبهتانا، وذلك بسبب سوء فهمها لنصوص الكتاب والسنة التي تأمر بالوحدة وتنهى عن الفرقة والاختلاف.

وتبعا لهذه المعاني، نرى الشيخ ابن عاشور يحرص أشدّ الحرص على مسائل التوحيد، كونها من أعز ما يطلب في دين الإسلام، الذي هو رمز وحدة المسلمين واتحادهم، فينبغي أن يكون « عقيدة واحدة وأعمالا واحدة، والتفرّق في أصوله ينافي وحدته، ولذلك لم يزل علماء الإسلام يبذلون وسعهم لاستنباط مراد الله من الأمة، ويعلمون أن الحق واحد، وأنّ الله كلَّف العلماءَ بإصابته، وجَعَل للمصيب أَجْرَيْنِ، ولمن أخطأه مع استفراغ الوسع أجرًا واحدًا، وذلك أجْرٌ على بذل الوسع في طلبه، فإنَّ بذل الوسع في ذلك يوشك أن يبلغ المقصود »[1].

ويتأسف الشيخ على حال الأمة الإسلامية وما آلت إليه من التنازع والتناحر، بسبب الاختلاف في أصوله دينهم وقواعده ومقاصده، لأنّ الاختلاف في الأصول يفضي إلى تعطيل بعضها، فينخرم بعض أساس الدين، ولهذا يصرح بقوله: « ووجه ذلك أن تأثير النفوس إذا اتفقت يتوارد على قصد واحد، فيقوى ذلك التأثير، ويسرع في حصول الأثر، إذ يصير كلّ فرد من الأُمَّة معينًا للآخرِ، فيسهل مقصدهم من إقامة دينهم؛ أما إذا حصل التفرُّق والاختلاف، فذلك مفض إلى ضياع أمور الدين في خلال ذلك الاختلاف، ثم هو لا يلبث أن يلقي بالأمة إلى العداوة بينها، وقد يجرُّهم إلى أن يتربَّص بعضهم ببعضٍ الدوائرَ،

(1) الطاهر ابن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (8 ـ أ /191 ـ 192).

ولذلك قال الله تعالى: ﴿**وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾ [الأنفال: 46] » [1].

2 ـ إهمال المقاصد يطعن في صلاحية الشريعة وخلودها

يعتقد الشيخ ـ رحمه الله ـ أنّ ديننا الحنيف يقوم على أصول كبرى وقواعد كلية وضوابط خاصَّة وعامَّة ما أهله ويؤهله على الدوام أن ينسخ جميع الشرائع والديانات السماوية المحرفة قبله، فضلا عن الوضعية، ولذلك فهو يرى أنّ الإسلام عقيدة وشريعة صالحٌ لكلّ زمان ومكان، وأنّ إهمال علم المقاصد هو طعن في هذه الصلاحية.

من هنا فهو يرى ضرورة الاهتمام بهذا العلم، استنادا إلى كلام الله تعالى الوارد في قوله عز وجل: ﴿**هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾ [آل عمران: 7].

يتخذ الشيخ من هذه الآية الكريمة سندا في بيان الدلالة على صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان، أذ بين أن القرآن الكريم اشتمل على ـ فيما اشتمل عليه من المقاصد ـ أمرين عظيمين:

« **أحدهما:** كونه شريعة دائمة، وذلك يقتضي فتح أبواب عباراته لمختلف استنباط المستنبطين، حتى تؤخذ منه أحكام الأولين والآخرين، **وثانيهما:** تعويد حملة هذه الشريعة، وعلماء هذه الأمة، بالتنقيب، والبحث، واستخراج المقاصد من عويصات الأدلة، حتى تكون طبقات علماء الأمة صالحة ـ في كل زمان ـ لفهم تشريع الشارع ومقصده من التشريع، فيكونوا قادرين على استنباط الأحكام التشريعية، ولو صيغ لهم التشريع في أسلوب سهل التناول لاعتادوا العكوف على ما بين أنظارهم في المطالعة الواحدة.

من أجل هذا كانت صلوحية عباراته لاختلاف منازع المجتهدين، قائمة مقام تلاحق المؤلفين في تدوين كتب العلوم، تبعا لاختلاف مراتب العصور» [2].

---

(1) الطاهر ابن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد ، (53/25 ـ 54).

(2) الطاهر ابن عاشور، المصدر نفسه، (3/ 158).

ثالثا: إهمالها يؤدي إلى عدم معرفة دلالات النصوص وأغراضها والحكمة منها

إنّ إهمال النظر في النصوص الشرعية، خاصّة العقدية منها، يجعل من مسائل الإيمان والأمور الغيبية مجرّد أمور تُسْرَدُ سَرْدًا، وقد يصل الأمر بالبعض إلى تأويلها تأويلا فاسدا بعيدا عن الحق والصواب، كما ورد في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ـ عليه الصلاة والسلام؛ مثلما أوَّل بعضهم الملائكة بالأفكار الصالحة، والشياطين بالأفكار القبيحة، بل وأنكر بعضهم عذاب القبر ونعيمه، وغيرها من المفاسد والانحرافات؛ وربما يذهب البعض من جهلة المسلمين إلى إنكارها جملة وتفصيلا.

وتبعا لخطورة هذا الأمر، يحذّر الشيخ الطاهر بن عاشور من الوقوع في هذه المزالق، كما هو واضح في حديثه عن أصناف الناس عند تلقي المعارف والتعاطي مع كلام الله عزّ وجلّ، إذ « ينتفع به من دخل الإيمان قلوبهم على مقادير قوة إيمانهم وعملهم، ويمرّ على قلوب قومٍ لا يشعرون به، وهم المنكرون المعرضون، ويخالط قلوبَ قَوْمٍ فيتأملونه، فيأخذون منه ما يثير لهم شبهات وإلحادا، كقولهم: ﴿**هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ**﴾ [سبأ: 7]، ومنه الأخذ بالمتشابه، قال تعالى: ﴿**فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ**﴾ [آل عمران: 7] »[1].

(1) الطاهر ابن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد ، (117/13).

الفصل الثالث

المقاصد العقدية

عند الشيخ الطاهر ابن عاشور

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: تأصيل المقاصد العقدية عند الشيخ الطاهر بن عاشور

المبحث الثاني: أهمية العقائد واشتمالها على مقاصد هامة

الفصل الثالث

المقاصد العقدية عند الشيخ الطاهر ابن عاشور

لقد جعل علماء المقاصد حفظ الدين مقدّما على سائر الكليات الخمس، ويدخل في حفظ الدين حفظ العقيدة، وذلك بحفظها من جانب الوجود، ومن جانب العدم، كما هو مقرر في كتب الأصول والمقاصد.

واستندوا في تقريرها إلى نصوص كتاب الله عزّ وجلّ، وسنة نبِيِّه ـ صلى الله عليه وسلم ـ، مقتدين بنهجه ـ عليه السلام ـ ومسالكه في الفهم والبيان، ابتداء بكلمة الشهادتين، ثم باقي المراتب والأركان.

وليس من الغريب أنْ يبدئ القرآن الكريم في هَدْيِهِ ويُعيد في تقرير مسائل الاعتقاد، ولهذا يتخذه الشيخ ـ رحمه الله ـ مسلكا شرعيا في بيان آرائه، وبناء مواقفه، مثلما يصرّح به في مصنفاته، فقد «كان شأن الاعتقاد أوّل ما اهتمّ به الإسلام، فكان ابتداء الدعوة إلى الإيمان بالله الواحد، ونبذ الأصنام، وقد جعل ذلك مبنى الخير كله »[1].

ومن هنا يردف الله تعالى الإيمان به، بَعْدَ ذكره العمل بالصالحات، فيقول: ﴿**ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالمَرْحَمَةِ**﴾ [البلد: 17]، والمعنى يؤكده قول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: « **بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ...** »[2].

---

(1) الطاهر ابن عاشور، أصول النظام الاجتماعي، (ص/49).

(2) جزء من حديث، أخرجه البخاري في: صحيحه ـ كتاب الإيمان ـ باب: قول النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَى خَمْسٍ »، (11/1)، برقم: (8)، عَنِ ابْنِ عُمَرَ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ـ؛ ولفظه بتمامه عنده: « قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: « **بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلاَةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ** »؛ ومسلم في: صحيحه ـ كتاب الإيمان ـ باب قَوْلِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَى خَمْسٍ، (45/1)، برقم: (16).

والآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة، والآثار عن الصحابة والتابعين وتابعيهم كثيرة جدا؛ ومن أجل ذلك سمَّى علماء الاسلام العلمَ الباحثَ عن العقيدة الاسلامية (علم أصول الدين)[1].

وهذه المعاني يُثْبِتُهَا الشيخ في العديد من مواضع كتبه، وخاصة تفسيره التحرير والتنوير، كما هو واضح عند تفسير سورة الفاتحة، فهي السورة القرآنية الكريمة التي جمعت معاني القرآن الكريم كلِّه، فضلا عن مقاصده، بل إنّ فيها خلاصة أهمِّ أصول الإصلاح الفردي والاجتماعي.

وانطلاقا من هذه الأهمية، يصرّح بقوله: « لأن القصد من القرآن إبلاغ مقاصده الأصلية، وهي صلاح الدَّارَيْنِ، وذلك يحصل بالأوامر والنواهي، ولـمَّا توقَّفَت الأوامرُ والنواهي على معرفة الآمر، وأنَّه اللهُ الواجبُ وجُودُه، خالِقُ الخَلْق، لَزِمَ تحقيقُ معنى الصفات، ولـمَّا توقَّف تمام الامتثال على الرجاء في الثواب، والخوف من العقاب، لَزِمَ تحقُّقُ الوَعْد والوعِيد »[2].

وتبعا لهذا، فإنَّني سأبيِّنُ ـ في المبحثين الآتيين ـ خطوات مهمَّة تُجَلِّي هذه الرؤية العميقة، بشيء من التفصيل في صفحات البحث، استنادا لما قرَّره الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور، من خلال مصنفاته، وعلى رأسها تفسيره الجليل (التحرير والتنوير)، وكتابه القيم (أصول النظام الاجتماعي في الاسلام)، و(مقاصد الشريعة الإسلامية).

(1) انظر: الطاهر ابن عاشور، أصول النظام الاجتماعي، (ص/49).

(2) الطاهر ابن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (133/1)

المبحث الأول

تأصيل المقاصد العقدية عند الشيخ الطاهر بن عاشور

يجب على كلِّ مَنْ يدعو إلى الإصلاح، ويسلك طرُقَه المتعدِّدة، أن يدرك أهمية العقيدة الإسلامية، ومقاصدها العليا، ودورها في صلاح الفرد والمجتمع، فهي الأساس لكلّ عمل دعوي.

والشيخ الطاهر ابن عاشور من هؤلاء العلماء الكبار الذين اهتموا بأسس الإصلاح الشامل للدين والدنيا، ذلك أنّه بثّ آراءه في مؤلفاته العلمية، خاصة كتابه (أصول النظام الاجتماعي)، فإنّ فيه قواعد عامَّة وعملية للعاملين في هذا الحقل، تغني عن مطالعة كثير من الكتب الطوال في هذا المجال.

ويمتاز الشيخ بنظرات ثاقبة في الإصلاح، فهو يبدأ منهجيًّا بإصلاح فهوم الناس وتصورهم لمسائل العقيدة أوَّلًا، من أجل إصلاح التفكير والعقل ثانيا، لأنّ به يحصل صلاح العمل ثالثا، وبدوام صلاح العمل ينشأ الوازع النفسي رابعًا، وهو الذي يدفع المسلم لإتقان عمله، بعد إخلاص نيته لله تعالى وحده، فهو لا ينتظر الثواب ولا الجزاء من أحد، إلا من خالقه سبحانه وتعالى.

وبيان هذه الفكرة يتوضَّح من خلال عرض بعض النقاط المهمة في هذا الشأن، من خلال المطلبين الآتيين:

المطلب الأول: العلاقة بين مقاصد الشريعة ومقاصد العقيدة

أوَّلًا: علاقة العقيدة بأصل الفطرة

لقد خلق الله عز وجل الإنسان موحدا فكان أول إنسان على وجه الأرض وهو آدم عليه السلام موحدا، ولم تزل الشياطين تتربص ببني آدم حتى اجتالت كثيرا منهم عن صراط الله عز وجل فوقعوا في ظلمات الوثنية والشرك، ومع ذلك تساءل الإنسان عن أسباب خلقه وتكوينه، والحكمة من ذلك، وعن خالقه وحقيقته، وكثرت أسئلته تلك مع توالي الأزمنة والقرون، وهي أمورٌ فطرية جَبَلَ اللهُ الناسَ عليها، كما يرويه أبو هريرة عن النبي ـ صلى الله

عليه وسلم ـ بقوله: « **قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « لَا يَزَالُ النَّاسُ يَتَسَاءَلُونَ حَتَّى يُقَالَ: هَذَا خَلَقَ اللهُ الخَلْقَ، فَمَنْ خَلَقَ اللهَ؟ فَمَنْ وَجَدَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا، فَلْيَقُلْ: آمَنْتُ بِاللهِ** »[1].

فتفكّر الإنسان بفطرته في وجود نفسه، أوْصَلَه وسَاقَهُ إلى التفكير في موجده سبحانه وتعالى، فكلّ ما يحويه هذا العالَمُ من الموجودات، أشخاصها وأنواعها، وأجناسها السفلى والعليا، ينتهي بالإنسان لا محالة إلى الإيمان يقينا بواجب الوجود سبحانه وتعالى، وكونه واحدا، لا إله إلَّا هو.

وهذه الحقيقة يشير إليها ربُّنا عزَّ وجلَّ بقوله تعالى: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى**﴾ [الأَعْرَاف: 172].

ثمّ إنّ الله خلق هذا الانسان في أحسن تقويم، وأودع في فطرته قوّة الفكر المصيب، فإذا نشأ الاعتقاد المصيب ارتاض عقله بقوانين الفكر المصيب، وإذا نشأ على ضدّ ذلك سخَّر عقله لاتباع طرائق الخطأ في التفكير، وقبول التعاليم الضالة.

وقد دلت آيات القرآن على أن بني آدم آمنوا بالله منذ البداية، كما في قول تعالى: ﴿**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ المُتَّقِينَ. لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ العَالَمِينَ. إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ**﴾ [المائدة:27 ـ29].

غير أنّ هذا الإنسان بدأ مع توالي الأزمنة ومرور القرون يضلّ عن صراط الله تعالى المستقيم، بسبب العوارض والصوارف، فتراكمت عليه الضلالات والخرافات.

ففساد الاعتقاد طارئ على الإنسان، وهو يتمثل في ثلاثة أحوال: الشرك بالله تعالى، وتعطيل صفاته، والخطأ فيها، وهذه الحالة تأخذ فسادا من الحالتين الأخريين[2].

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب ـ باب، (96/9)، برقم: (7296)، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ؛ ومسلم في: صحيحه، واللفظ له ـ كتاب الإيمان ـ باب: بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها، (119/1)، برقم: (134)، واللفظ بتمامه عند مسلم.

(2) انظر: الطاهر ابن عاشور، أصول النظام الاجتماعي في الاسلام، (47/46).

ويضع الشيخ ـ في هذا السياق ـ عنوانا مستقلا يبيِّن فيه أصل (الفطرة) الذي يجمع بين مقاصد الشريعة كلّها، عقائد وتشريعات، استنادا إلى قوله تعالى: ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ**﴾ [الروم: 30]، حيث يرجّح المراد بـ(الدين) في الآية الكريمة أنّه (الإسلام)، بعقائده وأحكامه، بدليل أنَّ الخطابَ مُوَجَّهٌ للنبيِّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ، فهو مأمورٌ بإقامة وجهه للدين المرسل به؛ ويدخل في هذا الخطاب جميعُ المسلمين باتفاق أهل التأويل؛ ذلك أنّ (الدين) اسم يشمل جميع ما يتديَّنُ به المَرْءُ، كما دل عليه قوله ـ عليه السلام ـ: « **هَذَا جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ** »[1] [2]؛ ومن هنا يقرِّر الشيخ بأنّ الإسلام دينٌ صالحٌ لجميع الأمُمَ، في جميع العصور.

ووضح معنى الفطرة في الآية السابقة بأنها جملة الدين بعقائده وشرائعه، فهي النظام الذي أوجده الله في كل مخلوق، أي خُلق عليه الإنسان (ظاهراً) و(باطناً)، أي: (جسداً)و(عقلاً)[3].

---

(1) جزء من حديث طويل، أخرجه البخاري في: صحيحه ـ كتاب الإيمان، بَابُ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [لقمان: 34]، (115/6)، برقم: (4777)؛ ومسلم في: صحيحه، واللفظ له ـ كتاب الإيمان ـ باب معرفة الإسلام والإيمان والقدر، (36/1)، برقم: (8)، عن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ؛ ولفظه عنده بتمامه: « بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعَرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: « الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا »، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ، وَيُصَدِّقُهُ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ، قَالَ: « أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ »، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ، قَالَ: « أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ، قَالَ: « مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ »، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا؟، قَالَ: « أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ »، قَالَ: ثُمَّ انْطَلَقَ، فَلَبِثْتُ مَلِيًّا، ثُمَّ قَالَ لِي: « يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟ »، قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: « فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ ».

(2) انظر: الطاهر ابن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، (176/3 ـ 177).

(3) انظر: الطاهر ابن عاشور، المصدر نفسه ، (178/3 ـ 179).

ويؤكد نفس المعنى بشيء من التفصيل، إذ يصف دين الإسلام بأنه فطرة عقليّة لأنّ الإسلام عقائد وتشريعات، وكلّها أمور عقلية أو جارية على وفق ما يدركه العقل ويشهد به.

وهي صالحة لصدور الفضائل عنها كما شهد به قوله تعالى: ﴿**لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ . ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ . إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ**﴾[التين:4 ـ6]، فلا شك أن المراد بالتقويم في الآية تقويم العقل الذي هو مصدر العقائد الحقة والأعمال الصالحة، وأن المراد برده أسفل سافلين انتقال الناس إلى اكتساب الرذائل بالعقائد الباطلة والأعمال الذميمة، فالأصول الفطرية هي التي خلق الله عليها الإنسان المخلوق لعمران العالم، وهي إذن الصالحة لانتظام هذا العالم على أكمل وجه، وهي إذن ما يحتوي عليه الإسلام الذي أراده الله لإصلاح العالم بعد اخلاله.

فالأصول التي جاء بها الإسلام هي من الفطرة، ثم تتبعها أصول وفروع هي من الفضائل الذائعة المقبولة، فجاء بها الإسلام وحرَّض عليها، إذ هي من العادات الصالحة المتأصّلة في البشر، والناشئة عن مقاصد من الخير سالمة من الضرر، فهي راجعة إلى أصول الفطرة، وإن كانت لو تركت الفطرة وشأنها لما شهدت بها ولا بضدّها، فلما حصلت اختارتها الفطرة، ولذلك استقرت عند الفطرة واستحسنتها[1].

ونجد الشيخ ـ رحمه الله ـ يشير إلى بعض ضوابط الفطرة، وكيف أن الشرع حافظ عليها من جانب الوجود ومن جانب العدم، وبين كيفية الترجيح بين مظاهرها عند التنازع، إذ يقول: « ونحن إذا أجدنا النظر في المقصد العام من التشريع نجده لا يعدو أن يساير حفظ الفطرة، والحذر من خرقها واختلالها، ولعل ما أفضى إلى خرق عظيم فيها يعدّ في الشرع محذوراً وممنوعاً، وما أفضى إلى حفظ كيانها يعد واجباً، وما كان دون ذلك في الأمرين فهو منهي أو مطلوب في الجملة، وما لا يمسّها مباح، ثم إذا تعارضت مقتضيات الفطرة ولم يُمكن الجمع بينها في العمل يصار إلى ترجيح أَوْلاها وأَبقاها على استقامة الفطرة » [2].

---

(1) انظر: الطاهر ابن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، (3/180 ـ 184).

(2) انظر: الطاهر بن عاشور، المصدر نفسه، (3/185 ـ 186).

ثانيا: أصل الفطرة وما اشتمل عليه من المظاهر

يقرر الشيخ أن الإسلام دين صالح لجميع الأمم في جميع الأعصر، لابتنائه على أصل الفطرة، وقد شمل هذا الأصل العظيم عدة مظاهر خادمة له ومهيئة جميع الناس لقبول تعاليمه، وتفصيلها كما يلي:

المظهر الأول: إصلاح العقيدة[1]، **المظهر الثاني**: جمعه بين إصلاح النفوس، بالتزكية، وبين إصلاح نظام الحياة بالتشريع[2]، **المظهر الثالث**: اختصاصه بإقامة الحجة، ومجادلة المخاطبين بصنوف المجادلات وتعليل أحكامه، بالترغيب وبالترهيب[3]، **المظهر**

---

(1) وذلك بحمل الذهن على اعتقاد لا يشوبه تردد ولا تمويه ولا أوهام ولا خرافات، ثم بكون عقيدته مبنية على الخضوع لواحد عظيم، وعلى الاعتراف باتصاف هذا الواحد بصفات الكمال التامة التي تجعل الخضوع إليه اختياريا، ثم لتصير تلك الكمالات مطمح أنظار المعتقد في التخلق بها ثم بحمل جميع الناس على تطهير عقائدهم حتى يتحد مبدأ التخلق فيهم:﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتابِ تَعالَوْا إِلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنا بَعْضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ**﴾ [آل عمرَان: 64]، وكان إصلاح الاعتقاد أهم ما ابتدأ به الإسلام، وأكثر ما تعرض له وذلك لأن إصلاح الفكرة هو مبدأ كل إصلاح ولأنه لا يرجى صح لقوم تلطخت عقولهم بالعقائد الضالة، وخسئت نفوسهم بآثار تلك العقائد المثيرة: خوفا من لا شيء، وطمعا في غير شيء، وإذا صلح الاعتقاد أمكن صلاح الباقي لأن المرء إنسان بروحه لا بجسمه، ثم نشأ عن هذا الاعتقاد الإسلامي: عزة النفس، وأصله الرأي، وحرية العقل، ومساواة الناس فيما عدا الفضائل، وقد أكثر الإسلام شرح العقائد إكثارا لا يشبهه فيه دين آخر بل إنك تنظر إلى كثير من الأديان الصحيحة، فلا ترى فيها من شرح صفات الخالق إلا قليلا، الطاهر ابن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (194/3).

(2) في حين كان معظم الأديان لا يتطرق إلى نظام الحياة بشيء، وبعضها وإن تطرق إليه إلا أنه لم يوفه حقه، بل كان معظم اهتمامها منصرفا إلى المواعظ والعبادات وقد قرن القرآن المصلحتين في غير ما آية قال تعالى: ﴿**مَنْ عَمِلَ صالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَياةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [النحل97]، الطاهر ابن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (194/3 ـ 195).

(3) وذلك رعي لمراتب نفوس المخاطبين، فمنهم العالم الحكيم الذي لا يقتنع إلا بالحجة والدليل، ومنهم المكابر الذي لا يرعوي إلا بالجدل والخطابة، ومنهم المترهب الذي اعتاد الرغبة فيما عند الله، ومنهم المكابر المعاند، الذي لا يقلعه عن شغبه إلا القوارع والزواجر، الطاهر ابن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (195/3).

الرابع: أنه جاء بعموم الدعوة لسائر البشر[1]، **المظهر الخامس**: الدوام [2]، **المظهر السادس**: الإقلال من التفريع في الأحكام[3]، **المظهر السابع**: أن المقصود من وصايا الأديان إمكان العمل بها[4]، **المظهر الثامن**: الرأفة بالناس[5]، **المظهر التاسع**: امتزاج الشريعة بالسلطان في الإسلام[1]، **المظهر العاشر**: صراحة أصول الدين[2].

---

(1) وهذا شيء لم يسبق في دين قبله قط، وفي القرآن: ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا**﴾ [الأعراف: 15]، وقوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: « **أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي**... » ـ فذكر ـ: « **وَكَانَ الرَّسُولُ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً** »، أخرجه البخاري في: صحيحه ـ كتاب التيمم ـ باب التيمم، (74/1)، برقم: (335)، عَنْ جَابِرِ بن عبد الله الأنصاريِّ ـ رضي الله عنه ـ؛ ومسلم في: صحيحه ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ـ باب:، (370/1)، برقم: (521) وقد ذكر الله تعالى الرسل كلهم فذكر أنه أرسلهم إلى أقوامهم، والاختلاف في كون نوح رسولا إلى جميع أهل الأرض، إنما هو مبني: على أنه بعد الطوفان انحصر أهل الأرض في أتباع نوح، عند القائلين بعموم الطوفان سائر الأرض، ألا ترى قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ**﴾ [الْأَعْرَاف: 59]، وأيا ما كان احتمال كون سكان الأرض في عصر نوح هم من ضمهم وطن نوح، فإن عموم دعوته حاصل غير مقصود، الطاهر ابن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (195/3).

(2) لم يدع رسول من الرسل أن شريعته دائمة، بل ما من رسول، ولا كتاب، إلا تجد فيه بشارة برسول يأتي من بعده، الطاهر ابن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (195/3).

(3) بل تأتي بأصولها ويترك التفريع لاستنباط المجتهدين وقد بين ذلك أبو إسحاق الشاطبي في تفسير قوله تعالى: ﴿**مَا فَرَّطْنا فِي الكِتابِ مِنْ شَيْءٍ**﴾ [الأنعام: 38] لتكون الأحكام صالحة لكل زمان، الطاهر ابن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (195/3).

(4) وفي أصول الأخلاق أن التربية الصحيحة هي التي تأتي إلى النفوس بالحيلولة بينها وبين خواطر الشرور لأن الشرور، إذا تسربت إلى النفوس، تعذر أو عسر اقتلاعها منها، وكانت الشرائع تحمل الناس على متابعة وصاياها بالمباشرة، فجاء الإسلام يحمل الناس على الخير بطريقتين: طريقة مباشرة، وطريقة سد الذرائع الموصلة إلى الفساد، وغالب أحكام الإسلام من هذا القبيل وأحسبها أنها من جملة ما أريد بالمشتبهات في حديث: « **إِنَّ الحَلَالَ بَيِّنٌ وَإِنَّ الحَرَامَ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُشْتَبَهَاتٌ، لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ**... »، جزء من حديث أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب الإيمان ـ باب: باب فضل من استبرأ لدينه، (20/1)، برقم: (52)، ومسلم في: صحيحه ـ كتاب المساقاة ـ باب: أخذ الحلال وترك الشبهات، (1219/3)، برقم: (1599).الطاهر ابن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (195/3).

(5) حتى في حملهم على مصالحهم بالاقتصار في التشريع على موضع المصلحة، مع تطلب إبراز ذلك التشريع في صورة لينة، وفي القرآن ﴿**يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ اليُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ العُسْرَ**﴾ [البقرة: 185] وفي الحديث: « **بُعِثْتُ بِالحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ**... » جزء من حديث ضعيف، أخرجه أحمد في مسنده، (623/36)، برقم: (22291)،

المطلب الثاني: صلاح تصورات الناس للعقائد أساس صلاح الشرائع

يصرِّح الشيخ ـ انطلاقا من نظرته المقاصدية ـ أنّ المقصد الأعظم من الشريعة هو جلب المصالح ودرء المفاسد، وذلك يحصل بإصلاح حال الإنسان ودفع فساده، فإنّه لـمَّا كان هو المهيمنَ على هذا العالَم، كان في صلاحه صلاحُ العالَم وأحواله.

فصلاح الإنسان ـ في نظر الشيخ ـ يتمّ بصلاح أفراده الذين هم أجزاء نوعه، وبصلاح مجموعه، وهو النوعُ كلُّه.

ويحدِّد الشيخ بدقة متناهية منهجه الشامل ونظرته الثاقبة في المسألة، والخطوات الأساسية في الإصلاح الفردي، انطلاقا من الدعوة إلى صلاح الاعتقاد، والذي هو إصلاح مبدأ التفكير الإنساني، الذي يسوقه إلى التفكير الحقّ في أحوال هذا العالَم.

ثم ينتقل إلى أهمية تزكية الإنسان نفسه تدريجيا، وتصفية باطنه، وعلاجه من رعوناته، لأنّ الباطن محرّك الإنسان إلى الأعمال الصالحة، كما ورد في الحديث: « **أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ القَلْبُ** »[3][1]؛ وبعد هذا يترقى إلى إصلاح العمل، فيعالجه بتقنين التشريعات كلِّها.

عن أبي أمامة الباهلي ـ رضي الله عنه ـ؛ الطاهر ابن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (196/3).

(1) وذلك من خصائصه إذ لا معنى للتشريع إلا تأسيس قانون للأمة، وما قيمة قانون لا تحميه القوة والحكومة، وبامتزاج الحكومة مع الشريعة أمكن تعميم الشريعة، واتحاد الأمة في العمل والنظام، الطاهر ابن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (196/3).

(2) بحيث يتكرر في القرآن ما تستقرى منه قواطع الشريعة، حتى تكون الشريعة معصومة من التأويلات الباطلة، والتحريفات التي طرأت على أهل الكتب السابقة، ويزداد هذا بيانا عند تفسير قوله تعالى: ﴿**فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ**﴾ [آل عمران: 20]، الطاهر ابن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (196/3).

(3) جزء من حديث أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب الإيمان ـ باب: باب فضل من استبرأ لدينه، (20/1)، برقم: (52)، عن النعمان بن بشير ـ رضي الله عنه ـ؛ ولفظه بتمامه: « سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ يَقُولُ: « **الحَلاَلُ بَيِّنٌ، وَالحَرَامُ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لاَ يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَى المُشَبَّهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ: كَرَاعٍ يَرْعَى حَوْلَ الحِمَى، يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ، أَلاَ وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلاَ إِنَّ حِمَى اللَّهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ، أَلاَ وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً: إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ،**

ويقرِّر الشيخ أنّ تطوّر التشريع، من ابتداء البعثة إلى ما بعد الهجرة يهدينا إلى مقصد الشريعة من الوصول إلى الإصلاح المطلوب، يدلّ عليه ما جاء في الحديث الذي رواه مسلم عن أبي عمرة الثقفي أنه قال: « **قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ قُلْ لِي فِي الإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا غَيْرَكَ، قَالَ: قُلْ آمَنْتُ بِاللهِ، ثُمَّ اسْتَقِمْ** »[2].

وبهذا ندرك أن الاسلام قد سبق علماء الاجتماع من الغربيين الذين جعلوا حالة الدين والعقيدة أكبر سبب في نهوض وسقوط الأمم.

ويستقرئ الشيخ كتاب الله تعالى، ليقف على شاهدين يُقوِّيَان هذا المعنى:

أولهما: قوله تعالى: ﴿**وَأُوتِينَا العِلْمَ مِنْ قَبْلِها وَكُنَّا مُسْلِمِينَ. وَصَدَّها مَا كانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّها كانَتْ مِنْ قَوْمٍ كافِرِينَ**﴾ [النمل: 42 ـ 43]، أي: صدها عن حصول العلم النافع عبادتها الشمس، فكانت بذلك الاعتقاد منصرفة عن الكمال العلمي والرشد الفكري واستكمال الحضارة الصحيحة.

وثانيهما: قوله تعالى: ﴿**فَما أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَما زادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ**﴾ [هود: 101]، فجعل الضلال نتيجة للعقائد الفاسدة التي ينتج عنها أوهام وخيالات تدفع الناس إلى الاضطراب والخوف من خرافات وأوهام من نسج الخيال[3].

وقد وصف الله عز وجل الأعمال الفاسدة بالخبث والأعمال الصالحة بالطيبات، فيقول تعالى: ﴿**قُلْ لَا يَسْتَوِي الخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الخَبِيثِ**﴾ [المائدة: 100]، يقول الشيخ في تفسير للآية الكريمة: « والمراد به هنا خِسَّة النفوس الصادرة عنها مفاسد الأعمال، و(الطيب) الموصوف بـ(الطيب)، ضد (الخبث) بإطلاقيه، فالكفر خبثٌ، لأنّ أساسه الاعتقاد الفاسد، فنفس صاحبه تتصوّر الأشياء على خلاف حقايقها، فلا جَرَم

وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلاَ وَهِيَ القَلْبُ »؛ ومسلم في: صحيحه ـ كتاب المساقاة ـ باب: أخذ الحلال وترك الشبهات، (1219/3)، برقم: (1599).

(1) انظر: الطاهر ابن عاشور، أصول النظام الاجتماعي، (ص/197 ـ 198).

(2) أخرجه مسلم في صحيحه ـ كتاب الإيمان ـ باب جامع أوصاف الإسلام، (65/1)، برقم: (38)، عن أبي عمرة سفيان بن عبد الله الثقفي ـ رضي الله عنه ـ.

(3) انظر: الطاهر ابن عاشور، أصول النظام الاجتماعي، (ص/9 ـ 10).

أنْ يأتي صاحبها بالأفعال على خلاف وجهها، ثم إن شرائع أهل الكفر تأمر بالمفاسد والضلالات، وتصرف عن المصالح والهداية، بسبب السلوك في طرائق الجهل، وتقليب حقائق الأمور، وما من ضلالة إلَّا وهي تُفْضِي بصاحبها إلى أخرى مثلها، والإيمان بخلاف ذلك »[1].

وقريب من معنى كلامه ما يذكره في بيان أنّ الاسلام جعل العقائد مبنية على حقائق ثابتة لا تتغير، لأنّ المقصود من وضعها تقويم المجتمع الاسلامي، أفرادًا وجماعاتٍ، في الاعتقاد والتفكير وفي الأعمال، على أن يأخذوا بالحقائق، وينبذوا التوهمات والتخيلات وما نسميه بالخرافات [2].

(1) الطاهر ابن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (343/9).

(2) انظر: الطاهر ابن عاشور، أصول النظام الاجتماعي، (ص/29).

المبحث الثاني

أهمية العقائد واشتمالها على مقاصد هامة

تعتبر العقيدة أهمّ عنصر في أيّ عملية إصلاحية في أي مجتمع من المجتمعات، فهي من أولى الأولويات التي بدأ بها النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين مجيء الإسلام، فالشارع الحكيم أعطاها عناية خاصة، لأن إصلاح الفكرة هو مبدأ كل صلاح، ولأنّه لا يرجى خير لقوم تلطخت عقولهم بالعقائد الضالّة، وتلوَّثَت نفوسهم بآثار تلك العقائد البدائية، خوفا من لا شيء، وطمعا في غير شيء، وإذا صلح الاعتقاد أمكن صلاح الباقي، لأن المرء إنسان بروحه لا بجسمه.

واعتبارا من هذه القيمة الفعلية للعقيدة في قلوب الناس، يوضح الشيخ الطاهر ابن عاشور أنّ دين الإسلام أكثر شرح العقائد إكثارا لا يشبهه فيه دينٌ آخر، خصوصا المسائل المتعلقة بالألوهية، وعلى رأسها مسألة التوحيد[1]، ويمكنني أن أعرض هذا المبحث في المطلبين الآتيين:

المطلب الأول: ضرورة إصلاح العقل والأفكار

أوَّلًا: حفظ الدين أعظم المصالح والكليات الخمس

يعتبر الشيخ ـ رحمه الله ـ حفظ الدين مقصدا شرعيا مقدَّمًا على سائر الكليات الخمس، ويضرب لذلك مثالا بما حدث لـ(هارون) ـ عليه السلام ـ حين استخلفه (موسى) ـ عليه السلام ـ في سياسة قومه، وما إن فارقهم موسى للقاء ربّه عز وجل، حتَّى اتخذوا العجل وعبدوه من دون الله، فاتضح من الآيات، أنّ هارون ـ عليه السلام ـ « تعارضت عنده مصلحتان، مصلحة حفظ العقيدة، ومصلحة حفظ الجامعة من الهرج، وفي أثنائها حفظ الأنفس والأموال والأخوة بين الأمة فرجَّح الثانية، وإنما رجَّحها لأنَّه رآها أَدْوَمَ، فإنَّ مصلحة حفظ العقيدة يستدرك فواتها الوقتي برجوع موسى، وإبطاله عبادة العجل...، بخلاف مصلحة حفظ الأنفس والأموال واجتماع الكلمة إذا فُقِدَتْ عَسُرَ تحصِيلُها؛ وكان اجتهاده ذلك مرجوحا، لأنّ حفظ الأصل الأصيل للشريعة أهمّ من حفظ الأصول المتفرِّعة عليه، لأنّ

(1) انظر: الطاهر ابن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (194/3).

مصلحة صلاح الاعتقاد هي أُمُّ المصالح التي بها صلاح الاجتماع؛ وكان واجبه أن يتركهم وضلالهم، وأنْ يَلْتَحِقَ بأخيه، مع علمه بما يُفْضِي إلى ذلك من الاختلاف بينهم، فإنّ حرمة الشريعة بحفظ أصولها، وعدم التساهل فيها، وبحرمة الشريعة يبقى نفوذها في الأُمَّة، والعمل بها »[1].

ثانيا: التخلية قبل التحلية

يُقدِّم الشيخ ابن عاشور في عملية الإصلاح مبدأ: تخلية نفس الإنسان من كفرها وضلالها، قبل تحليتها بالأخلاق الفاضلة، ويستشهد في بيان هذه المعالجة بما فعله لقمان الحكيم مع ابنه، حين ابتدأ موعظته له بطلب إقلاعه عن الشرك بالله تعالى، مقرِّرًا « أنّ النفس المعرَّضة للتزكية والكمال يجب أن يُقَدَّمَ لها قبلَ ذلك تَخْلِيَتَهَا عن مبادئ الفساد والضلال، فإنَّ إصلاح الاعتقاد أصلٌ لإصلاحِ العمل »[2].

وتبدأ عملية إصلاح خصال الإنسان بإصلاح عقله، فهي الأساس، ويجيء بعده الاشتغال بإصلاح أعماله، وعلى هذين الإصلاحين مدار قوانين المجتمع الاسلامي، ويعضدد رأيه بما ورد في صحيح مسلم عن أبي عمرة الثقفي أنّه قال: « **قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، قُلْ لِي فِي الإِسْلَامِ قَوْلًا لَا أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا غَيْرَكَ، قَالَ: قُلْ آمَنْتُ بِاللهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ** »[3]، فجمع له في قوله: (**قل آمنت بالله**) معاني اصلاح الاعتقاد، وفي قوله: (**استقم**) معاني صلاح العمل[4].

ثالثا: اشتمال العقائد على مصالح

يقرّر الشيخ ـ رحمه الله ـ مسائل العقيدة الإسلامية تشتمل على مقاصد هامة، سواء علمنا بها أم لم نعلم، وسواء أطلعنا الله على الحكمة والمصلحة من ورائها، أمْ لَا.

---

(1) انظر: الطاهر ابن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (293/16 ـ 294).

(2) أصل فساد الاعتقاد أحد أمرين، هما: (الدهرية) و(الإشراك)، فكان قوله: ﴿**لَا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾ [لقمان: 13] يفيد إثبات وجود إله وإبطال أن يكون له شريك في إلهيته؛ المرجع نفسه، (155/21).

(3) سبق تخريج الحديث عند (ص/104).

(4) انظر: الطاهر ابن عاشور، أصول النظام الاجتماعي، (ص/45).

فالمؤمن الحقيقي يعلم بأنّ الله عليم بكلّ شيء، حكيمٌ في أفعاله، فإن اتَّضحت الحكمة والقصد منه فهو سبيل إلى زيادة عمله وافتقاره إلى مولاه، وإن لم يهتد إلى الحكمة منه فإنّه يوقن بأنّ هناك مصلحة من ورائه عاجلا أو آجلا، يدل عليها قوله تعالى: ﴿**وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ**﴾ [فاطر: 22].

وقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: « **مَنْ كَانَ عِنْدَهُ مَالٌ لَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ مُثِّلَ لَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ، لَهُ زَبِيبَتَانِ، يَطْلُبُهُ حَتَّى يُمَكَّنَهُ فَيُطَوِّقُهُ، يَقُولُ: أَنَا مَالُكَ، أَنَا كَنْزُكَ،** ثم تلا قوله تعالى: ﴿**وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ**﴾ [آل عمران:180] »[1]، صح لنا أن نعتقده كما هو، لأن ذلك من تصرفات عالم تخالف حقائقه حقائق عالمنا هذا.

ومثله الحديث الصحيح: « **مَن اِغْتَصَبَ شِبْرًا مِنْ أَرْضٍ طُوِّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ يَوْمَ القِيَامَةِ** »[2].

ومن هنا يصرّح بقوله: « ونلحق بهذا القسم أشياء اشتملت عليها الشريعة من غير عالم الغيب لم نهتد إلى حقيقتها، فنحن نتلقَّاها كما جاءت، موقنين باشتمالها على مصالح لم تتضح لنا، جاعلين يقيننا بذلك مستنتجا من استقراء جمهرة الأحكام في سائر الأحوال، إذ نجد تلك الأحكام حقائق بيِّنَة، ومصالح واضحة، ولا يعد يقيننا ذلك وَهْمًا، بل تفويضا »[3].

رابعا: تأصيل العقيدة

أصَّل الشيخ قاعدة عامة في مسائل العقيدة، هي أنّها محاطة بأمرين عظيمين، بهما يصلح اعتقاد الانسان:

---

(1) أخرجه البخاري في: صحيحه ـ كتاب ـ باب إثم مانع الزكاة، (106/2)، برقم: (1403)، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ.

(2) أخرجه البخاري كتاب ـ باب إثم من ظلم شبرا من الأرض، (130/3)، برقم: (2452)، عن سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل؛ ومسلم في صحيحه ـ كتاب المساقاة ـ باب: تحريم الظلم وغصب الأرض وغيرها، (1230/3)، برقم: (1610)، ولفظه عنده بتمامه: « أَنَّ رَسُولَ اللهِ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ قَالَ: « **مَنِ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا، طَوَّقَهُ اللهُ إِيَّاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ** ».

(3) الطاهر ابن عاشور، أصول النظام الاجتماعي، (ص/46).

أولها: تفصيل مسائل العقيدة، ويكون بأشياءٍ ثلاثةٍ:

أ ـ تمام إيضاحها لسائر المسلمين، لأنها لو لم تكن سهلة للعوامّ لَلَزِمَ تكلِيفُهُم بما لا يُطاقُ، وهو غيرُ واقعٍ، وقد جاءت الشريعة فيما يتعلق بالأمور الإلهية بما يسع فهمه[1]، وأرْجَتْ غيرَ ذلك، فعرَّفتْ الله تعالى بمقتضى أسمائه وصفاته، وحضَّت على النظر في مخلوقاته الدالة على وحدانيته، وردَّت الأمور المتشابهة إلى قاعدة عامة، هي قوله تعالى: ﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ**﴾ [الشورى: 11]، وسكتت عن أشياء لا تهتدي إليها العقول، لأنّ الناس يتفاوتون في إدراكهم لمسائل العقيدة الدقيقة، ويشتركون في القدر الضروري الذي لا يعذرون بجهله، ويُلَخِّصُ الشيخ هذه الفكرة بقوله: « فإنّ مقام علم العقيدة مقام بيان يناسبه الإطناب »[2].

ب ـ إعلان فضائح الضالين في العقيدة على اختلاف ضلالهم، والإغلاظ عليهم.

ج ـ سدّ ذرائع الشرك واجتثات عروقه، ولذلك نهى عن اتخاذ التماثيل في البيوت، وأكَّد النهي عن اتخاذ القبور مساجد، وفي الحديث الصحيح أن رسول الله ـ صلى الله عليه

---

(1) بمعنى: أن تكون المعاني المطلوب علمها واعتقادها سهلة المأخذ، فإنّ التكاليف الاعتقادية والعملية مما يَسَعُ الأمِيُّ تَعَقُّلُها، ليسعه الدخول تحت حكمها؛ أما الاعتقادية، بأن تكون من القرب للفهم، والسهولة على العقل، بحيث يشترك فيها الجمهور من كان منهم ثاقب الفهم أو بليدا، فإنها لو كانت مما لا يدركه إلا الخواص، لم تكن الشريعة عامة؛ انظر: أبو إسحاق الشاطبي، الموافقات، (141/2).

(2) الطاهر ابن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (19/20)؛ ومما يدلّ على صحة موقف الشيخ: أنّ الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ لم يبلغنا عنهم من الخوض في هذه الأمور ما يكون أصلا للباحثين والمتكلفين، كما لم يأت ذلك عن صاحب الشريعة عليه الصلاة والسلام، وكذلك التابعون المقتدى بهم لم يكونوا إلا على ما كان عليه الصحابة، بل الذي جاء عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعن أصحابه النهي عن الخوض في الأمور الإلهية وغيرها، حتى قال: « **لَنْ يَبْرَحَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ عَمَّا لَمْ يَكُنْ، حَتَّى يَقُولُوا: اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ، فَمَنْ خَلَقَ اللَّهَ...** »؛ وثبت النهي عن كثرة السؤال، وعن تكلف ما لا يعني عاما في الاعتقاديات والعمليات، وأخبر مالك أن من تقدم كانوا يكرهون الكلام إلا فيما تحته عمل، وإنما يريد ما كان من الأشياء التي لا تهتدي العقول لفهمها مما سكت عنه، أو مما وقع نادرا من المتشابهات محالا به على آية التنزيه؛ فالتعمق في أمور العقيدة التي لا يشترك الجمهور في فهمها خروج عن مقتضى وضع الشريعة؛ انظر: أبو إسحاق الشاطبي، الموافقات (141/2 ـ 143).

وسلم ـ قال في مرضه: « **اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ** »، قال الراوي: « يحذر ما صنعوا »[1].

ثانيها: تعليل مسائل العقيدة، باستدعاء العقول إلى الاستدلال على وجود الله، وعلى صفاته التي دلَّ عليها تنزيهه، وأعظم ذلك الاستدعاء إلى النظر في النفس، وهو أصل الحكمة [2].

المطلب الثاني: إصلاح التفكير في مجال العقيدة

يبيِّنُ الشيخ أنَّ التوحيد هو الذي يسوق الإنسان إلى حُسْنِ التصرُّف والتدبير، ويصرف عنه الزيغ والضلال، لكونه أصل صلاح بَالِ المؤمن، ومنه تنبعثُ القوى المقاومة للأخطاء والأوهام التي تلبس بها أهل الشرك، فهو الذي أقام أنظارهم وعقولهم، فلا يفكرون إلا صالحا، ولا يتدبَّرُون إلَّا ناجحا[3]، ويتم هذا الإصلاح في التفكير ـ حسب نظره ـ بنقاط أساسية، هي:

أوَّلًا: علاقة التفكير بالعقيدة

يفصل الشيخ مبحثَ إصلاح التفكير عن مبحث اصلاح الاعتقاد، وإن كانت العقيدة من التفكير، لأنه يعتبر العقيدة تفكيرا مقدَّسًا، متميِّزًا، يختصّ بوجود الله تعالى

---

(1) جزء من حديث مرسل، أخرجه مالك في: الموطأ، (172/1)، برقم: (85) عن عطاء بن يسار؛ ولفظه عنده بتمامه: « **اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ؛ اشْتَدَّ غَضَبُ اللَّهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ** »؛ وصححه الألباني في: مشكاة المصابيح، (234/1)، برقم: (750)؛ وقد أخرجه البخاري بلفظ قريب منه في: صحيحه ـ كتاب ـ باب: الصلاة في البيعة، (95/1)، برقم: (435)، عن عائشة وعبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ؛ ولفظه عنده بتمامه: « قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ فِي مَرَضِهِ الَّذِي لَمْ يَقُمْ مِنْهُ: « **أَنَّ عَائِشَةَ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبَّاسٍ، قَالاَ: لَمَّا نَزَلَ بِرَسُولِ اللَّهِ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ طَفِقَ يَطْرَحُ خَمِيصَةً لَهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَإِذَا اغْتَمَّ بِهَا كَشَفَهَا عَنْ وَجْهِهِ، فَقَالَ وَهُوَ كَذَلِكَ: «لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى اليَهُودِ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ** »، يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا؛ ومسلم في: صحيحه ـ كتاب المساجد ومواضع الصلاة ـ باب النهي عن بناء المساجد على القبور، (376/1)، برقم: (529).

(2) انظر: الطاهر ابن عاشور، أصول النظام الاجتماعي، (ص/49 ـ 50).

(3) انظر: الطاهر ابن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (76/26).

وإثبات وحدانيته وأسمائه وصفاته وصفات رسله، وكونها أمورا يقينية مسلما بها، تُتَلَقَّى بالتصديق عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

وعليه، فإصلاح التفكير مهمّ في نظر الشيخ، لتعلقه بشؤون الحياة، العاجلة منها والآجلة، وهو مما يجب سلوكه للنجاح في الحياتين، كي يسلم صاحبه من الوقوع في مهاوي الأغلاط والخسران، في دنياهُ وأُخْرَاهُ، يؤكدها قوله ـ عليه السلام ـ: « **إِنَّ العَبْدَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ، مَا يَتَبَيَّنُ فِيهَا، يَزِلُّ بِهَا فِي النَّارِ أَبْعَدَ مِمَّا بَيْنَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ** »[1].

فأعمال الإنسان جارية في الصلاح والفساد على حسب تفكيره، وقد عبَّر الله تعالى عن التفكير في اصطلاح الشريعة بـ(القلب)[2]، ومنه قوله تعالى: ﴿**إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ**﴾ [ق: 37].

وقوله ـ عليه السلام ـ في الحديث الصحيح من رواية النعمان بن بشير ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول: « **أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ القَلْبُ** »[3].

ومحلّ الشاهد في الحديث، أنّه أراد بـ(القلب): (العقل)، وأراد بـ(صلاح الجسد): صلاح العمل؛ فمثابة العقل للأعمال كمثابة قائد الجيش، تجري أعمال جيشه على ما يريده، فإنْ أصاب انتصروا، وإنْ أخطأ انهزموا؛ لأجل ذلك كان إصلاح التفكير من أهم ما قصدته الشريعة الاسلامية في إقامة نظام الاجتماع من طريق صلاح الافراد، وبهذا نفهم وجه اهتمام القرآن باستدعاء العقول للنظر والتذكر والتعقل والعلم والاعتبار وان ذلك جرى على هذا المقصد فأنبأنا عن استقراء اهتمامه والافصاح عنه بكلام رسوله.

وجعل الشيخ الذهول عن الحقائق والخطأ في إدراكها من أسباب المصائب في العاجل والآجل، فهو يوقع صاحبه في الضلال والخسران، من حيث يتطلب الهدى والنجاة، أو يضيع عليه مدة من نفيس عمره حتى يفيق من ضلاله؛ ومثَّل لذلك بحديثين:

---

(1) أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب الرقاق ـ باب: حفظ اللسان، (100/8)، برقم: (4776)، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ؛ ومسلم في صحيحه ـ كتاب الزهد ـ باب: التكلم بالكلمة يهوي بها في النار، (2292/4)، برقم: (2988).

(2) انظر: الطاهر ابن عاشور، أصول النظام الاجتماعي، (ص/51).

(3) سبق تخريجه عند (ص/103).

الأول: أنّ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مر بقبرين فقال: « **إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ** »[1]، أيْ: في أمر لا يكبر تركه.

الثاني: ما جاء في خطبته في حجة الوداع، بقوله: «**إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَئِسَ أَنْ يُعْبَدَ فِي بَلَدِكُمْ هَذَا وَلَكِنَّهُ قَدْ رَضِيَ بِمَا دُونَ ذَلِكَ مِمَّا تُحَقِّرُونَ مِنْ أَعْمَالِكُمْ** »[2][3].

ثانيا: خطوات إصلاح التفكير

يستند الشيخ في عملية إصلاح التفكير إلى اتخاذ خطوات عملية، لأنّ له درجات بحسب أفهام الخلق ومقادير احتياجهم له، فمنهم العالم والمتعلِّم والعامِّيّ، وفي كلِّ صِنْفٍ من هؤلاء مراتب متفاوتة في وصفه.

فالواجب على كلّ فَرْدٍ أنْ يُصَحِّح تفكيره، في دائرة ما يحتاجه من الأعمال، تفكيرا يعصمه من الوقوع في مهاوي الأخطاء، فالمقدار الذي يستطيعه من التفكير يجب عليه تصحيح تفكيره فيه، والمقدرا الذي لا يستطيعه يجب عليه تطلب الإعانة فيه بمن يبلغه إلى الحق الصحيح فيه من أهل الارشاد، في ذلك الباب، لقوله الله تعالى: ﴿**فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ**﴾ [النحل: 43].

---

(1) جزء من حديث أخرجه البخاري في: صحيحه ـ كتاب الوضوء ـ باب: ماجاء في غسل البول، (53/1)، برقم: (218)، عن عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ؛ ولفظه عنده بتمامه: « قَالَ: مَرَّ النَّبِيُّ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ بِقَبْرَيْنِ، فَقَالَ: « **إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ، وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ، أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكَانَ لاَ يَسْتَتِرُ مِنَ البَوْلِ، وَأَمَّا الآخَرُ فَكَانَ يَمْشِي بِالنَّمِيمَةِ** »، ثُمَّ أَخَذَ جَرِيدَةً رَطْبَةً، فَشَقَّهَا نِصْفَيْنِ، فَغَرَزَ فِي كُلِّ قَبْرٍ وَاحِدَةً، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لِمَ فَعَلْتَ هَذَا؟، قَالَ: « **لَعَلَّهُ يُخَفِّفُ عَنْهُمَا مَا لَمْ يَيْبَسَا** »؛ ومسلم في: صحيحه ـ كتاب الطهارة ـ باب الدليل على نجاسة البول ووجوب الاستبراء منه، (240/1)، برقم: (292).

(2) الحديث بلفظ أعلاه أخرجه البيهقي في: الاعتقاد، (ص/228)، عن عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ؛ ولفظه بتمامه عنده: « أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ خَطَبَ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ، فَقَالَ: « **إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَئِسَ أَنْ يُعْبَدَ بِأَرْضِكُمْ وَلَكِنَّهُ رَضِيَ أَنْ يُطَاعَ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِمَّا تَحَاقَرُونَ مِنْ أَعْمَالِكُمْ، فَاحْذَرُوا يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنِ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ فَلَنْ تَضِلُّوا أَبَدًا كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ، إِنَّ كُلَّ مُسْلِمٍ أَخُو الْمُسْلِمِ الْمُسْلِمُونَ إِخَوَةٌ، وَلَا يَحِلُّ لِامْرِئٍ مِنْ مَالِ أَخِيهِ إِلَّا مَا أَعْطَاهُ عَنْ طِيبِ نَفْسٍ، وَلَا تَظْلِمُوا وَلَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ** ».

(3) انظر: الطاهر ابن عاشور، أصول النظام الاجتماعي، (ص/52 ـ 53).

فإذا سلك المسلمون هذا السبيل الذي دلّت عليه الآية الكريمة أصبح تفكيرهم سالما، وعلمهم كاملا، لأنَّك تجد كلّ أحدٍ مشتملا على حالتين من التفكير، حال الاستقلال بالفكر فيما يبلغ إليه فكره، وحال التلقي والاسترشاد فيما يتجاوز حدَّ تفكيره.

ويستقرئ الشيخ هنا نواحي إصلاح التفكير على مستوى الأفراد والمجتمعات، وينتهي به إلى ثمان نواحٍ، يهمنا فيها اعتباره العقيدة هي أصل الإسلام، وأنّ التفكير في تلقِّيها ضروريّ، حيث يقول: « فالدعاء إلى تصحيح التفكير فيها تأصيل للتفكير عند المسلم في أوَّل تلقِّيه للإسلام، وقد عاب القرآن عقائد الضالِّين، من المشركين وغيرهم، بإقامة الحجَّة عليهم، وبإظهار ما في مطاوي عقائدهم من انحراف واضطرابٍ وضلالٍ »[1].

1 ـ إقامة الحجة والبرهان:

تحدَّى الله عز وجل الكافرين المنكرين لدينه بإقامة الحجة المقنعة، وطلب البرهان الساطع، دفعا لباطلهم وكفرهم، حيث يقول: ﴿**قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ**﴾ [البقرة: 111]، ويقول: ﴿**قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ**﴾ [الأنبياء: 24] »[2]، ويقول أيضا: ﴿**إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾ [يونس: 68]، وهكذا قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَواهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللَّهِ**﴾ [القصص: 50]، وقوله تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدىً وَلا كِتابٍ مُنِيرٍ**﴾ [الحج: 8]، وغيرها من الآيات القرآنية الكريمة.

2 ـ بيان اضطراب عقائد الضالين:

يتخذ الشيخ الآيات القرآنية الكريمة سندا في بيان اضطراب عقائد هؤلاء الكفرة والضالين وتناقض آرائهم، منها قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ. أَمْواتٌ غَيْرُ أَحْياءٍ**﴾ [النحل: 20]، وقوله تعالى: ﴿**أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلاَّ أَنْ يُهْدى فَما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ**﴾ [يونس: 35]، ﴿**أتعبدون ما تنحتون**﴾ [الصافات: 95]، وقوله تعالى: ﴿**أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ**

(1) الطاهر ابن عاشور، أصول النظام الاجتماعي، (ص/53).

(2) الطاهر بن عاشور، المرجع نفسه والصفحة.

وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: 23]، وقوله تعالى: **﴿سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾** [الصافات: 159]، وقوله تعالى: **﴿لَوْ كانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾** [الأنبياء: 22].

3 ـ الدعوة إلى نبذ التقليد:

الآيات القرآنية الكريمة التي تنعى على هؤلاء التقليد المذموم كثيرة، منها: قوله تعالى: **﴿بَلْ قالُوا إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُهْتَدُونَ وَكَذلِكَ مَا أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قالَ مُتْرَفُوها إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ قالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آباءَكُمْ﴾** [الزخرف: 22 ـ 24] ـ وقوله عز وجل أيضا في ذم أهل مدين: **﴿قالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آباؤُنا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوالِنا ما نَشؤُا إِنَّكَ لَأَنْتَ الحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾** [هود: 87].

4 ـ إظهار التناقض في عقائد الضالين:

وذلك بأعجب أنواع الاستدلال، وأفصح ما يفضح به المقال، مثاله: إظهار تناقض عقائد أهل الكتاب وغلطهم الوارد في قوله تعالى: **﴿وَقالَتِ اليَهُودُ وَالنَّصارى نَحْنُ أَبْناءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ﴾** [المائدة: 18]ـ وكذا في دعوى النصارى ابنا لله تعالى، فردّ الله عليهم باطلهم بقوله تعالى: **﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾** [الزمر: 4].

فأظهر تناقض نسبتهم الولد لله ـ عز وجل ـ، يدل على أنه لم يكن له ولد، وأن الولد من صنعه وفعله، فما بعثه على اتخاذه إلا الحاجة إليه، فإذا كانت الحاجة إلى ذلك هي الداعية، فاصطفاء من يشاء من خلقه يحصل منه ما يقصد له الولد، فما هذا الولد إلا ممن اصطفاه الله، فدلهم على نقائض عقيدتهم، ثم ألزمهم الاعتراف بأن المسيح مصطفى الله بطريق القول بموجب نقائضهم[1].

5 ـ معرفة العقيدة الصحيحة بالدليل:

يرى الشيخ أنّ الاسلام لم يسلك بالمسلمين في دعوته مسلك الآمر الملجئ، بل دعاهم إلى صحة الاعتقاد، وإلى دليله فَكَرَّهَ إليهم طريقة المخطئين، بقوله في فاتحة الكتاب:

(1) انظر: الطاهر ابن عاشور، أصول النظام الاجتماعي، (ص ـ54/55).

﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ. صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ**﴾ [الفَاتِحَة: 6/ 7]، ففيها تنبيه عقول المسلمين إلى الدلائل بصفة تخالف صفة تنبيه المعاندين، إذ ساق لهم الأدلة مساقها للمسترشد المستهدي، كقوله تعالى: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ لَآياتٍ لِأُولِي الأَلْبابِ. الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِياماً وَقُعُوداً وَعَلى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالأَرْضِ رَبَّنا مَا خَلَقْتَ هَذَا باطِلاً سُبْحانَكَ فَقِنا عَذابَ النَّارِ...**﴾ الآيات [آل عمران: 190 ـ 191]، وقوله تعالى: ﴿**إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَالفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي البَحْرِ بِما يَنْفَعُ النَّاسَ وَما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ ماءٍ فَأَحْيا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَبَثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّياحِ وَالسَّحابِ المُسَخَّرِ بَيْنَ السَّماءِ وَالأَرْضِ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ**﴾ [البقرة: 164][1].

(1) الطاهر ابن عاشور، أصول النظام الاجتماعي، (ص/55).

المبحث الثالث

دور العقيدة في إصلاح العمل وإيجاد الوازع النفسي

أصَّلَ علماءُ الشريعةِ قواعدَ كبرى بالغةَ الأهميَّةِ، منها: (**أنّ الوسائل لها حكم المقاصد**)، فإذا صلحت وسائلها صلحت مقاصدها وغاياتها.

ومنها قاعدة: (**أعمال العاملين تجري على حسب معتقداتهم وأفكارهم**)، فجدير بمن صلحت عقائده وأفكاره أن تصدر عنه الأعمال الصالحة.

ولذلك كان أسلوب الإسلام في الأمر بالأعمال الصالحة، والنهي عن أضدادها، أن يبتدئ بإصلاح العقيدة أولا، باعتبار الأساس الذي يبنى عليه كل شيءٍ.

وبناء على ذلك، يستند الشيخ ابن عاشور إلى كتاب الله تعالى وسنة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في بيان دور العقيدة، وكونها المنبع المعين في أي عملية إصلاح، كما يومئ إليه قوله تعالى: ﴿**وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ. فَلَا اقْتَحَمَ العَقَبَةَ. وَمَا أَدْرَاكَ مَا العَقَبَةُ.فَكُّ رَقَبَةٍ. أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ.يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ.أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ.ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا**﴾ [البلد: 10 ـ 17]، فإن حرف ﴿**ثُمَّ**﴾ هنا لترتيب الرتبة في الأخبار، الدالِّ على أنه جدير بالتقديم، أي: بعد كونه من الذين آمنوا؛ وأما من السنة النبوية، فإنّه يورد حديثين واضحي الدلالة على صحة موقفه:

الأول: هو حديث معاذ بن جبل المشهور، حين أرسله إلى اليمن، بقوله: « بعثني رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، إلى اليمن فقال: « **إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ، فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ** »[1].

(1) أخرجه مسلم في: صحيحه ـ كتاب الإيمان ـ باب: الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، (50/1) برقم: (19).

الثاني: حديث أبي عمرة الثقفي حين قال: « قلت يا رسول الله قُلْ في الإسلام قولا لا أسأل عنه أحدا غيرك؟، قال: « **قُلْ آمَنْتُ بِاللهِ، ثُمَّ اسْتَقِمْ** »[1]، فإصلاح العمل هو الاستقامة، كما أن صلاح التفكير هو ما رمز إليه بقوله: « **آمنت بالله** » [2].

فهذان مثالان ذكرهما الشيخ، وهما غيض من فيض، وإلَّا فإنّ أدلَّة القرآن الكريم والسنة المطهرة مملوءان بالأمر بإحسان العمل، وبيان الأعمال الصالحة، وبالوعد على الامتثال، والوعيد على الاقتحام[3].

وتتوضَّح معاني هذا المبحث أكثر من خلال تفصيل الكلام عنه في المطلبين الآتيين:

المطلب الأول: دور العقيدة في صلاح العمل

يوضح الشيخ أنه لا فوز ولا نجاة للإنسان إلَّا بالجمع بين صلاح العقيدة وصلاح العمل بقوله: « والمؤمن هو المصدِّقُ بما يجبُ التصديق به، والمسلم المنقاد إلى مقتضى الإيمان ولا نجاة إلا بمجموع الأمرين » [4]، وهذه النجاة تكون بأشياء عديدة، منها:

أوَّلًا: صلاح الأعمال بصلاح النيات

وهذا المعنى يتكرَّر في مواضع عديدة من كتاب الله تعالى وسنة نبيه ـ عليه الصلاة والسلام ـ، تنبيها على أنَّ مراد الله من عباده إصلاح الأعمال النفسية والبدنية، فامتثال أوامره واجتناب نواهيه[5]، ظاهرا وباطنا، هو المسمى في ديننا وأحكام شريعتنا بـ(**التقوى**)، لتعلّقها بالأعمال القلبية، يدلّ عليها قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: « **التَّقْوَى هَاهُنَا**...

---

(1) سبق تخريج الحديث، (ص/105).

(2) انظر: الطاهر ابن عاشور، أصول النظام الاجتماعي، (ص/63).

(3) انظر: الطاهر ابن عاشور، المصدر نفسه، (ص/64).

(4) الطاهر ابن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (8/27).

(5) الطاهر ابن عاشور، أصول النظام الاجتماعي، (68)؛ يقول أبو إسحاق الشاطبي ـ رحمه الله ـ بيانا لذلك المعنى: « والعمل الواحد يقصد به أمر، فيكون عبادة، ويقصد به شيء آخر، فلا يكون كذلك، بل يقصد به شيء فيكون إيمانا، ويقصد به شيء آخر فيكون كفرا، كالسجود لله أو للصنم »؛ أبو إسحاق الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، (8/3 ـ 9).

»[1]، وأشار رسول الله إلى صدره ثلاث مرات، فالقصر المستفاد من هذا الحديث قصر ادعائيّ، لشدَّة الاهتمام بالتقوى الباطنة.

ويؤكدّها أيضا قوله ـ عليه السلام ـ: « **إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى**... »[2].

ثانيا: إصلاح العمل بين التحذير والتحريض

يبيِّن الشيخ أنَّ مدار صلاح الأعمال مبنيٌّ على مقامين عظيمين، هما:

أ ــ مقام التحذير، مما يفيت المصالح الأكيدة أو يجلب المفاسد للعامل أو لغيره، وهو مقام التقوى.

ب ــ مقام الترغيب في الاستكثار من جلب المصالح، ومن إبطال المفاسد، للعامل ولغيره، وهو مقام التقديس[3].

فصلاح الأعمال بصلاح العقيدة، وهي تبدأ بتزكية النفوس وتطهيرها، وتتمّ بمراقبة الله تعالى، والتفكير في رفع الدرجات، فيحصل من تكرارها آثارها الطيبة، فيصير الخير لها سجية،

---

(1) جزء من حديث أخرجه مسلم في: صحيحه ـ كتاب البرّ والصلة والآداب ـ باب: تحريم ظلم المسلم، وخَذْلِهِ، وَاحْتِقَارِهِ وَدَمِهِ وَعِرْضِهِ وَمَالِهِ، (1986/4) برقم: (2564)، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ؛ ولفظه بتمامه: « قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: « **لَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَنَاجَشُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ، وَلَا يَحْقِرُهُ التَّقْوَى هَاهُنَا» وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ «بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ، دَمُهُ، وَمَالُهُ، وَعِرْضُهُ** ».

(2) سبق تخريجه عند (ص/ 83).

(3) انظر: الطاهر ابن عاشور، أصول النظام الاجتماعي، (68)؛ ومقام التقديس: هو مقام الولاية والقرب ونيل محبة الله عزوجل، التي تنال بالفرائض والنوافل، وإليه يشير نبينا ـ عليه السلام ـ بقوله: « **قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدِ اسْتَحَلَّ مُحَارَبَتِي، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِمِثْلِ أَدَاءِ فَرَائِضِي، وَإِنَّ عَبْدِي لَيَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ عَيْنَهُ الَّتِي يُبْصِرُ بِهَا، وَأُذُنَهُ الَّتِي يَسْمَعُ بِهَا، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَفُؤَادَهُ الَّذِي يَعْقِلُ بِهِ، وَلِسَانَهُ الَّذِي يَنْطِقُ بِهِ، إِنْ دَعَانِي أَجَبْتُهُ وَإِنْ سَأَلَنِي أَعْطَيْتُهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ مِنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ مَوْتِهِ، يَكْرَهُ المَوْتَ وَأَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ** »؛ والحديث أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب الرقاق ـ باب التواضع، (142/13)، برقم: (6502).

ومن هنا كان للعبادات في الإسلام أثرها القويّ في إيجاد هذه المراقبة للنفس، لأنها تشتمل على مذكِّرات نفسانية جليلة، فكل عمل ليس له أثر في ذلك لا يعد عبادة ولا تقوى[1].

المطلب الثاني: إيجاد الوازع النفسي

يعتقد الشيخ أنّ صلاح الاعتقاد لا يحصل إلا بالإيمان بالله تعالى، فهو مبدأ الاعتقادات كلّها، وأصلها العظيم، لأنَّ من لم يؤمن بربٍّ واحدٍ لا يصل إلى الإيمان بالرسول ولا باليوم الآخر.

أولا: الإيمان بالله واليوم الآخر أصل الوازع النفسي

الإيمان باليوم الآخر (البعث والجزاء) ـ عند الشيخ ابن عاشور ـ هو الوازع الحقيقي والباعث على القيام بالأعمال كلّها، لأنّ به عمليا صلاحُ حالِ الإنسان، وهو الذي يغرس في نفسه جذور الإقبال على الأعمال الصالحة، حتى تصير سجية فيه، دون كلفة، ولا حاجة إلى رقيب أو حسيب؛ وإذا غاب هذا الاعتقاد ضعف الوازع، واستباحت النفس المعاصي في الخلوات وانتهكت محارم الله[2].

وتبعا لذلك رتّب الله عز وجل مبدأ الثواب والعقاب، ترغيبا وترهيبا، وترسيخا لفكرة الخوف والرجاء، بل وصرفا لدواعي الشر عن الإنسان، وإليه يشير ربنا عز وجل بقوله: ﴿**فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ**﴾ [الزلزلة: 7 ـ 8]، وقوله تعالى: ﴿**نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الغَفُورُ الرَّحِيمُ. وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ العَذَابُ الأَلِيمُ**﴾ [الحجر:49 ـ 50]، فهذا الأسلوب أفضل سياسة للنفوس، لأنّه يجمع إثارة عَامِلَيْ: (الخشية) و(المحبَّة)، وبدوام مجاهدة النفس يتغلَّب عامل المحبة، لأن المحبَّة تُثْمِرُ الزيادة والنماء، فإذا غلب عامل المحبة صارت الخشية وقارًا، واقتضت الطاعة الاختيارية[3].

---

(1) انظر: الطاهر ابن عاشور، أصول النظام الاجتماعي، (ص/69)؛ وما ذهب إليه الشيخ ابن عاشور يقرره سلطان العلماء العز بن عبد السلام في كتابه: قواعد الأحكام في مصالح الأنام، (72/2)، بقوله: « والمقصود من العبادات كلها: إجلال الإله، وتعظيمه، ومهابته، والتوكل عليه، والتفويض إليه ».

(2) انظر: الطاهر ابن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (262/1 ـ 265).

(3) انظر: الطاهر ابن عاشور، أصول النظام الاجتماعي، (ص/84).

وعليه، فإنّ مبدأ (الخوف) و(الرجاء) يعتبران بمثابة جناحي الطائر، لا يمكن السير إلى الله تعالى إلّا بهما، فللخوف مَزِيَّتُهُ من زجر النفس عما لا يرضي الله، وللرجاء مَزِيَّتُهُ من حثها على ما يرضي الله وكلاهما أنيس السالكين[1].

ثانيا: غرس محبة الله ورسوله في النفوس

محبة الله تعالى ومحبة رسوله أصلٌ ثابتٌ في كتاب الله تعالى وسنة رسوله عليه السلام، دل عليها قوله تعالى: ﴿**قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾ [آل عمران: 31]؛ وقد اهتمّ الشيخ به، لما له من تأثير على النفوس، إذ نفس الإنسان معرّضة للأخطاء، وتضعف بالمعصية، وتتقوى بالطاعة، وليست كالأنبياء والرسل المعصومين عن الوقوع فيها، ولهذا يُطْلَبُ منه التوبةُ إلى الله تعالى والرجوع عن معاصيه بعد الوقوع فيها، مثلما أقلع أصحاب رسول الله عن المعاصي إقلاعا تاما، لأنهم رأوها من شأن الكفر، فلم يرضوا بها مع إيمانهم الكامل[2].

ثالثا: الرضى بحكم الله والتسليم له

الرضا بحكم الله تعالى والتسليم لسائر أحكام شرعه ـ في نظر الشيخ ابن عاشور ـ هو تعزيزٌ للوازع النفساني الفردي، بترجمته وإيجاده في الشؤون الاجتماعية[3]، يؤكده تسليم الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ بحكم الله تعالى ورسوله في مقام الخصومة، المشار إليه في قوله تعالى: ﴿**فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً**﴾ [النساء: 65]، وقوله تعالى: ﴿**وَما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ**﴾ [الأَحْزَاب: 36].

رابعا: التحذير من الشيطان وإغوائه

يتخذ الشيخ من النصوص الشرعية الواردة في التحذير من الشيطان ووساوسه واتباع خطواته، والاستعاذة بالله تعالى من شرّه وإغوائه، فهو المنجي للمؤمن من هذا العدوّ اللعين،

---

(1) انظر: الطاهر ابن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (347/23).

(2) انظر: الطاهر ابن عاشور، أصول النظام الاجتماعي، (ص/86).

(3) الطاهر بن عاشور، المصدر نفسه، (ص/91).

الذي يقعد للإنسان في كلّ مرصد، فيأتيه من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وعن شماله، وهو يجري منه مجرى دمه، ولذلك تكرر التحذير منه في آي القرآن ومنها قوله تعالى: ﴿**وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الكُفْرَ وَالفُسُوقَ وَالعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ**﴾ [الحجرات: 7].

ويكشف الشيخ ـ رحمه الله ـ عن حقيقة الشياطين وكيفية إلقائها للوساوس في قلوب بني آدم بأسلوب بليغ، قلَّما يوجد في كتب التفسير، ويبيِّن ـ في الوقت نفسه ـ كيفية النجاة منه، بقوله: « والاقتداء بالشيطان إرسال النفس على العمل بما يوسوسه لها من الخواطر الشرِّيَّة، فإنَّ الشياطين موجوداتٌ مُدْرَكَةٌ، لها اتِّصال بالنفوس البشرية، لعلّه كاتصال الجاذبية بالأفلاك، والمغناطيس بالحديد، فإذا حصل التوجُّه من أحدهما إلى الآخر بأسباب غير معلومة حدثت في النفس خواطر سيِّئَة، فإنْ أرْسَلَ المكلَّفُ نفسَه لاتِّبَاعِها ولم يردعها بما له من الإرادة والعزيمة حقَّقها في فاعله، وإن كبحها وصدَّها عن ذلك غلبها.

ولذلك أودع الله فينا العقل والإرادة والقدرة، وكمَّل لَنَا ذلك بالهدى الديني، عَوْنًا وعصمةً عن تلبيتها، لِئَلَّا تُضِلَّنَا الخواطر الشيطانية، حتَّى نَرَى حَسَنًا ما ليس بالحَسَنِ، ولهذا جاء في الحديث « **مَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً** »[1]، لأنه لمَّا هَمَّ بها، فذلك حين تسلَّطت عليه القوة الشيطانية، ولمَّا عدل عنها فذلك حين غلب الإرادة الخيرية عليها؛ ومِثْلُ هذا يقالُ في الخواطر الخيرية، وهي الناشئة عن التوجُّهات

(1) أخرجه البخاري في: صحيحه ـ كتاب التوحيد ـ باب: مَنْ هَمَّ بحسنة أو سيئة، (103/8)، برقم: (6491)، عن عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ؛ ولفظه عنده بتمامه: « عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فِيمَا يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ: قَالَ: « **إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ، فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً** »؛ ومسلم في: صحيحه ـ كتاب الإيمان ـ باب إذا هم العبد بحسنة كتبت أو سيئة وإذا هم بسيئة لم تكتب، (118/1)، برقم: (131).

المَلَكِية، فإذا تنازع الداعيان في نفوسنا احتجنا في التغلب إلى الاستعانة بعقولنا وآرائنا وقدرتنا، وهدى الله تعالى إيانا »[1].

رابعا: التوبة تجديد للوازع

يبيِّن الشيخ أن الوازع النفساني قد يضعف في النفوس، بسبب تحريف الإسلام، وَبُعْدِ الناس عن هديه القويم، ومن رحمة الله عزوجل بعباده أن جعل لهم ما يَجْبرُونَ به النَّقْص، وما يرجعون به إلى الأصل، ومنه عدم القنوط من رحمة الله واليأس من رَوْحِه، وإليه الإشارة في قوله تعالى: ﴿**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، إِنَّ اللهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا**﴾ [الزمر: 53] [2].

يقول الشيخ ابن عاشور في تفسيره للآية الكريمة أنّ الله تعالى: « أمر المؤمنين بالتوبة من الذنوب إذا تلبسوا بها، لأنَّ ذلك من إصلاح أنفسهم، بَعْدَ أنْ أُمِرُوا بأن يُجَنِّبُوا أنفسهم وأهليهم ما يزجّ بهم في عذاب النار، لأنَّ اتِّقاء النار يتحقَّق باجتناب ما يرمي بهم فيها، وقد يذهلون عما فرط من سيئاتهم، فَهُدُوا إلى سبيل التوبة التي يَمْحُون بها ما فَرُطَ من سيِّئَاتِهم »[3].

(1) الطاهر ابن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (103/2).

(2) انظر: الطاهر ابن عاشور، أصول النظام الاجتماعي، (ص/88).

(3) الطاهر ابن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (367/28).

الفصل الرابع

أمثلة تطبيقية لبعض مقاصد العقائد

عند الإمام الطاهر بن عاشور

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: المقاصد العامة للشريعة

المبحث الثاني: المقاصد العامة للعقيدة

الفصل الرابع

نماذج تطبيقية للمقاصد العقدية عند الإمام الطاهر بن عاشور

يقرّر العلماء ـ في أغلب الأحيان ـ أنّ المقال يتّضح بضرب المثال، ولا شكّ أنّ مجال مقاصد العقائد مجالٌ خَصْبٌ، وميدانٌ رَحْبٌ، ولا تتبيّن غَايَتُهُ وينكشف الغرض منه إلَّا بعرض نماذج من الأمثلة توضِّحُها، بَعْدَ إعمال منهج الاستقصاء فيها، وذِكْرِ مسائلها على سبيل الإجمال، لا الحصر، لتكون لقضاياها كاشفة، ولغيرها دالَّة، فَيُكْتَفَى ما ظهر منها على سائرها.

وهذا الآن بيان طفيفٌ لبعض النماذج المتعلقة بـ(مقاصد العقائد)، من خلال ما ذكره الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في ثنايا مصنَّفَاته العلمية، وخاصَّة تفسيره الجليل (التحرير والتنوير) وكتابه (أصول النظام الاجتماعي في الاسلام)، الذي يعد بحقّ مرجعا في هذا الشأن.

ويستخدم الشيخ أساليب عدّة، وطُرُقًا شتَّى، في التعبير عن هذه المقاصد، تارة يصرِّح بلفظ (**المقصد من الآية**)، أو (**المقصد من قوله تعالى كذا**)؛ وتارة يبيِّن (**العلَّة**)؛ وتارة أخرى يعبر عنها بـ(**الغرض**)، وكذلك (**الحكمة**)، وفي مواضع يعتمد على (**الإيماء**) و(**الكناية**)، وفي مواضع أخرى يشير إلى أنّ (**الآية سيقت لأجل كذا**)، أو أنّ (**الهدف منها كذا**)، وغيرها من الصِّيَغِ الدالّة على الغرض والمقصد؛ وتنكشف معاني هذا الفصل الهامّ في مبحثين اثنين، هما:

المبحث الأول: المقاصد العامة للشريعة.

المبحث الثاني: المقاصد العامة للعقيدة.

وتفصيلهما يكون على الشكل الآتي:

المبحث الأول

المقاصد العامة للشريعة الإسلامية

يذكر الشيخ في ثنايا كتبه أنّ استقراء موارد الشريعة الإسلامية من الدلائل الكلّيَّة، ومن الجزئيات المستقرأة الدالة على مقاصدها من التشريع، يستخلص منه « أن المقصد العام من التشريع فيها هو حفظ نظام الأُمَّة، واستدامة صلاحه بصلاح المهيمن عليه، وهو نوع الإنسان، ويشمل صلاحه وصلاح عقله، وصلاح عمله، وصلاح ما بين يديه من موجودات العالم الذي يعيش فيه »[1]؛ وبيان هذه القاعدة الكلية ومقصدها العام يتجلى في المطلبين التاليين، وهما:

المطلب الأول: المقصد العام للتشريع

يستدلُّ الشيخ ـ لبيان المقصد العام للتشريع الإسلامي ـ بآيات عديدة من كتاب الله عزّ وجلّ ظاهرة الدلالة على صحَّة موقفه، منها: قوله تعالى ـ حكاية عن سيدنا شعيب عليه السلام، وتنويهًا بدعوة لمَّا بعثه إلى قومه بـ(مَدْيَنَ) لتوحيد الله تعالى، بقوله: ﴿**وَإِلى مَدْيَنَ أَخاهُمْ شُعَيْباً قالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ**﴾ [هود: 84]؛ ثم يبيِّن جهوده في الإصلاح، وبيان بعض أحكام شريعته، ومنها: علاج مشكلاتِ مُجْتَمَعِه وقضايا الفساد فيه على قدر استطاعته ومنتهى قوّته، بقوله حكاية عنه: ﴿**وَلا تَنْقُصُوا المِكْيالَ وَالمِيزانَ إِنِّي أَراكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ. وَيا قَوْمِ أَوْفُوا المِكْيالَ وَالمِيزانَ بِالقِسْطِ وَلا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْياءَهُمْ وَلا تَعْثَوْا فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ. بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَما أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ. قالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آباؤُنا أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوالِنا ما نَشؤُا إِنَّكَ لَأَنْتَ الحَلِيمُ الرَّشِيدُ. قالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً وَما أُرِيدُ أَنْ أُخالِفَكُمْ إِلى مَا أَنْهاكُمْ عَنْهإِنْ أُرِيدُ إِلَّا الإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ**﴾ [هود: 84 ـ 88]، ويكرر المعنى عند قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ**﴾ [الأعراف: 85].

---

(1) الطاهر ابن عاشور، مقاصد الشريعة الاسلامية، (194/3).

وهكذا الشأن فيما يتعلق بسيدنا موسى مع أخيه هارون ـ عليهما السلام ـ حين استخلفه في قومه، حيثُ يقصُّ الله تعالى علينا خبره، بقوله تعالى: ﴿**وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ**﴾ [الأعراف: 142].

ويتكرَّر الأمر معه حين أرسله الله تعالى إلى فرعون بقوله تعالى: ﴿**إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ**﴾ [القصص: 4].

وتبعا لذلك، يبيِّن الشيخ أنّ الصفات المذمومة التي أُجْرِيَتْ على فرعون كلُّها من الفساد القبيح، وأن بعثة موسى كانت لإنقاذ بني إسرائيل منه ومن فساده، فعلمنا أن المراد من الفساد غير الكفر[1]، وإنما هو فساد العمل في الأرض، لأن بني إسرائيل لم يتبعوا فرعون في كفره »[2].

ويحكي تعالى عن سيدنا صالح حين أرسله إلى ثمود، فحذرهم على لسانه من الفساد بقوله عز وجلّ: ﴿**وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ**﴾ [الأعراف: 85].

والمعنى نفسه يذكره ربنا سبحانه وتعالى في خطابه لهذه الأمة بقوله تعالى: ﴿**وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفاً وَطَمَعاً إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [الأعراف: 56]، وينفّر من الإفساد في الأرض بقوله عز وجلّ: ﴿**وَإِذَا تَوَلَّى**

---

(1) يقرر الشيخ في مواضع أخرى أنّ الكفر من أعظم الفساد في الكون، وهو أصل فساد الأعمال، كما بينه هو في كتابه (أصول النظام الاجتماعي)، ففي القرآن الكريم آيات كثيرة ذكر فيها الصلاح في معرض الحثِّ والمدح، وذُكِر فيها الفساد في معرض التحذير والذمِّ، وهي تحتمل أن يراد منهما الإيمان والكفر»؛ وفي موضع آخر من تفسيره، يوضِّح أن الشرك من الفساد، ويستدلّ بقوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ**﴾ [الرعد: 25]، فالمراد بهم المشركون لا محالة، إذ ليس يلزم المفسِّر حمل أيات القرآن الكريم على معنى واحد كما يوهمه صنيع بعض المفسرين؛ انظر: الطاهر ابن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (372/1)؛ وفي موضع آخر يشير إلى أن حصول الخير من الأعمال الصالحة لا يكون إلا مع الإيمان، لأن مفاسد الشرك تفسد ما في الأفعال من الخير، أما في الآخرة فظاهر، وأما في الدنيا فإنّ الشرك يدعو إلى أضداد تلك الفضائل، كما قال الله تعالى: ﴿**وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ**﴾ [هود: 101]، أو يدعو إلى مفاسد لا يظهر معها نفع تلك المصالح؛ المرجع السابق نفسه، (8 ـ ب/ 245 ـ 246).

(2) انظر: الطاهر ابن عاشور، مقاصد الشريعة الاسلامية، (194/3).

سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الفَسَادَ﴾ [البقرة: 205]، ينبئنا عز وجل فيها أن الفساد المحذّر منه هنالك هو إفساد موجودات هذا العالم، وأن الذي أوجد هذا العالم وأوجد فيه قانون بقائه لا يظن فعله ذلك عبثاً، وهو يقول: ﴿**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا**﴾ [المؤمنون: 115] [1].

ومثلها أيضا قوله تعالى: ﴿**فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ. أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ**﴾ [محمد: 22 ـ 23].

فهذه آيات صريحة تدلّ على أنّ مقصد الشريعة هو الإصلاح وإزالة الفساد، في تصاريف أعمال الناس[2].

كما جاءت آيات أخرى دالة بمفهومها على أن صلاح الحال في هذا العالم مِنَّة كُبْرَى يَمُنُّ الله بها على عباده الصالحين، فيقول تعالى: ﴿**وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ. إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ**﴾ [الأنبياء: 105 ـ 106].

ويخاطب المسلمين بقوله: ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ**﴾ [النور: 55]، ويَعِدُهُم بالحياة الطيبة، فيقول: ﴿**مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ ما كانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [النحل: 97].

وامتنّ على بني إسرائيل بإنقاذهم من الأسر الدنيوي، حيث يقول: ﴿**وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ العَالَمِينَ**﴾ [المائدة: 20]، فلولا أن صلاح هذا العالم مقصود للشارع ما امتن به على الصالحين من عباده.

ويخلص الشيخ إلى نتيجة أساسية، هي: « أن المقصد الأعظم من الشريعة هو جلب الصلاح ودرء الفساد، وذلك يحصل بإصلاح حال الإنسان ودفع فساده، فإنّه لمَّا كان هو المهيمن على هذا العالَم كان في صلاحه صلاح العالم وأحواله؛ ولذلك نرى الإسلام عالج

---

(1) الطاهر ابن عاشور، مقاصد الشريعة الاسلامية، (196/3).

(2) انظر: الطاهر ابن عاشور، المصدر نفسه، (195/3).

صلاح الإنسان بصلاح أفراده الذين هم أجزاء نوعه، وبصلاح مجموعه وهو النوع كله، فابتدأ الدعوة بإصلاح الاعتقاد الذي هو إصلاح مبدأ التفكيرالإنساني الذي يسوقه إلى التفكير الحق في أحوال هذا العالم؛ ثمَّ عالج الإنسان بتزكية نفسه وتصفية باطنه، لأنَّ الباطن محرِّك الإنسان إلى الأعمال الصالحة، كما ورد في الحديث: « **أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ القَلْبُ** »[1] [2].

المطلب الثاني: المقاصد الكلية للعقائد

ينبغي لكلّ أُمَّةٍ تريدُ النهوض من سباتها بنفسها، لقيادة العالَم، أن تَبْنِيَ تفكيرها على عقيدة صحيحة سليمة، تُزِيلُ رَوَاسِبَ الجهلِ، وتَنْهَض بأعباءِ الاستخلاف في الأرض، لتُخْرِجَ لَنَا خير أمة أخرجت للناس، كما وصفها ربنا في القرآن الكريم.

وهذه القضية من أهمّ ما اهتمّ به الشيخ في حياته، حاصة حديثه عن العقيدة الصحيحة ومقاصدها أنها صمّام الأمان، ومسَّاك الأُمَّة من التمزُّق والاختلاف، فهي عقيدة « تقبلها العقول المستنيرة، ولا تجافيها الفلسفة الحقّة، ولأجلها كان المسلمون معصومين من الكفر »، ويستشهد بقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في خطبة حجة الوداع: « **إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَئِسَ أَنْ يُعْبَدَ فِي بَلَدِكُمْ هَذَا وَلَكِنَّهُ قَدْ رَضِيَ بِمَا دُونَ ذَلِكَ مِمَّا تُحَقِّرُونَ مِنْ أَعْمَالِكُمْ** »[3].

فالعقيدة عن الشيخ ابن عاشور هي « أساس التفكير، وهي الفكرة الأولى للإنسان فيما هو خارج عن حاجته، فإذا رُبِّيَ العقلُ على صحّة الاعتقاد تَنَزَّهَ عن مخامرة الأوهام الضالَّة، فَشبَّ على سبر الحقائق والمدركات الصحيحة فنبا عن الباطل وتهيأ لقبول التعاليم الصالحة والعمل للحق؛ وإنَّ أُمَّةً ينشأ اعتقاد دينها على هذه الأصول تنشأ لا محالة على عِزَّةٍ

(1) سبق تخريج الحديث عند، (ص/103).

(2) الطاهر ابن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، (1/197 ـ198).

(3) سبق تخريج الحديث عند، (ص/112).

النَّفس، والاهتمام بالاعتماد على استجلاب الأشياء من أسبابها، ورجاء الإعانة والبركة من الخالق، وذلك يُدَرِّبُ على قُوَّة الإرادة والشعور بالرفعة عن التضليل والأوهام »[1].

(1) الطاهر ابن عاشور، أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، (ص50 ـ51) الطاهر ابن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية (197/3).

المبحث الثاني

المقاصد العامة للعقيدة

تبنى العقائد عموما، وأركان الإيمان الستَّة خصوصا، على الاختبار والامتحان قوة عقيدة المؤمن ورسوخ إيمانه في قلبه، بهذه القضايا الكبرى والمسائل الهامة، فهي في مجملها أمور غيبية لا تدركها الحواسُّ، وإنما تسلّم بها القلوب سمعا، كما وردت في كتاب الله تعالى وسنة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

وبسط هذه المسألة المتعلقة بهذا المبحث ينجلي من خلال تفصيل القول فيها في المطلبين الآتيين، وهما:

المطلب الأول: مقصد الإيمان بالغيب

الإيمان بالغيب أصلٌ عظيم من أصول الإيمان، لا يسمى المؤمن مؤمنا إلا به، ومن هنا أثنى الله ـ في بداية سورة البقرة ـ على عباده المؤمنين الذين ترجموه إلى عمل صالح ظهرت آثاره، وأَيْنَعَتْ ثمرَتُه في حياتهم، بقوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ**﴾ [البقرة: 3].

وإليه يشير ابن عاشور ـ في تفسير للآية الكريمة ـ بقوله: « وخصَّ بالذكر الإيمانَ بالغيب دون غيره من متعلَّقات الإيمان، لأنَّ الإيمان بالغيب أي: ما غاب عن الحس هو الأصل في اعتقاد إمكان ما تخبر به الرسل عن وجود الله والعالم العلوي، فإذا آمن به المرء تصدَّى لسماع دعوة الرسول، وللنظر فيما يبلغه عن الله تعالى، فَسَهُلَ عليه إدراكُ الأدلَّة.

وأمَّا من يعتقد أن ليس وراء عالَم المَادِّيَّات عالَم آخَر، وهو ما وراء الطبيعة فقد راض نفسه على الإعراض عن الدعوة إلى الإيمان بوجود الله وعالم الآخرة، كما كان حال الماديين، وهم المسمون بالدهريين، الذين قالوا: ﴿**وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ**﴾ [الجاثية: 24].

وقريب من اعتقادهم اعتقاد المشركين، ولذلك عبدوا الأصنام المُجَسَّمَة، ومعظم العرب كانوا يثبتون من الغيب وجود الخالق، وبعضهم يثبت الملائكة، ولا يؤمنون بسوى ذلك »[1].

المطلب الثاني: مقاصد الإلهيات

يؤصل الشيخ قاعدة هامة في مقاصد العقائد، وهي: « أن الشرائع الإلهية كلها جاءت بالصدق، وتصدَّت لإبطال الإشراك، والتشنيع بحال أهله، والأمر بتوحيد الله وتنزيهه »[2]؛ وشرح هذه الفكرة يحتاج الأمر في بيانها إلى بسط القول فيها بالشكل الآتي:

أوَّلًا: مقصد توحيد الألوهية (العبادة)

إثبات وحدانية الله تعالى واستحقاقه للعبادة والطاعة وحده لا شريك له، مسألة شغلت جميع المؤمنين، فهي من أكبر مسائل أصول الدين، بعث الله تعالى من أجل ترسيخها في عقول وقلوب الناس جميعا جيوشا من الأنبياء والرسل ـ عليهم الصلاة والسلام ـ لبيان أنّ الله هو الإله الحقّ المنزّه عن الحلول وسائر صفات المخلوقين[3]، ومِنْ ثَـمَّ فمن يدعو إلى عبادة غير الله تعالى، فقد نكب عن المنهج السويّ والسبيل القويم، ويصدق عليه قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ**﴾ [الأَنْبِيَاء: 26 ـ 29].

ولأهمية هذه القضية في العقيدة ومقاصدها المفيدة، صرَّف الله سبحانه وتعالى لعباده آياته الكونية والشرعية، ودعاهم إلى التفكر فيها، فإن من مقاصدها تَنْوِيعُهَا باعتبار ما تدلُّ عليه من الغرض المقصود منها، وهو الإقلاع عن الشرك وتكذيب الرسل[4].

وقد أمر سبحانه وتعالى العباد أن يخلصوا له العبادة، ولا يجعلوا لأحدٍ من خلقه حظًّا ولا نصيبا، « فالإخلاص في العمل هو أن يريد المسلم بكلِّ قولٍ وعملٍ من البرِّ وَجْهَ اللهِ، وبذلك يندفع إليه اندفاع العامل لنفسه، لا لإرضاء الناسِّ، فإنَّ العملَ لإرضاء الناس يسمى رِيَّاءً، وهو مشتق من الرؤية، أيْ: ليراه الناس، وهو لا يرجى منه خير، لأنَّه لا يخلو أحد عن

(1) الطاهر ابن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (230/1).

(2) الطاهر ابن عاشور، أصول النظام الاجتماعي، (ص/48).

(3) الطاهر ابن عاشور، المصدر نفسه، (ص/50).

(4) انظر: الطاهر ابن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (54/26).

أن يستطيع التستُّر من الناس، فإذا خلا إلى نفسه ارتكب الموبقات وفتق ما رتقه من أعماله التي دفعه إليها الرياء ولذلك جاء في الحديث: « **الرِّيَاءُ الشِّرْكُ الأَصْغَرُ** » »[1] [2].

كما أمر الله بتوحيده ونهى عن الإشراك به في عدد من آيات القرآن الكريم، ووصفه بالظلم، لأنَّه اعتداءٌ على حقِّه سبحانه وتعالى، بإشراك غيره معه في اعتقاد الإلهية، وفي العبادة، قال تعالى: ﴿**إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾ [لقمان: 13] فهو أكبر الاعتداء[3]، « إذ هو اعتداء على المستحِقِّ المطلق العظيم، لأنَّ من حقِّه أن يُفْرَدَ بالعبادة اعتقادًا وعملًا وقولًا، لأنَّ ذلك حقُّه على مخلوقاته، ففي الحديث: « **حَقَّ اللهِ عَلَى العِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ، وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا** »»[4] [5].

---

(1) حديث صحيح، أخرجه الحاكم في: المستدرك على الصحيحين، (365/4)، برقم: (7937)، عن شداد بن أوس ـ رضي الله عنه ـ؛ ولفظه عنده بتمامه: « «**كُنَّا نَعُدُّ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ أَنَّ الرِّيَاءَ الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ** »؛ ثم قال: « هذا حديثٌ صحيحُ الإسناد، ولم يُخَرِّجَاهُ ».

(2) الطاهر ابن عاشور، أصول النظام الاجتماعي، (ص/71).

(3) هو ـ كما يقول ابن عاشور ـ: « تعليل للنهي عنه وتهويل لأمره، فإنّه ظلم لحقوق الخالق، وظلم المرء لنفسه، إذ يضع نفسه في حضيض العبودية، لأخسِّ الجمادات، وظلمٌ لأهل الإيمان الحقِّ، إذ يبعث على اضطهادهم وأذاهم، وظلمٌ لحقائق الأشياء، بقلبها وإفساد تعلُّقها؛ وهذا من جملة كلام لقمان، كما هو ظاهر السياق، ودلّ عليه الحديث في صحيح مسلم، عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: « لَمَّا نَزَلَتِ ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمانَهُمْ بِظُلْمٍ**...﴾ [الأَنْعَام: 82] شقّ ذلك على أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقالوا: أينا لا يظلم نفسه؟، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: ليس هو كما تظنون، إنَّما هو كما قال لقمان لابنه: ﴿**يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾ [لقمان:13] »؛ الطاهر ابن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (155/21).

(4) أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب الجهاد ـ باب: اسم الفرس والحمار، (29/4)، برقم: (2856)، عن معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ؛ ولفظه عنده بتمامه: قَالَ: « كُنْتُ رِدْفَ النَّبِيِّ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ عَلَى حِمَارٍ يُقَالُ لَهُ عُفَيْرٌ، فَقَالَ: « **يَا مُعَاذُ، هَلْ تَدْرِي حَقَّ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ؟، وَمَا حَقُّ العِبَادِ عَلَى اللَّهِ؟** »، قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: « **فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى العِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقَّ العِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لاَ يُعَذِّبَ مَنْ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا** »، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلاَ أُبَشِّرُ بِهِ النَّاسَ؟، قَالَ: « **لاَ تُبَشِّرْهُمْ، فَيَتَّكِلُوا** »؛ ومسلم في صحيحه ـ كتاب الإيمان ـ باب: الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعًا، (58/1)، برقم: (30).

(5) الطاهر ابن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (332/7).

ومن توحيد الألوهية، أنْ لا يصرف العبد عبادة من العبادات الظاهرة والباطنة، إلّا لله فلا ذبح ولا نذر ولا دعاء ولا استعاذة، ولا توكُّلَ إلَّا على الله عزَّ وجلَّ مصداقا، لقوله تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيايَ وَمَماتِي لِلَّهِ رَبِّ العالَمِينَ**﴾ [الأنعام: 162]، واخترنا لذلك بعض العبادات القَلبية ـ على سبيل المثال، لا الحصر، لبيان مقاصدها الشريفة من كلام الشيخ ـ رحمه الله ـ، منها:

1 ـ مقصد التوكل على الله تعالى

يركّز الشيخ على أنّ (**التوكل**) عملٌ قلبيٌّ[1]، معناه: الاستعانة بالله بعقد القلب على رجاء الإعانة منه تعالى أو بسؤاله مع ذلك بالدعاء باللسان؛ وهو مما يسيء فَهْمَهُ كثيرٌ من الناس[2]، وحاصله ـ عنده ـ: صدق الاعتماد على الله تعالى في تحصيل المرغوب من الدنيا أو الآخرة، برجاء تيسير أسباب نجاح الأعمال، ودفع العوائق المفضية إلى الخيبة.

ولأهميته البالغة أمر الله ربنا عز وجل به في مواضع عديدة من كتابه، وأثنى على المتوكّلين، وأوضحُ آيةٍ في تحقيق معناه وفضله[3]: قوله تعالى: ﴿**وَشاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ المُتَوَكِّلِينَ**﴾ [آل عمرَان: 159].

فإذا حصل هذا الاعتقاد السليم في قلب المؤمن دفعه ذلك إلى « الثقة بالنجاح في ابتداء الأعمال، وهي سرُّ نجاح الأعمال والإقدام على جلائلها، في ابتداء العزم عليها، ولا سيما في الأحوال النادرة التي يضطرُّ إليها في المضايق العامة أو الخاصة، بحيث لا مندوحة

---

(1) انظر تفصيل الطاهر ابن عاشور لهذا المعنى في كتابه: تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (151/4).

(2) يذكر الشيخ ابن عاشور أنّه على الرغم من وضوح مسائل العقيدة وقضاياها، وانتفاع المسلمين، بإدراك كُنْهِهَا عصرًا طويلًا، ومع ذلك فقد اعتراها التحريفُ، وعادت إلى عقائد الجاهلية، فتوهَّموا أنّ (التوكُّل) معناه: الاستسلام والفشل والقعود عن العمل حتّى يسوقَ اللهُ إلى الإنسان آماله عفوا، أو يجعل لسفينة رغائبه البحرَ رَهْوًا، وهذه عقيدة جاهلية يشير إليها ما جاء في صحيح البخاري وكتب التفسير من أنَّ أهل اليمن كانوا يحجُّون بلا زادٍ، ويقولون: كيف نحجُّ بيتَ الله ولا يطعمنا؟!، ويقولون: نحن المتوكِّلُون على الله، ثمَّ يكونون كَلًّا على الناس بالإلْحَاف في السؤال، فنزل فيهم قوله تعالى: ﴿**وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ**﴾ [البَقَرَة: 195]، وقوله: ﴿**وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى**﴾ [البَقَرَة: 197]؛ انظر: الطاهر ابن عاشور، أصول النظام الاجتماعي، (ص/74).

(3) انظر: الطاهر ابن عاشور، أصول النظام الاجتماعي، (ص/73).

عن الإلقاء بالنفس فيها، قال تعالى: ﴿**قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ. وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ. فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ**﴾ [البَقَرَة: 249 /251]، وقال في حقّ المسلمين: ﴿**قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ**﴾ [التَّوْبَة:51] »[1].

ومن أعظم أركان هذه العقيدة بعد اعتماد القلب على الله عزّ وجلّ والأخذ بالأسباب، لقوله تعالى ﴿**وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ**﴾ [آل عمرَان: 122]، يشير الشيخ ـ رحمه الله ـ في تفسيرها إلى أنّ المقصد منها الأمر بالتوكلّ على الله تعالى، لأنّه السبيل في تحقيق نصر الله تعالى، لاستناده على الأسباب العادية، ومنها الاستعداد وأخذ الحيطة، ومراعاة الأسباب النفسانية المرتكزة على تزكية النفس واتباع رضى الله تعالى[2].

والتوكل على الله تعالى من الأسباب الهامة لنيل محبَّته عز وجلّ، يدل عليها قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ**﴾ [آل عمرَان: 159]، فهو ـ حسبما ذكره الشيخ ـ علامة صدق الإيمان، وفيه ملاحظة عظمة الله وقدرته، واعتقاد الحاجة إليه، وعدم الاستغناء عنه وهذا أدب عظيم مع الخالق، يدلُّ على محبة العبد ربه، فلذلك أحبه الله[3].

2 ـ مقصد الدعاء

يشير الشيخ إلى هذا المعنى عند تفسير قوله تعالى: ﴿**وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ [الأَعْرَاف: 56]، حيث يذكر أن المقصود من الآية الكريمة هو تعليم المؤمنين الباعث على الدعاء، وهذا الباعث تنطوي تحته أغراض الدعاء وأنواعه[4].

---

(1) الطاهر ابن عاشور، أصول النظام الاجتماعي، (ص/74).

(2) انظر: الطاهر ابن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (154/4).

(3) انظر: الطاهر ابن عاشور، التحريروالتنوير، (152/4).

(4) الباعث على الدعاء إما: الخوف أو الرجاء، فالدعاء يكون على نوعين: أ ـ (الخوف من غضبه وعقابه)، ب ـ: و(الطمع في رضاه وثوابه)، والدعاء لأجل الخوف نحو الدعاء بالمغفرة، والدعاء لأجل الطمع نحو الدعاء بالتوفيق وبالرحمة، وفي الأمر بالدعاء خوفا وطمعا دليل على أن من حظوظ المكلفين في أعمالهم مراعاة جانب الخوف من

ويبدو واضحا أنّ مقصد الدعاء ـ في نظر الشيخ ـ يشمل (الخوف) و(الطمع)، وجميع ما تتعلق به أغراض المسلمين نحو ربهم، في عاجلهم وآجلهم، ليدعوا الله بأن يُيَسِّرَ لهم أسباب حصول ما يطمعون، وأنْ يُجَنِّبَهُم أسبابَ حصولِ ما يخافون؛ وهذا يقتضي تَوَجُّهَ همّتهم إلى اجتناب المنهيَّات لأجل خوفهم من العقاب، وإلى امتثال المأمورات لأجل الطمع في الثواب، فلا جرم أنه اقتضى الأمر بالإحسان، وهو أن يعبدوا الله عبادة من هو حاضر بين يديه فيستحيي من أن يعصيه، فالتقدير: وادعوه خوفا وطمعا وأحسنوا بقرينة تعقيبه بقوله: إن رحمت الله قريب من المحسنين[1].

3 ـ مقصد الاستعاذة

(الاستعاذة بالله تعالى): هي الالتجاء إليه عز وجلّ والالتصاق بجنابه من شرّ كلِّ ذي شرٍّ، بقولِ المؤمنِ: (**أعوذُ باللهِ من الشيطانِ الرجيم**)، أي: أستجير بجناب الله من الشيطان الرجيم أنْ يَضُرَّنِي في ديني أو دُنْيَايَ، أو يَصُدَّنِي عن فعلِ ما أُمِرْتُ بِهِ، أو يَحُثَّنِي على فعلِ ما نُهِيتُ عنهُ، فإنَّ الشيطانَ لا يَكُفُّهُ عن الإنسانِ إلَّا اللهُ[2].

ومن الطبيعي أنّ يتَّخِذ الشيخ ابن عاشور الآيات القرآنية الكريمة سندًا أصيلا في الالتجاء إلى الله تعالى، والتحصن به من شرّ الشياطين، كما في قوله تعالى: ﴿**إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**﴾ [النَّحْل: 99]، فهو تعليلٌ للأمر بالاستعاذة من الشيطان عند إرادة قراءة القرآن، وبيانٌ لصفة الاستعاذة؛ فأما كونها تعليلا فلزيادة الحثِّ على الامتثال للأمر، بأنَّ الاستعاذة تَمْنَعُ تسَلُّطَ الشيطان على المستعيذ، لأنَّ الله مَنَعَهُ من التسَلُّطِ على الذين آمنوا المتوكلين، والاستعاذة منه شعبة من شعب التوكُّل على

عقاب الله والطمع في ثوابه، وهذا مما طفحت به أدلة الكتاب والسنة؛ انظر: الطاهر ابن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (8 ـ ب/175 ـ 176).

(1) انظر: الطاهر ابن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (8 ـ ب/175 ـ 176).

(2) انظر: ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، الطبعة العلمية، (29/1).

الله، لأن اللُّجْأَ إليه توكُّلٌ عليه، وفي الإعلام بالعلَّة تنشيطٌ للمأمورِ بالفعل على الامتثال، إذ يصير عالِمًا بالحكمة[1].

4 ـ مقصد ذكر الله عز وجل

ذِكْرُ اللهِ تعالى من الموضوعات الهامة التي تضمنها القرآن الكريم في ثنايا سوره وآياته، بل وأكثرَ من الإشارة إليه تصريحا في العديد من المواضع، منها: ﴿**فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ**﴾ [البقرة: 152]، وقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا. وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا. هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا**﴾ [الأَحْزَاب: 41 ـ 43]، ففي هذه الآية الكريمة « تعليل للأمر بذكر الله وتسبيحه، بأنَّ ذلك مجلبةٌ لانتفاع المؤمنين بجزاء الله على ذلك بأفضل منه، من جنسه، وهو صلاته وصلاة ملائكته؛ والمعنى: أنه يصلِّي عليكم وملائكته إذا ذكرتموه ذكرا بكرة وأصيلا[2]؛ ويؤكده قوله ـ عليه السلام ـ في الحديث القدسي: « **فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ** »[3].

ثانيا: مقاصد الإيمان بالربوبية

1 ـ شكر الله عز وجل بالتوحيد وترك الكفر

شكر الله تعالى على نعمه، وإظهار الاحتياج إليه، من أعظم مقاصد الربوبية، ذلك لأنّ الله تعالى هو المدبِّر لأمور الخلق، ومن ثمّ فهو الأحقّ بالعبادة[4]؛ والآيات القرآنية الكريمة

---

(1) انظر: الطاهر ابن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (278/14) وكذلك أنظر مدخل إلى مقاصد الشريعة الدكور احمد الريسوني (ص ـ21/20).

(2) الطاهر ابن عاشور، المصدر نفسه، (49/22).

(3) أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب ـ باب: ﴿ويحذركم الله نفسه﴾، (121/9)، برقم: (7405)، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ؛ ولفظه عنده بتمامه: « قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: « **أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ حِينَ يَذْكُرُنِي، إِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ، ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَإٍ، ذَكَرْتُهُ فِي مَلَإٍ هُمْ خَيْرٌ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ مِنِّي شِبْرًا، تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا، تَقَرَّبْتُ مِنْهُ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً** »؛ ومسلم في صحيحه ـ كتاب الذكر والدعاء، باب الحث على ذكر الله تعالى، (2061/4)، برقم: (2675).

(4) انظر: الطاهر ابن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (326/1).

في هذا الشأن كثيرة، منها: قوله تعالى ﴿**وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الإِنْسَانَ لَكَفُورٌ**﴾ [الحَج: 66]، يقول الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور: « إن الإنسان لكفور يجمع المقصد من تعداد نعم المنعم بجلائل النعم المقتضية انفراده باستحقاق الشكر واعتراف الخلق له بوحدانية الربوبية »[1].

ويكرِّرُه عند قوله تعالى: « ﴿**وَمَا كُنَّا عَنِ الخَلْقِ غَافِلِينَ**﴾ [المؤمنون: 17]، أيْ: « ما كُنَّا عنكم غافلين، لأنَّكم مخلوقاتنا، فنحن نعاملكم بوصف الربوبية، وفي ذلك تنبيه على وجوب الشكر والإقلاع عن الكفر »[2].

2 ـ تنزيه الله عز وجل عن كلّ النقائص

الله تعالى هو المستحق للتنزيه والإجلال، سواء تعلق الأمر بذاته المقدسة، أو أسمائه وصفاته، ومنها إنعامه على الناس بخلقهم في أحسن تقويم، وهدايتهم، ورزقهم لهم، ورزق أنعامهم، وغير ذلك، مما يدلّ على علمه وحكمته وإتقان صنعه، وإنعامه بهداية عباده، وكلّ ما يحقق استقامة حالهم في النفس والجسد[3].

3 ـ تقوى الله عز وجل

تقوى الله تعالى من أهمّ مطالب القرآن الكريم، دلّ عليه عدد كبير من آياته الكريمة، منها على سبيل المثال: قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ**﴾ [الحج: 2]، ففيه إيماء واضح لكلّ المؤمنين بضرورة تحقيق هذه الخاصية في نفوسهم، إذ المستحِقُّ للربوبية حقيق بأنّ يُتَّقَى، لعظمته بالخالقية، فهو سبحانه وتعالى لا يأمر ولا ينهى إلا لرعي مصالح الناس، ودَرْءِ المفاسد عنهم، وكلا الأمرين لا يفيده غير وصف (**الرَّبِّ**)، وتنزيهه عز وجلّ عن كلّ النقائص، وفي مقدمة ذلك تنزيهه عن الشركاء، باعتقاد وحدانيته في الإلهية[4].

4 ـ المراقبة

---

(1) الطاهر ابن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد ، (326/17).

(2) الطاهر ابن عاشور، المصدر نفسه، (28/18).

(3) الطاهر ابن عاشور، المصدر نفسه، (274/30).

(4) الطاهر ابن عاشور، المصدر نفسه، (186/17).

مراقبة الله عز وجل من المسائل المهمة التي يذكرها ربنا في القرآن الكريم، ومنها: قوله تعالى﴿**رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا**﴾ [الإسراء: 25]، يقول: « ربكم أعلم بما في نفوسكم ما يشمل جميع أحوال النفوس، وخاصة حالة التفريط، وبوادر المخالفة، وهذا من رحمة الله تعالى بخلقه؛ وقد جمعت هذه الآية مع إيجازها تيسيرا بعد تعسير، مشوبا بتضييق وتحذير، ليكون المسلم على نفسه رقيبًا »[1].

5 ـ الإحاطة علمًا بجميع الأشياء

وهذا الأمر من المواضيع التي يتكرَّر إيرادها في القرآن الكريم، منها قوله تعالى: ﴿**لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ**﴾ [البقرة: 284]، حيث يقول الشيخ: « أن الناس قد علموا أنّ الله رب السموات والأرض، وخالق الخلق، فإذا كان في السموات والأرض لله، مخلوقا له، لزم أن يكون جميع ذلك معلوما له، لأنَّه مكوِّن ضمائرهم وخواطرهم، وعموم علمه تعالى بأحوال مخلوقاته من تمام معنى الخالقية والربوبية، لأنَّه لو خَفِيَ عليه شيء لكان العبد في حالة اختفاء حاله عن علم الله، مستقِلًّا عن خالقه »[2].

ثالثا: مقاصد الإيمان بأسماء الله تعالى وصفاته الله

يبيِّن الشيخ أن صفات الله عزّ وجلّ داخلة في مسمى الإيمان به، ومن مقاصد ذلك أنها « تكملة لإصلاح الاعتقاد، لأنّ تصور الإله موصوفا بصفات غير كاملة يُفِيتُ المقصودَ من إثبات وجوده ووحدانيته، لأنَّه إذا كان موجودا ولم يكن كاملا كان وجوده قريبا من العدم، فالحاجة إلى تقرير ما يجب على المؤمن من معرفته مع اعتقاد عموم علمه وقدرته على ما يريد حاجة أكيدة »[3].

أ) ـ دعاء الله تعالى بأسمائه وصفاته

يعتمد الشيخ هذا المعنى في حياته كلها، امتثالا لأوامر الله تعالى وتوجيهاته في كلامه العزيز، الداعية إلى دعائه وحده وسؤاله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، كما في قوله تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا**

(1) الطاهر ابن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (75/15).
(2) الطاهر ابن عاشور، المصدر نفسه ، (129/3).
(3) الطاهر ابن عاشور، أصول النظام الاجتماعي، (ص/49).

يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: 180]، وعليه يوضّح الشيخ المقصد من هذا الخطاب في الآية الكريمة، وأنَّه مما يختصّ به أهل الإيمان، فتوسُّطه في خلال مَذَامِّ المشركين، لمناسبةِ أنَّ أفظعَ أحوالِ المعدودين لجهنَّم هو حال إشراكهم بالله غيره، لأنَّ في ذلك إبطالًا لأخصّ الصفات بمعنى الإلهية، وهي صفة الوحدانية وما في معناها من الصفات، نحو (الفرد)، (الصمد)، وينضوي تحت الشرك تعطيل صفات كثيرة مثل: (الباعث)، (الحسيب)، و(المعيد)، ونشأ عن عناد أهل الشرك إنكار صفة الرحمن.

فعقَّبت الآيات التي وَصَفَتْ ضلالَ إشراكِهِم بتنبيهِ المسلمين، للإقبال على دعاء الله بأسمائه، الدالَّةِ على عظيم صفات الإلهية، والدَّوامِ على ذلك، وأنْ يَعْرِضُوا عن شَغَبِ المشركين، وجدالهم في أسماء الله تعالى »[1].

ب) ـ التخلق بأسماء الله تعالى وصفاته

من مقاصد الإيمان بأسماء الله وصفاته التخلُّقُ بها، لقوله تعالى: ﴿**فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ**﴾ [البَقَرَة: 109] يبين الشيخ أن الآية فيها تَعْلِيم لِلْمُسْلِمِينَ فضيلة العفو، لأنَّ الله قدير على كل شيء، وهو الذي يعفو ويصفح، يعضددها قوله ـ عليه السلام ـ: « **لَا أَحَدَ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى يَسْمَعُهُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يَدَّعُونَ لَهُ نِدًّا وَهُوَ يَرْزُقُهُمْ** »[2]، أو أراد أنَّه على كل شيء قدير، فلو شاء لأهلكهم الآن، ولكنَّه لحكمته أمركم بالعفو عنهم، وكلّ ذلك يرجع إلى الائْتِسَاء بصنع الله تعالى، وقد قيل: إن الحكمة كلها هي التَّشَبُّهُ بالخالق بقدر الطاقة البشرية[3].

---

(1) الطاهر ابن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (185/9)؛ ولمزيد من التفصيل والمعرفة في بيان معنى الإحصاء المتعلق بأسماء الله الحسنى انظر: القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (327/7) ؛ ابن القيم الجوزية، بدائع الفوائد (164/1).

(2) أخرجه مسلم في صحيحه ـ كتاب ـ باب: لا أحد أصبر على أذى من الله عز وجل، (2160/4)، برقم: (2804)، عن أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ؛ ولفظه عنده بتمامه: « قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: « **لَا أَحَدَ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى يَسْمَعُهُ مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، إِنَّهُ يُشْرَكُ بِهِ، وَيُجْعَلُ لَهُ الوَلَدُ، ثُمَّ هُوَ يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ** ».

(3) انظر: الطاهر ابن عاشور، التحريروالتنوير، (671/1)؛ وتجدر الإفادة هنا إلى أنّ شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم الدوزية ينقلان عن الإمام المازري وغيره إنكاره على أبي حامد الغزالي ـ رحمه الله ـ لفظة (التخلق)، ويفضّلان عليها لفظة (التعبُّد)، فهي الأولى في الاستعمال، لورودها في القرآن الكريم؛ انظر: الصفدية،

وفي موضع آخر يقول: « وجملة ﴿**إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ**﴾ [فاطر: 8] تصلح لإفادة التصبر والتحلم، أي أن الله عليم بصنعهم في المخالفة عن أمره فكما أنه لحلمه لم يعجل بمؤاخذتهم فكن أنت مؤتسيا بالله ومتخلقا بما تستطيعه من صفاته»[1].

وهكذا الأمر عند قوله تعالى: ﴿**وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ**﴾ [التغابن: 11]، حيث يقول: هو « إيماء إلى الأمر بالثبات والصبر عند حلول المصائب، لأنَّه يلزم من هدي الله قلب المؤمن عند المصيبة ترغيب المؤمنين في الثبات، والتصبر عند حلول المصائب، فلذلك ذَيَّلَ بجملة ﴿**وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ [التغابن: 11]...، وفيه كناية عن مجازاة الصابرين بالثواب لأن فائدة علم الله التي تهم الناس هو التخلق ورجاء الثواب ورفع الدرجات »[2].

ج ـ نماذج للتخلّق ببعض صفات الله تعالى:

وفيما يلي ذِكْرٌ لبعض صفات الله عز وجل، وما اشتملت عليه من الفوائد:

1 ـ صفة المعية، الواردة في قوله تعالى: « ﴿**إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾ [البقرة: 153]، حيث يبيِّن الشيخ كيفية التخلق بها، وأنها تذييل فِي معنى التعليل، أي: اصبروا ليكون اللّه معكم، لأنَّه مع الصابرين[3].

2 ـ صفة المغفرة، فقد أمرنا الله تعالى بالاستغفار، ورغّبنا فيه، وحرّضنا عليه، ووعدنا بالاستجابة، لأنّه كثير المغفرة، شديد الرحمة[4].

3 ـ صفة المحبة، وهي أنْ يعلمَ العبدُ أنَّ الله يحب المحسنين، وأنّ محبة الله لعبده المؤمن سبب الصلاح والخير، دنيا وآخرة، ولهذا يرغّبه في الإحسان، لأن محبته غاية ما يطلبه الناس[5].

(338/2)؛ بدائع الفوائد (164/1)؛ وأما الشنقيطي فإنّه يعبر عنها بـ(التخلق بحسن صفاتها)، كالحلم والعفو والرأفة والرحمة والكرم، ونحو ذلك ؛ انظر: أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، (74/8).

(1) الطاهر ابن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (266/22 ـ 267).

(2) الطاهر ابن عاشور، المصدر نفسه ، (280/28).

(3) انظر: الطاهر ابن عاشور، المصدر نفسه ، (53/2).

(4) انظر: الطاهر ابن عاشور، المصدر نفسه ، (290/29).

(5) انظر: الطاهر ابن عاشور، المصدر نفسه ، (216/2).

4 ـ صفة الإبصار، وهي أنْ يعلمَ العبد اطلاع الله عليه، وهو كناية عن عدم إضاعة جزاء المحسن والمسيء، لأنَّ العليمَ القديرَ إذا عَلِمَ شيئًا فهو يرتِّبُ عليه ما يَنَاسِبُهُ، إذ لا يُذْهِلُهُ جهلٌ، ولا يُعْوِزُهُ عَجْزٌ، وفي هذا وعد لهم، يتضمَّن وعيدا لغيرهم، لأنَّه إذا كان بصيرًا بما يعمل المسلمون كان بصيرا بما يعمل غيرهم[1].

5 ـ صفة الرحمة، فرحمته عز وجلّ بالمؤمنين تشمل إسداءَ النفع إليهم، وإيصال الخير لهم، بالأقوال والأفعال والألطاف[2].

د ـ مفاسد تعطيل صفات الله عز وجل

تعطيل العمل بصفات الله عز وجل من المفاسد التي يحذّر منها الشيخ، إذ يقول: « وأما الخطأ في صفات الله تعالى فهو ما يعرض للعقائد الدينية التي صحَّتْ أصُولُها، وأهلُها وإن كانوا قد آمنوا بوجود الله وتقديسه، هم خلطوا ذلك بإثبات صفات للهِ لا تُنَاسِبُ قُدْسِيَّتَهُ، كما قال الله تعالى: ﴿**وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ**﴾ [الزمر: 67]، فهم يأخذون من الإشراك بنصيب، إذ ليس الإشراك إلَّا خطأ في أعظم صفات لا تليق بالله تعالى، يستلزم نفي أضدادها التي هي كمالات، وإنَّ إثباتَ إلَهٍ مُتَّصِفٍ بغيرِ صفاتِ الإلَهِ بمنزلةِ نَفْيِ ذلك الموصوف »[3].

رابعا: مقاصد الإيمان بالقضاء والقدر

الإيمان بالقضاء والقدر وقع بعض الخلط فيه عند بعض الطوائف الإسلامية، لذلك كان لا بد من بيان المعنى الحقيقي لهذين اللفظين، للتوصل إلى الفهم السليم لهذا الركن العظيم من أركان الإيمان وتفصيل ذلك في الصفحات التالية:

أ ـ المفهوم الصحيح للقضاء والقدر:

يعرِّف الشيخ ـ رحمه الله ـ مصطلح (**القضاء**) شرعا بقوله أنه: « حكم الله بحصول الأشياء، أو حصول أحوالها، أو بإيجاد الاستطاعات أو سلبها، ليترتَّب عليها حدوث الأفعال أو تركها، وهو من تعلُّقَات إرادة الله »؛ ويعرف (**القَدَر**) بقوله: أنه « تقدير الله جميع

(1) انظر: الطاهر ابن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (672/1).
(2) انظر: المصدر نفسه ، (50/22).
(3) الطاهر ابن عاشور، أصول النظام الاجتماعي، (ص/48).

الاشياء وما يتعلق بها من أحوالها تقديرا في الأزل على حدود لا تتجاوزها وقت ظهورها وهو راجع إلى معنى العلم والإرادة »[1].

وهذان المفهومان غير متعارضين عند الشيخ، بل هما متكاملان، فلا يمكن الفصل بينهما إطلاقا، لتلازمهما، يؤكده قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: « **كُلُّ شَيْءٍ بِقَضَاءٍ وَقَدَرٍ** »[2] فإنّ معناه: « أنَّ كلَّ شيءٍ يقع بتقدير الله عند وقوعه، ويَقَعُ على نَحْوِ ما عَلِمَ اللهُ أنْ يَقَعَ، وما أراد أن يقع من قبل وقوعه[3].

ب ـ عزاء للمؤمن عند حلول المصائب

التخلُّق بِخُلُقِ الصبر عند حلول المصائب من محض الإيمان بالقضاء والقدر، يدل عليه قوله تعالى: ﴿**قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ**﴾ [التَّوْبَة: 51]، يقول الشيخ في تفسير هذه الآية الكريمة: « وفيه تعليم للمسلمين التخلق بهذا الخلق: وهو أن لا يحزنوا لما يصيبهم، لئلَّا يَهِنُوا وتذهب قُوَّتُهُم، كما قال تعالى: ﴿**وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ**﴾ [آل عمران: 139 ـ 140]، وأن يرضوا بما قدر الله لهم، ويرجوا رضى ربِّهم، لأنهم واثقون بأن الله يريد نصر دينه..، أي: لا يصيبنا إلا ما قدره الله

---

(1) انظر: الطاهر ابن عاشور، أصول النظام الاجتماعي، (ص/75).

(2) جزء من حديث ضعيف، أخرجه الطبراني في: المعجم الأوسط، (147/6)، برقم: (6046)، عن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ؛ ولفظه عنده بتمامه: « قَالَ: تَمَارَوْا بَيْنَ يَدَيِ النَّبِيِّ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ فِي الْقَدَرِ، فَكَرِهَهُ كَرَاهِيَةً شَدِيدَةً، حَتَّى كَأَنَّمَا فُقِئَ فِي وَجْهِهِ حَبُّ الرُّمَّانِ، فَقَالَ: «فِيمَ أَنْتُمْ؟» قَالُوا: تَمَارَيْنَا فِي الْقَدَرِ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَالَ: «**كُلُّ شَيْءٍ بِقَضَاءٍ وَقَدَرٍ، وَلَوْ هَذِهِ** »، وَضَرَبَ بِأُصْبُعِهِ السَّبَّابَةَ عَلَى حَبْلِ ذِرَاعِهِ الْآخَرِ »، ثم قال: « لَمْ يَرْوِ مَجْزَأَةُ أَبُو أُسَيْدٍ الثَّقَفِيُّ عَنْ ثَابِتٍ الْبُنَانِيِّ إِلَّا هَذَا الحَدِيثَ، تَفَرَّدَ بِهِ وَلَدُهُ »؛ والهيثمي في: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، (208/7)، برقم: (11897)، ثم قال: « رواه الطبرانيُّ، وفيه عليُّ بن يزيدَ الألهانيُّ، وهو ضعيفٌ »؛ وقد أخرجه مسلم في: صحيحه ـ كتاب ـ باب: كل شيء بقدر، (2045/4)، برقم: (2655)، عن طاوُسٍ؛ ولفظه عنده بتمامه: « قَالَ: أَدْرَكْتُ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ يَقُولُونَ: كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ، قَالَ: وَسَمِعْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: «**كُلُّ شَيْءٍ بِقَدَرٍ، حَتَّى العَجْزِ وَالكَيْسِ، أَوِ الكَيْسِ وَالعَجْزِ** ».

(3) ما ذهب إليه الشيخ، هو ما قرره أهل السنة والجماعة، فقد نقله الإمام أبو الوليد الباجي عن الإمامين عبد الرحمن بن مهدي ويحي بن سعيد؛ انظر: الطاهر ابن عاشور، أصول النظام الاجتماعي، (ص/75).

لنا، ولنا الرجاء بأنه لا يكتب لنا إلا ما فيه خيرنا، العاجل أو الآجل، لأن المولى لا يرضى لمولاه الخزي » [1].

فهو أدب إسلامي من أعظم الآداب، « موقعه عند الأحوال التي يغلب المسلم فيها على سعيه، فيخيب فيه أو عند الحوادث الخارجة عن مقدرة الإنسان، فمن الأدب الديني أن يرضى بذلك، ولا يجزع، وهو ضرب من الصبر، مُعَلَّلٌ باعتقادِ أنَّ قدرةَ الله أكبر من كلِّ مقدرة، فعدم تيسُّر المسبب مع السعي في الأسباب بدون تقصير يدلُّ على أنَّ الله لم تتعلَّق إرادته بحصوله، لأنَّه علم أنه غير كائن، فذلك معنى قوله في الحديث: « **كُلُّ شَيْءٍ بِقَضَاءٍ وَقَدَرٍ** »[2]، ونعم هو للرجل المسلم في حياته بحيث يكون مطمئن البال عند المصائب، متأدِّبًا مع ربِّه، مُلْتَفِتًا إلى ما عسى أن يأتي من اليُسْرِ بعد العسر، والفرج بعد الشدة.

فالرضى بالقضاء والقدر سلوة وعزاء للمؤمن لكي يذهب حرج نفسه عقب الخيبة أو عند حلول المصيبة فهو أدب خاص بنفس المؤمن » [3].

ج ـ الأخذ بالأسباب مع التوكل على الله:

أَخْذُ المؤمنِ بالأسباب ـ بعد التوكُّلِ على الله ـ لتحصيل المطلوب وموافقة المأمول من مقاصد الإيمان بالقضاء والقدر، « لأنَّ قدر الله تعالى وقضاءه غير معلومين لَنَا، إلَّا بعد الوقوع، فنحن مأمورون بالسعي فيما عساه أن يكون كاشفا عن مصادفة قدر الله لمأمولنا، فإن استفرغنا جهودنا وحرمنا المأمول، علمنا أن قدر الله جرى من قبل على خلاف مرادنا؛ فأما ترك الأسباب فليس من شأننا، وهو مخالف لما أراد الله منا، وإعراض عما أقامنا الله فيه في هذا العالم وهو تحريف لمعنى القدر »[4].

إن هذا الفهم الصحيح للقضاء والقدر والعلم بحكمة الله في ما قضى وقدر « يُرَوِّضُ أصحابه على الاعتداد بمقدرتهم، ويُعَلِّمهم الافتقار إلى الله في طلب التوفيق والعصمة من الخذلان، فينشأ في نفوس أهل هذا الاعتقاد عاملان، لابدَّ منهما في استقامة أعمال

---

(1) الطاهر ابن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (223/10) ـ بتصرّف يسير.

(2) سبق تخريجه عند (ص/).

(3) الطاهر ابن عاشور، أصول النظام الاجتماعي، (ص/76).

(4) الطاهر ابن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (138/4).

الإنسان، وهما: السعي للكمال بقواه وأفعاله؛ وتطلُّب الكمال فيما يتجاوز قوَّته من واهب القوى ومفيض السعادة سبحانه، فيكون صاحب هذا الاعتقاد مُقْبِلًا على دنياه، ساعيا لأخراه، مُتَذَلِّلًا للذي سَوَّاهُ، ولذلك كان هذا الاعتقاد مضمنا في فاتحة الكتاب: ﴿**إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ. اهْدِنَا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ**﴾ [الفَاتِحَة: 5 ـ 6]، وعندي أن تحريف المسلمين فيه، هو الذي ورطهم فيما يعسر تلافيه »[1].

وليس الإيمان بالقضاء والقدر « عذرا يتعذر به المقصر عند تقصيره أو المستسلم في فشله، ألا ترى أن الله تعالى أنكر على الكفار في اعتذارهم عن عبادة الأصنام بقوله: ﴿**وَقالُوا لَوْ شاءَ الرَّحْمنُ مَا عَبَدْناهُمْ مَا لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ**﴾ [الزخرف ـ 20] »[2].

ولجهل المسلمين بأمور دينهم أساؤوا استعمال هذا الركن المتعلِّق بالأدب الرباني قديما وحديثا، وهو الذي يشير إليه الشيخ بقوله: « وقد عرض لبعض المسلمين تَوَهُّمٌ في هذا الشأن في زمن عمر بن الخطاب، وذلك أن عمر سافر إلى (الشام)، فلما بلغ (عمواس) وجد الطاعون قد تفشَّى بها، فأمر القوم بالرجوع، فجاءه أبو عبيدة بن الجراح، وقال له: « **أَفِرَارًا مِنْ قَدَرِ اللَّهِ؟** »، فَقَالَ عُمَرُ: « **لَوْ غَيْرُكَ قَالَهَا يَا أَبَا عُبَيْدَةَ؟، نَعَمْ نَفِرُّ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ إِلَى قَدَرِ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ إِبِلٌ هَبَطَتْ وَادِيًا لَهُ عُدْوَتَانِ، إِحْدَاهُمَا خَصِبَةٌ، وَالأُخْرَى جَدْبَةٌ، أَلَيْسَ إِنْ رَعَيْتَ الخَصْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ اللَّهِ، وَإِنْ رَعَيْتَ الجَدْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ اللَّهِ؟!** »[3].

---

(1) الطاهر ابن عاشور، أصول النظام الاجتماعي، (ص ـ68/67).

(2) الطاهر ابن عاشور، المصدر نفسه ، (ص/75).

(3) جزء من حديث أخرجه البخاري في: صحيحه ـ كتاب ـ باب: ما يذكر في الطاعون، (130/7)، برقم: (5729)، عن عبد الله بن عباس ـ رضي الله عنه ـ؛ ولفظه عنده بتمامه: « أَنَّ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ ـ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ـ خَرَجَ إِلَى الشَّأْمِ، حَتَّى إِذَا كَانَ بِسَرْغَ لَقِيَهُ أُمَرَاءُ الأَجْنَادِ، أَبُوعُبَيْدَةَ بْنُ الجَرَّاحِ وَأَصْحَابُهُ، فَأَخْبَرُوهُ أَنَّ الوَبَاءَ قَدْ وَقَعَ بِأَرْضِ الشَّأْمِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَقَالَ عُمَرُ: ادْعُ لِي المهَاجِرِينَ الأَوَّلِينَ، فَدَعَاهُمْ فَاسْتَشَارَهُمْ، وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ الوَبَاءَ قَدْ وَقَعَ بِالشَّأْمِ، فَاخْتَلَفُوا، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: قَدْ خَرَجْتَ لِأَمْرٍ، وَلاَ نَرَى أَنْ تَرْجِعَ عَنْهُ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَعَكَ بَقِيَّةُ النَّاسِ وَأَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلاَ نَرَى أَنْ تُقْدِمَهُمْ عَلَى هَذَا الوَبَاءِ، فَقَالَ: ارْتَفِعُوا عَنِّي، ثُمَّ قَالَ: ادْعُوا لِي الأَنْصَارَ، فَدَعَوْتُهُمْ فَاسْتَشَارَهُمْ، فَسَلَكُوا سَبِيلَ المهَاجِرِينَ، وَاخْتَلَفُوا كَاخْتِلاَفِهِمْ، فَقَالَ: ارْتَفِعُوا عَنِّي، ثُمَّ قَالَ: ادْعُ لِي مَنْ كَانَ هَا هُنَا مِنْ مَشْيَخَةِ قُرَيْشٍ مِنْ مُهَاجِرَةِ الفَتْحِ، فَدَعَوْتُهُمْ، فَلَمْ يَخْتَلِفْ مِنْهُمْ عَلَيْهِ

فكما جعل التوكل على الله أدبا في ابتداء الأعمال، جعلَ الرضى بالقدر أدبًا عند نهاية الأعمال، وقد وضع بعض المسلمين هذين الأدبين في غير موضعهما، فلم يحسنوا الانتفاع بهما »[1].

المطلب الثالث: مقاصد النبوات (الملائكة، الكتب، الرسل)

تعتبر مسائل النبوة والرسالة من أهمّ أبواب العقيدة الإسلامية، خاصة ما يتعلق منها بالإيمان بالملائكة الكرام، والأنبياء والرسل ـ عليه الصلاة والسلام، والكتب السماوية المنزَّلة عليهم؛ ويمكنني أن أعرض هذا المطلب الهامّ في العناصر الآتية:

أوَّلًا: مقصد الإيمان بالملائكة

يمكن تلمّس هذا المقصد عند تفسير الشيخ ـ رحمه الله ـ لقوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ**﴾ [الأَعْرَاف: 206]، حيث يبيِّن المقصد من ذكر الملائكة في مقام ذكر الله تعالى، مشيرا إلى أنّ هذه الآية الكريمة تتنزَّل منزلةَ العلَّةِ للأمر بذكره تعالى، والحثّ على تكرُّرِهِ في مختلف الأحوال، لأنَّ المسلمين مأمورون بالاقتداء بأهل الكمال من الملأ الأعلى، وفيها تعريض بالمشركين المستكبرين عن عبادة الله بأنهم منحطون عن تلك الدرجات، لأنّ التشبه بالملائكة من حيث كان الملائكة أسبق في هذا المعنى، لكونه حاصلا منهم بالجبِلَّة، فَهُمْ مَثَلٌ فيه، ولا شُبْهَةَ في أنَّ الفريق الذين لم يكونوا مجبولين على ما جُبِلَتْ عليه الملائكة، إذا تخلَّقوا بمثل خلق الملائكة، كان سمُوُّهُم إلى

رَجُلاَنِ، فَقَالُوا: نَرَى أَنْ تَرْجِعَ بِالنَّاسِ وَلاَ تُقْدِمَهُمْ عَلَى هَذَا الوَبَاءِ، فَنَادَى عُمَرُ فِي النَّاسِ: إِنِّي مُصَبِّحٌ عَلَى ظَهْرٍ فَأَصْبِحُوا عَلَيْهِ. قَالَ أَبُوعُبَيْدَةَ بْنُ الجَرَّاحِ: أَفِرَارًا مِنْ قَدَرِ اللَّهِ؟ فَقَالَ عُمَرُ: لَوْ غَيْرُكَ قَالَهَا يَا أَبَا عُبَيْدَةَ؟، نَعَمْ نَفِرُّ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ إِلَى قَدَرِ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ إِبِلٌ هَبَطَتْ وَادِيًا لَهُ عُدْوَتَانِ، إِحْدَاهُمَا خَصِبَةٌ، وَالأُخْرَى جَدْبَةٌ، أَلَيْسَ إِنْ رَعَيْتَ الخَصْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ اللَّهِ، وَإِنْ رَعَيْتَ الجَدْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ اللَّهِ؟ قَالَ: فَجَاءَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ ـ وَكَانَ مُتَغَيِّبًا فِي بَعْضِ حَاجَتِهِ – فَقَالَ: إِنَّ عِنْدِي فِي هَذَا عِلْمًا، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: « إِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ فَلاَ تَقْدَمُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلاَ تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ »، قَالَ: فَحَمِدَ اللَّهَ عُمَرُ ثُمَّ انْصَرَفَ »؛ ومسلم في صحيحه ـ كتاب السلام ـ باب: الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها، (1740/4)، برقم: (2219).

(1) الطاهر ابن عاشور، أصول النظام الاجتماعي، (ص/75 ـ 76).

تلك المرتبة أعْجَبُ، واستِحْقَاقُهُم الشُّكْرَ والفضلَ له أجدر، من رفعة منزلتهم، فيتذرع بذلك إلى إيجاد المنافسة في التخلق بأحوالهم[1].

ثانيا: الإيمان بالكتب السماوية

1 ـ المقصد العام من إنزال الكتب:

يبيِّن الشيخ المقصد من إنزال الكتب في عدَّة مواضع، منها قوله تعالى: ﴿**تَنْزِيلُ الكِتَابِ مِنَ اللَّهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ. إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ بِالحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ**﴾ [الزمر: 1 ـ 2]، فيذكر أنّ إنزال الوحي من السماء هو حياةٌ للقلوب، وهو من أجلّ نِعَمِ اللهِ على رُسُلِهِ خاصَّة، وعلى خلقه عامَّة، ولذلك أمرهم سبحانه بأن يقابلوا هذه النعمة الجليلة « بالشكر بإفراده بالعبادة، وإيماء إلى أن إشراك المشركين بالله غيره في العبادة كفر لنعمه التي أنعم بها، فإن الشكر صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه فيما خلق لأجله، وفي العبادة تحقيق هذا المعنى قال تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاّ لِيَعْبُدُونِ**﴾ [الذاريات: 56] »[2].

وصلاح الناس والخروج بهم من الظلمات إلى النور، وهدايتهم إلى طرق الخير وسبل الصلاح، في العاجل والآجل، هو من أفضل مقاصد إنزال الكتب وإرسال الرسل والأنبياء ـ عليهم السلام ـ[3]؛ بل هو المقصد العامَّ من الشرائع كلّها، ومن هنا ندرك السرّ الحقيقي في كون القرآن الكريم ناسخًا لِمَا قبله من الكتب، وشريعته ناسخة للشرائع كلها[4].

---

(1) انظر: الطاهر ابن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد ، (243/9).

(2) الطاهر ابن عاشور، المصدر نفسه ، (316/23).

(3) انظر: الطاهر ابن عاشور، المصدر نفسه، (612/1).

(4) يشير الشيخ ابن عاشور إلى تميّز القرآن الكريم عن غيره من الكتب والشرائع، فيقول: « فإذا وجدنا أن الله قد وصف الكتب المنزلة قبل القرآن بأوصاف الهدى وسمّاها ديناً في قوله: ﴿**يَاأَهْلَ الكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ**﴾ [النِّسَاء: 171] يعني شريعة موسى، وقال: ﴿**شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا**﴾ [الشورى: 13] إلى قوله: ﴿**أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ**﴾ [الشورى: 13]، وسمَّاها شرائع في قوله: ﴿**لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً**﴾ [المائِدَة: 48]، وعلمنا أنه وصف القرآن بأنه أفضلُها، أيقنا بأن القرآن هو أفضل الهدى وأعلاه. قال الله تعالى: ﴿**إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ**﴾ [المائدة: 44]، ثم قال: ﴿**وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ**﴾ [المائِدَة: 46]، ثم قال: ﴿**وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ**

2 ـ المقاصد من إنزال القرآن الكريم

أ ـ إصلاح الأمة

القرآن الكريم هو آخر الكتب المنزَّلة لهداية الخَلْق، فهو أكملها وأحكمها، وبه « إصلاحُ الأمَّة بأسرها، فإصلاح كُفَّارِها بدعوتِهم إلى الإيمان، ونَبْذِ العبادة الضالَّة، واتِّباع الإيمان والإسلام، وإصلاح المؤمنين، بتقويم أخلاقهم، وتثبيتهم على هداهم، وإرشادهم إلى طرق النجاح، وتزكية نفوسهم، ولذلك كانت أغراضه مرتبطة بأحوال المجتمع في مدَّة الدعوة، فكانت آيات القرآن مستقلا بعضها عن بعض، لأنَّ كلّ آية منه ترجع إلى غرض الإصلاح والاستدلال عليه، وتكميله وتخليصه من تسرُّب الضلالات إليه، فلم يلزم أن تكون آياته متسلسلة، ولكن حال القرآن كحال الخطيب، يتطرَّق إلى معالجة الأحوال الحاضرة على اختلافها، وينتقل من حالٍ إلى حالٍ بالمناسبة، ولذلك تكثر في القرآن الجُمَل المعترضة، لأسباب اقتضت نزولها، أو بدون ذلك، فإنَّ كل جملة تشتمل على حكمة وإرشاد، أو تقويمِ مُعْوَجٍّ »[1].

ب ـ كونه شفاء وهدى ورحمة

يبيِّن الشيخ ـ رحمه الله ـ أثر القرآن الكريم على النفوس، مثلما هو جَلِيٌّ في قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ**﴾ [يونس: 57]، ففيه وصف للقرآن بكونه شفاء للأمراض البدنية والروحية معا، لقوة تأثيره في القلوب والعقول، فحال المرء في صحته يتميّز عن حال المعتلّ السقيم الذي تغيَّرَ نظامُ مِزَاجِهِ عن حالةِ الاستقامة، فأصبح مضطرب الأحوال، خائر القوى، فهو يترقَّب الطبيب الذي يدبِّر له بالشفاء، ولابدّ للطبيب من موعظة للمريض، يحذِّرُه بها مما هو سبب نشء علّته ودوامها، ثم ينعت له الدواءَ الذي به شفاؤُه من العلَّة، ثم

بِالحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائِدَة: 48]، فوصفه بوصفين: تصديق ما بين يديه من الكتاب، أعني: تقرير ما جاء به التوراة والإنجيل من التشريع الذي لم ينسخه القرآن، وكونه مهيمناً على ما بين يديه من الكتاب، وذلك فيما نُسخ من أحكام التوراة والإنجيل، وفيما جاء به من أصول الشريعة التي خلا منها التوراة والإنجيل. فهو مهيمن، أي: شاهد وقيم على الكتب السالفة »؛ انظر: مقاصد الشريعة الإسلامية (35/3 ـ36).

(1) الطاهر ابن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (81/1).

يصف له النظام الذي ينبغي له سُلُوكهُ، لتدوم له الصحَّة والسلامة، ولا ينتكس له المرض، فإن هو انتصح بنصائح الطبيب أصبح معافًى، سليمًا، وَحَيِيَ حياةً طَيِّبَةً، لا يَعْتَوِرُهُ أَلَمٌ، ولا يشتكي وَصَبًا.

وعليه، فإنّ زواجرَ القرآن ومواعِظَه تُشَبَّهُ بِنُصْحِ الطَّبِيبِ، وإبطَالَه العقائدَ الضالَّةَ يُشَبَّهُ بِنَعْتِ الدواءِ، للشفاء من المضارِّ، وتعالِيمَهُ الدينية، وآدَابَهُ تُشَبَّهُ بقواعدِ حفظِ الصحِّة، وعبر عنها بـ(الهدى)، ورحمته للعالمين تُشَبَّهُ بالعيش في سلامةٍ[1].

ج ـ إقامة الحجة على الخلق

إقامة الحجة على الخلق أمرٌ وَرَدَ ذِكْرُهُ في القرآن الكريم، مثاله: قوله تعالى: ﴿**وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ. أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ. أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِي الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ العَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ**﴾ [الأنعام: 155 ـ 157].

يقول الشيخ ـ رحمه الله ـ عند تعرّضه للآية الكريمة في تفسيره ـ: « والمقام يدلُّ على أن هذا القول كان باعثا على إنزال هذا الكتاب...، ويؤول المعنى إلى أن إنزال الكتاب فيه حِكَمٌ، منها: حكمةُ قَطْعِ مَعْذِرَتِهم، بأنهم لم يُنَزَّلْ إليهم كتابٌ، أو كراهيةَ أَنْ يقولوا ذلك، أو لِتَجَنُّبِ أنْ يقولوه »[2].

د ـ إخراج الناس من الظلمات إلى النور

---

(1) يذكر الشيخ ابن عاشور أيضا في سياق كلامه: أنَّ ذلك يتضمن تشبيه شأن باعث القرآن بالطبيب العليم بالأدواء وأدويتها، ويقوم من ذلك تشبيه هيئة تلقي الناس للقرآن وانتفاعهم به، ومعالجة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إياهم، بتكرير النصح والإرشاد، بهيئة المرضى بين يدي الطبيب، وهو يصف لهم ما فيه برؤهم، وصلاح أمزجتهم؛ فمنهم القابل المنتفع؛ ومنهم المتعاصي الممتنع؛ فالأوصاف الثلاثة الأول ثابتة للقرآن في ذاته، سواء في ذلك مَنْ قَبِلَهَا، وعمِلَ بها، ومن أعْرَضَ عنها ونبذها، إلا أنَّ وصفه بكونه (هدى) للمبالغة، بحيث كأنَّه نفس الهدى، كان الأنسب أن يراد به حصول الهدى به بالفعل، فيكون وصفه بالرحمة، بعد ذلك خاصّا بمن عمل بمقتضى الأوصاف الثلاثة الأولى، فانتفع بها، فكان القرآن رحمة له في الدنيا والآخرة؛ انظر: الطاهر ابن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (202/11).

(2) الطاهر ابن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (8-أ/179).

إنّ إنزال الكتب السماوية غايته إخراج الناس من الظلمات إلى النور، بإذن الله عزّ وجلّ، يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿**كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلى صِراطِ العَزِيزِ الحَمِيدِ**﴾ [إبراهيم: 1].

فإسناد الإخراج إلى النبي[1] ـ عليه الصلاة والسلام ـ في الآية الكريمة باعتباره المبلِّغ للكتاب، المشتمل على تبيين طرق الهداية فيه إلى الإيمان بالله، وإظهار فساد الشرك والكفر، وهو مع التبليغ يبيِّن للنَّاس ويقرِّب إليهم معاني كلام الله، بتفسيره وكشف أسراره، ثم بما يَبْنِيهِ عليه من المواعِظ والنُّذُرِ والبِشَارة.

وتعليل الإنزال بالإخراج من الظلمات يدلُّ على أنَّ الهداية هي مرادُ الله تعالى من الناس، وأنَّه لم يتركهم في ضلالهم، فمن اهتدى فبإرشاد الله، ومن ضلَّ فبإيثارِ الضَّالِّ هَوَى نفسه على دلائل الإرشاد، وأَمْرُ اللهِ لا يكونُ إلَّا لحِكَمٍ ومصالِحَ، بعضها أكبَرُ من بعض[2].

هـ ـ النجاة والعصمة في الدنيا والآخرة

اللجوء إلى القرآن الكريم والسنَّة النبوية المطهرة عصمةٌ ونجاة لكلّ مؤمن، يَدُلُّ عليه قول النبيّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ: « **تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ أَخَذْتُم بِهِ لَنْ تَضِلُّوا كِتَاب اللهِ وَسُنَّتِي** »[3].

فهما ـ حسبما يذكره الشيخ ـ الأصل الأعظم والأساس المتين، في إرشاد الناس للخير، والإنابة إلى الله تعالى، وتعهّدُ النفس وتذكيرها بالموعظة والإقبال على الله تعالى[4]، وعلى

---

(1) أُسْنِد الإخراجُ إلى النبي ـ عليه السلام ـ في سياق تعليل إنزال الكتاب إليه، ومِنْ ثَمَّ يُعْلَمُ أنَّ إخْرَاجَهُ إيَّاهُم من الظلمات بسبب هذا الكتاب المنزَّل وما يشتمل عليه من معاني الهداية؛ انظر: الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير، (180/13).

(2) انظر: الطاهر ابن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد ، (180/13).

(3) الحديث بلفظه أعلاه لم أقف عليه، وإنما أخرجه الحاكم بلفظ قريب منه في: المستدرك على الصحيحين، (172/1)، برقم: (319)، عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ؛ ولفظه عنده بتمامه: « قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: « **إِنِّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ شَيْئَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُمَا: كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّتِي، وَلَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الحَوْضَ** »؛ والبيهقي في: السنن الكبرى، (195/10)، برقم: (20337)؛ وصححه الألباني في: صحيح الجامع الصغير وزيادته، (566/1)، برقم: (2936).

(4) انظر: الطاهر ابن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (394/27).

كلامه العزيز وسنّة نبيه الكريم لا يتمّ إلا بهما، فهما المفزع عند الشدائد، والعصمة عند هجوم دواعي الغواية والشهوات، بل هما المَفْزَعُ الحقيقي لكل المؤمنين[1].

و ـ البشارة والنذارة

الآيات القرآنية في هذا الشأن كثيرة جدًّا، منها: ما يستند إليه الشيخ في بيان هذا المقصد منهما، كما في قوله تعالى: ﴿**إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ**﴾ [الدُّخان: 3]، فيشير إلى أنّ هذه الآية الكريمة جاءت تعليلا لجملة: ﴿**إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ**﴾ [الدخان: 3]، أي: أنزلناه للإنذار، لأنَّ الإنذار شأن من شؤون الله عز وجلّ، فمضمون الجملة علَّة العلَّة وهو إيجاز، وإنما اقتصر على وصف ﴿**مُنْذِرِينَ**﴾، مع أنَّ القرآن (مُنْذِرٌ) و(مُبَشِّرٌ)، اهتماما بالإنذار، لأنَّه مقتضى حال جمهور الناس يومئذٍ، والإنذار يقتضي التبشير لمن انتذر[2].

3 ـ مقصد إنزال القرآن باللغة العربية

اختار ربنا عز وجل إنزال القرآن الكريم بلسان عربي مبين كما جاء التصريح به في عدة مواضع من كتابه المبين ، كما في قوله تعالى: ﴿**وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ**﴾ [فصلت: 44]، فيبين الشيخ أن « في إنزاله بالعربية حكمة علمها الله، فإن الله لما اصطفى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عربيا، وبعثه بين أمَّة عربية كان أحقّ اللغات بأن ينزل بها كتابه إليه العربية، إذ لو نزل كتابه بغير العربية لاستوت لغات الأمم كلّها في استحقاق نزول الكتاب بها، فأوقع ذلك تحاسدا بينها، لأنَّ بينهم من سوابق الحوادث في التاريخ ما يثير الغيرة والتحاسد بينهم،

---

(1) يؤيّد الشيخ هذا المعنى أيضا: بما ورده عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ في قوله: « **مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الهُدَى وَالعِلْمِ، كَمَثَلِ الغَيْثِ الكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ، قَبِلَتِ المَاءَ، فَأَنْبَتَتِ الكَلَأَ وَالعُشْبَ الكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ، أَمْسَكَتِ المَاءَ، فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لاَ تُمْسِكُ مَاءً وَلاَ تُنْبِتُ كَلَأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللَّهِ، وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ** »؛ والحديث أخرجه البخاري في صحيحه ـ كتاب العلم ـ باب: فضل من علم وعلمّ، (27/1)، برقم: (79)؛ ومسلم في: صحيحه ـ كتاب الفضائل ـ باب: بيان مثل ما بعث به النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الهدى والعلم، (1787/4)، برقم: (2282).

(2) انظر: الطاهر ابن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (279/25).

بخلاف العرب، إذ كانوا في عزلة عن بقية الأمم، فلا جرم رجحت العربية، لأنها لغة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولغة القوم المرسل بينهم، فلا يستقيم أن يبقى القوم الذين يدعوهم لا يفقهون الكتاب المنزل إليهم.

ولو تعددت الكتب بعدد اللغات لفاتت معجزة البلاغة الخاصة بالعربية، لأنّ العربية أشرف اللغات، وأعلاها خصائص وفصاحة، وحسن أداء للمعاني الكثيرة بالألفاظ الوجيزة؛ ثمّ العرب هم الذين يتولون نشر هذا الدين بين الأمم وتبيين معاني القرآن لهم »[1].

4 ـ مقصد نسخ شريعة بشريعة أخرى

إبلاغ البشر إلى الغاية التي خلقوا لها، وحفظ نظام عالمهم، وضبط تصرفاتهم فيه على وجه لا يَعْتَوِرُهُ خللٌ، هو مراد الله تعالى من تشريع الأحكام للناس منذ النشأة إلى ختم الرسالة بنبينا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ، من ثمّ كان لابدّ من بيان المقصد من نسخ كلّ الشرائع بعد مجيء شريعة الإسلام، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿**شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنا إِلَيْكَ وَما وَصَّيْنا بِهِ إِبْراهِيمَ وَمُوسى وَعِيسى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ**...﴾ الآية [الشورى: 13].

وإنما اختلفت الشرائع في تفاريع أصولها اختلافًا مراعًى فيه مبلغ طاقة البشر، لطفًا من الله تعالى بالناس، ورحمة منه بهم، حتى في حملهم على مصالحهم، ليكون تلقيهم لذلك أسهل، وعملُهُم به أدْوَمَ، إلى أن جاءت شريعة الإسلام في وقت قارب فيه البشر مبلغ الرشد العقلي، وجاءهم دين تناسب أحكامه وأصوله استعدادهم الفكري، وإنْ تخالفت الأعصار وتباعدت الأقطار، فكان دينا عاما لجميع البشر، فلا جرم أن كانت الشرائع السابقة تمهيدا له، لِتُهَيِّءَ البشرَ لقبول تعاليمه التي هي غاية مراد الله تعالى من الناس، ولذا قال تعالى: ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ**﴾ [آل عمرَان:19].

فما من شريعة سلفت إلا وهي حلقة من سلسلة جُعِلَتْ وَصْلَةً للعروة الوثقى، التي لا انفصام لها، وهي عروة الإسلام، فمتى بلغها الناسُ بلغوا المراد، ومتى انقطعوا في أثناء بعض الحلق فقد قطعوا ما أراد الله وصله، فاليهود لما زعموا أنهم لا يحلُّ لهم العدول عن شريعة

(1) الطاهر ابن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (313/24).

التوراة قد قطعوا ما أمر الله به أن يوصل، ففرقوا مجتمعه، فحقّ عليهم قوله تعالى: ﴿**أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ**﴾ [البقرة: 12].

ومن الفساد في الأرض عكوف قوم على دينٍ قد اضمحلَّ وقت العمل به، وأصبح غير صالح لِمَا أرادَ اللهُ من البشر، فإن الله ما جعل شريعة من الشرائع خاصة وقابلة للنسخ إلا وقد أراد منها إصلاح طائفةٍ من البشرِ، مُعَيَّنَة في مدَّةٍ معينة في علمه، وما نسخ دينا إلا لتمام وقت صلوحيته للعمل به، فالتصميم على عدم تلقي الناسخ وعلى ملازمة المنسوخ هو عمل بما لم يبق فيه صلاح للبشر، فيصير ذلك فسادا في الأرض، لأنه كمداواة المريض بدواء كان وصف له في حالة تبدلت من أحوال مرضه، حتى أتى دين الإسلام عاما دائما، لأنّه صالح للكل[1].

ثالثا: مقاصد الإيمان بالرسل

1 ـ الدعوة إلى التوحيد بالبشارة والنذارة، وهي إحدى حِكَم إرسال الأنبياء والرسل ـ عليهم السلام ـ، وإليها الإشارة بقوله تعالى: ﴿**إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا. لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا**﴾ [الفتح: 8 ـ 9]، يُبَيِّن الشيخ في تفسيره للآية الكريمة حكمة الله تعالى في إرساله نبينا محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ، ومركِّزًا على الأوصاف الثلاث المذكورة، وهي: كونه (شاهدا)، و(مبشرا)، و(نذيرا)، وقدَّم منها وصف (الشاهد) لأنَّه يتفرَّع عنه الوصفان بعده؛ فلا يُعْذَرُ المخالفون عن شريعته فيما خالفوا فيه، لأنّها شَاهِدَةٌ على الأمم، في الدنيا وفي يوم القيامة، ويترتب على تبليغه إيَّاهم كونه مبشرا للمطيعين، ونذيرا للعاصين[2].

والمعنى نفسه يكرِّرُه عند تفسير قوله تعالى: ﴿**كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الكِتَابَ بِالحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ البَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**﴾ [البقرَة: 213]، حيث يشير إلى مذاهب العلماء في كون الناس أمة واحدة؛ فمن العلماء

(1) انظر: الطاهر ابن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (371/1 ـ372).
(2) الطاهر ابن عاشور، المصدر نفسه، (155/26).

من ذهب إلى أنهم كانوا أمة واحدة على التوحيد، فاختلفوا، فجاءتهم الرسل لإرجاعهم إلى التوحيد؛ ومنهم من ذهب إلى بيان ذكر الحكمة والمقصد من إرسال الرسل، وهو المعنى الذي يذكره الشيخ بقوله: « وإن كان المراد من كون الناس أمة واحدة الوحدة في الضلال والكفر، يكون الله قد نبَّهَهُم أن بعثة الرسل تقع لأجل إزالة الكفر والضلال الذي يحدث في قرون الجهالة، فكذلك انتهت تلك القرون إلى القرن الذي أعقبته بعثة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

ومن هنا تُعْلَمُ العلة الحقيقية من بعثة الرسل أنَّ الناس كانوا أمة واحدة، فجاءتهم الرسل بالترغيب والترهيب، والوعد والوعيد، ليدوموا على الحقّ، خشية انصرافهم عنه إذا ابتدأ الاختلاف يظهر، وأيَّدَهُم اللهُ بالكُتُب ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، فلا جرم أن يكون مجيء الرُّسُلِ لأجل إبطال هذا الاختلاف الناشئ بعد الاتفاق على الحق.

والمقصود من الآية على هذا الوجه التنبيه على أنَّ التوحيد والهدى والصلاح هي الفطرة التي فطر الله الناس عليها حين خلقهم، دلّ عليها قوله عز وجل: ﴿**أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ**﴾ [الأعراف ـ 172] ، وأنها ما غشاها إلا تلقين الضلال وترويج الباطل، وأنَّ الله بعث النبيئين لإصلاح الفطرة إصلاحا جزئيا، فكان هَدْيُهُمْ مُخْتَلِف الأساليب، على حسب اختلاف المصالح والأهلية وشدة الشكائم، فكان من الأنبياء الميسِّر؛ ومنهم المغلِّظ؛ وأنه بعث محمدا لإكمال ذلك الإصلاح، وإعادة الناس إلى الوحدة على الخير والهدى، وذلك معنى قوله: ﴿**فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ**...﴾ الآية [البقرة: 213].

وعليه، المقصود من الآية الكريمة ـ على هذا التأويل ـ: إظهار أنَّ ما بعث الله به النبيئين قد وقع فيه التغيير والاختلاف فيما بُعِثُوا به، وأنَّ اللهَ بعثَ محمَّدًا بالقرآن الكريم لإرشادهم إلى ما اختلفوا فيه[1].

وخلاصة القول أنّ الإنذار والهدى متلازمان، فما من إنذار إلا وهو هداية؛ وما من هداية إلا وفيها إنذار، فالهداية أعمُّ من الإنذار[2].

---

(1) انظر: الطاهر ابن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (301/2)؛ وفي هذا السياق يوضّح الشيخ ضرورة إبطال ضلالات البشر، فهي مما ينبغي تحذير البشر من الوقوع فيها، انظر: (309/2).

(2) الطاهر ابن عاشور، المصدر نفسه، (95/13).

2 ـ العمل بتعاليم الأنبياء والرسل، حيث يبين الشيخ أنَّ المقصد من إرسال الرسل وإنزال الكتب وتوجيه الشرائع أمرٌ عظيم، ألا وهو العمل، وليس ذلك مجرَّد قرع الأسماع بعبارات التشريع، أو التذوق لدقائق تراكيبه، بل مراد الله تعالى مما شرع للناس هو عَمَلُهُم بتعاليم رسله وكتبه، لأنها مناسبة لقابليات المخاطبين بها، وجارية على قدر قبول عقولهم ومقدرتهم، ليتمكنوا من العمل بها بدوام وانتظام[1].

وصلاح الناس لا يتحقَّق إلَّا بتحريضهم على اتباع الرسل والأنبياء ـ عليهم السلام ـ لأنّ الفائدة ترجع لهم، وإليها أشار سيدنا شعيب ـ عليه السلام ـ بقوله: ﴿**وَما أُرِيدُ أَنْ أُخالِفَكُمْ إِلى مَا أَنْهاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ**﴾ [هود: 88]، أي: لا خوف عليهم من عقوبة الله في الدنيا والآخرة ولا هم يحزنون من شيء[2].

3 ـ إقامة الحجة على الخلق، وإليها الإشارة في قوله تعالى: ﴿**رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ**﴾ [النساء:165]، فقطع الله تعالى عذر البشر إذا سئلوا عن جرائم أعمالهم، واستحقوا غضب الله وعقابه، فَعُلِمَ مِنْ هذا أنَّ للناس قبل إرسال الرسل حجة إلى الله أن يقولوا: ﴿**لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آياتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [القصص: 47].

والحجة إنما تقابل محاولة عمل ما، فلما بعث الله الرسل لقطع الحجة علمنا أن الله حين بعث الرسل كان بصدد أن يؤاخذ المبعوث إليهم، فاقتضت رحمته أن يقطع حجتهم ببعثة الرسل وإرشادهم وإنذارهم، ولذلك جعل قطع الحجة علة غائية للتبشير والإنذار: إذ التبشير والإنذار إنما يبينان عواقب الأعمال، ولذلك لم يعلل بعثة الرسل بالتنبيه إلى ما يرضي الله وما يسخطه[3].

4 ـ تعليم الناس فضائل النبوة، ولهذا اهتمت شريعتنا بتمجّيد مقام الأنبياء والرسل ـ عليهم السلام ـ، وتعليم المسلمين أنّ هاته الفئة الطيّبة ـ مع عظيم شأنها ـ قد فضَّلَ اللهُ بعضها على بعض، لأسباب لا يعلمها إلا هو، وهي ترجع إلى ما جرى على أيديهم من

---

(1) انظر: الطاهر ابن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (190/3).

(2) انظر: الطاهر ابن عاشور، المصدر نفسه، (8-ب/109).

(3) انظر: الطاهر ابن عاشور، المصدر نفسه، (39/6).

الخيرات المُصْلِحَة للبشر، ومِنْ نَصْرِ الحقِّ، وما لقوه من الأذى في سبيل ذلك، وما أُيِّدُوا به من الشرائع العظيمة[1].

وقد ورد في القرآن عدة آيات تُنَوِّهُ بمناقبهم وفضائلهم، كقوله تعالى: ﴿**تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجاتٍ وَآتَيْنا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّناتِ وَأَيَّدْناهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ**﴾ [البقرة: 253]، وكذا السنة النبوية الشريفة، ومنها: قول النَّبِي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: « **أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرَ**... »[2]، أي: أقوله لقصد الإعلام بواجب التقادير، لا لقصد الفخر على الناس، ويعلموا واجب طاعته »[3].

ويدخل في الإيمان بالرسل والكتب: الإيمانُ بمعجزات الأنبياء والرسل، لأنها من مقاصدها الدلالة على صدقهم، وهي قائمة مقام قول اللَّه: (صَدَقَ هَذَا الرَّسُولُ فِيمَا أَخْبَرَ بِهِ عَنِّي، بِأَمَارَة أَنِّي أَخْرِقُ العَادَةَ دَلِيلًا عَلَى تَصْدِيقِهِ[4].

ويُنَزِّلُ مُنْكِرُوا المعجزات منزلة عدمِ الإيمان بالله، لأنَّ مكابرة المعجزات، القائمة مقام تصديق الله تعالى للرسول المتحدي بها يؤول إلى تكذيب الله تعالى في ذلك التصديق، فذلك المكابر غير مؤمن بالله الإيمان الحق[5].

---

(1) انظر: الطاهر ابن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد ، (6/3).

(2) جزء من حديث أخرجه ابن ماجة في: سننه ـ كتاب الزهد ـ باب: ذكر الشفاعة، (1440/2)، برقم: (4308)، عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ؛ ولفظه عنده بتمامه: « قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ: « **أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ، وَلَا فَخْرَ، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ الْأَرْضُ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا فَخْرَ، وَأَنَا أَوَّلُ شَافِعٍ، وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ، وَلَا فَخْرَ، وَلِوَاءُ الحَمْدِ بِيَدِي يَوْمَ القِيَامَةِ، وَلَا فَخْرَ** »؛ وأخرجه الحاكم مختصرا في: المستدرك على الصحيحين، (660/2)، عن جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ـ رضي الله عنه ـ؛ ولفظه عنده بتمامه: « قَالَ: صَعِدَ رَسُولُ اللَّهِ ـ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ـ عَلَى المِنْبَرِ، فَحَمِدَ اللَّهَ، وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: « مَنْ أَنَا؟» قُلْنَا: رَسُولُ اللَّهِ، قَالَ: « نَعَمْ، وَلَكِنْ مَنْ أَنَا؟ »، قُلْنَا: أَنْتَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ، قَالَ: « **أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرَ** »؛ ثم قال: « هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ ».

(3) الطاهر ابن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (236/19).

(4) انظر: الطاهر ابن عاشور، المصدر نفسه، (8-أ/54).

(5) انظر: الطاهر ابن عاشور، المصدر نفسه، (539/1).

المطلب الرابع: مقاصد الإيمان بالسمعيات

تعتبر السمعيات من الأبواب الهامة في العقيدة الإسلامية، خاصة ما يتعلق بمسألة الإيمان باليوم الآخر، فهو ركن من أركان الإيمان، ويسمى الإيمان بالمعاد والحشر والنشر، وحقيقة الموت والجزاء والحساب، والصراط والجنة والنار وغيرها من المسائل، وبيان بعضها كالآتي:

1 ـ مقصد الإيمان بالموت:

الموت أوّل منزلٍ من منازل الآخرة، كم جاء في نصوص السنَّة المطهرة، وقد نال اهتمام الشيخ، حيث يبيّن حقيقته بأنّه مفارقة الروح للبدن، وهو أمر جليل ينطوي على حِكَمٍ وَأَغْرَاضٍ، وإليها يشير بقوله: « إذ لا فائدة تحصل من تفريق ذينك الإلفين لولا غَرَضٌ سَامٍ، وهو وضعُ كلِّ روحٍ فيما يليق بها من عالَمِ الخلود، جزاءً على الأعمال، ولذلك أوثر لفظ غير ﴿**مَدِينِينَ**﴾ دون أن يقال: (**غَيْرَ مَبْعُوثِينَ**)، أو (**غير معادين**)، وإن كان لا يلزم من نفي الإدانة نفي البعث فإنه يجوز أن يكون بعث بلا جزاء لكن ذلك لا يدعى، لأنَّه عبثٌ.

وفي هذا إشارة إلى حكمة الموت بالنسبة للإنسان، وهي تخليص الأرواح من هذه الحياة الزائلة المملوءة باطلا، إلى الحياة الأبدية الحقَّة، التي تجري فيها أحوال الأرواح على ما يناسب سلوكها في الحياة الدنيا، يدل عليها قوله تعالى: ﴿**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ**﴾ [المؤمنون: 115]، فيقتضي أنه لولا أنكم مدينون لما انتزعنا الأرواح من أجسادها بعد أن جعلناها فيها ولأبقيناها، لأنّ الروح الإنساني ليس كالروح الحيواني[1].

2 ـ مقصد الإيمان باليوم الآخر والبعث والحساب

الإيمان باليوم الآخر ركنٌ من أركان الإيمان، وله ارتباط وثيق بالأركان الأخرى، وقد أثنى الله على عباده المؤمنين في أوائل سورة البقرة، وذكر من الأوصاف الحميدة التي اتصفوا بها إيمانهم باليوم الآخر، فهو « ملاك التقوى والخشية التي جُعِلُوا موصوفين بها، لأنَّ هذه الأوصاف كلَّها جارية على ما أجمله الوصف بـ(المتقين)، فإنَّ اليقين بدار الثواب والعقاب هو الذي يوجب الحذر والفكرة فيما ينجي النفس من العقاب وينعمها بالثواب، وذلك الذي

(1) انظر: الطاهر ابن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (346/27).

ساقهم إلى الإيمان بالنبيّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ »[1]؛ وبسط القول في هذه القضية يكون على الشكل الآتي:

أ ـ مقصد الإيمان بالبعث:

قرن الله سبحانه وتعالى الإيمان بالبعث على الإيمان به وتوحيده، لبيان عظمة هذين الركنين، والمقصد منهما، فهما الأصل في إبطال عقيدة المشركين، والتمهيد الأساسي لوجه التَّلَازم بين إنكار البعث وبين إنكار التَّوحيد[2]، يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿**فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ**﴾ [النَّحْل: 22].

ويترتَّب على الإيمان بهذا الأصل حكمة عظيمة، وهي الجزاء على الأعمال، « لأن ربَّ الناس عليم بأحوالهم؛ فمنهم المصلح؛ ومنهم المفسد؛ والكلّ متفاوتون في ذلك، فليس من الحكمة أن يذهب المفسد بفساده، وما ألْحَقَهُ بالموجودات من مضارّ، وأنْ يُهْمَلَ صلاحُ المصلِح، فَجَعَل اللهُ الحياة الأبدية، وجعلها للجزاء على ما قدّم صاحبها في حياته الأولى »[3].

وهذا الأمر يوضّحه عند تفسير قوله تعالى: ﴿**لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ**﴾ [سبأ: 4]،حيث يقول « والمعنى: أنَّ الحكمة في إيجاد الساعة للبعث والحشر هي جزاء الصالحين على صلاح اعتقادهم وأعمالهم، أي: جزاء صالحا مماثلا، وجزاء المفسدين جزاء سيِّئًا »[4].

ويفصِّل هذه القضية أكثر عند قوله تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ**﴾ [ص: 27]، إذ يقول: « والمعنى: أنَّ عالَم الإنسان يحتوي على صالحين، متفاوتٍ صَلَاحُهُم، وفاسدين متفاوتٍ فَسَادُهُم، وقد انتفع الناس بصلاح الصالحين، واستضرُّوا بفساد المفسدين، وربما عَطَّلَ هؤلاء منافع أولئك، وهذَّب أولئك من إفساد هؤلاء، وانقضى كلُّ فريق بما عمل، لـمْ يَلْقَ المحسن جزاء على إحسانه، ولا المفسد جزاء على إفساده، فكانت حكمة خالق الناس مقتضية

(1) الطاهر ابن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (239/1).

(2) انظر: الطاهر ابن عاشور، المصدر نفسه، (126/14).

(3) الطاهر ابن عاشور، المصدر نفسه، (30 /225).

(4) الطاهر ابن عاشور، المصدر نفسه، (142/22).

إعلامهم بما أراد منهم، وتكليفهم أنْ يَسْعَوْا في الأرض صلاحا، ومقتضية ادِّخَار جزاء الفريقين كليهما، فكان من مقتضاها إحضار الفريقين للجزاء على أعمالهم، وإذ قد شوهد أنَّ ذلك لمْ يحصل في هذه الحياة، عَلِمْنَا أنَّ بعد هذه الحياة حياة أبدية يقارنُها الجزاءُ العادلُ، لأنَّ ذلك هو اللَّائقُ بحكمة مرشد الحكماء تعالى، فهذا مما يدلُّ عليه العقلُ السليمُ، وقد أعلمنا خالقُ الخَلْقِ بذلك على لسان رسله، ورسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، فتوافقَ العقلُ والنَّقْلُ، وبَطَلَ الدَّجَلُ والدَّخَلُ »[1]

ب ـ مقصد الجزاء والحساب على الأعمال

الإيمان بالجزاء والحساب مقصد مُهِمٌّ من مقاصد الإيمان باليوم الآخر، لِمَا فيه من بيان العدل الإلهي في الكون؛ فإنّ الله عزّ وجلّ من أسمائه: (**الحق**)، وقد أحسن الشيخ ابن عاشور وأجاد في التعبير عن هذه الفكرة بقوله: « ومن الحقّ استحقاق كِلَا الفريقين لما عومل به عدلا من الله، ولذا قال: ﴿**وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ**﴾ [آل عمران: 108]، أي: لا يريد أنْ يَظْلِمَ الناسَ، ولو شاء ذلك لفعله، لكنَّه وعد بأنْ لا يظلم أحدًا، فحقَّ وَعْدُهُ...، فكل ما يُعَدُّ ظُلْمًا في مجال العقول السليمة مُنْتَفٍ أنْ يكون مراد الله تعالى »[2].

ولَمَّا كان كلّ ما في السموات وما في الأرض ملكا لله تعالى، لقوله تعالى: ﴿**وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ**﴾ [البقرة: 284]، فهو سبحانه وتعالى يريد صلاح حالهم، ولا حاجة له بإضرارهم . إلَّا للجزاءِ على أفعالِهم، فلا يريد ظلْمَهُم، وإليه ترجع الأشياءُ كلُّها فلا يفُوتُه ثواب مُحْسِنٍ، ولا جزاءُ مُسِيءٍ[3].

والمعنى نفسه يكَرِّرُه عند تفسير قوله تعالى: ﴿**إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَؤُا الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ بِالقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذابٌ أَلِيمٌ بِما كانُوا يَكْفُرُونَ**﴾ [يونس: 4]، حيث يصرّح ببيان المقصد الحقيقي للإيمان باليوم الآخر، مراعاةً لمبدأ جزاء الناس على أعمالهم يوم القيامة، فيقول بأنّ فيها: « إبداء لحكمةِ البعث، وهي الجزاءُ على الأعمال المقترفة في الحياة الدنيا،

(1) الطاهر ابن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (143/22).

(2) الطاهر ابن عاشور، المصدر نفسه، (47/4).

(3) انظر: الطاهر ابن عاشور، المصدر نفسه والصفحة.

إذ لو أُرْسِلَ الناسُ على أعمالهم بغيرِ جزاءٍ، على الحسن والقبيح، لاستوى المحسنُ والمسيءُ، وربما كان بعض المسيئين في هذه الدنيا أحسن فيها حالًا » [1].

إذَنْ، فالحكمةُ ظاهرة ــ من خلال ما سبق بيانه ـ وهي أنْ يلقى كلُّ عاملٍ جزاءَ عملهِ، ولم يكن هذا العالَمُ صالحًا لإظهار ذلك ـ حسبما يوضِّحُه الشيخ ــ، لأنَّ الله تعالى « وَضَع نظامه على قاعدة الكون والفساد، قابلا لوقوع ما يخالفُ الحقَّ، ولصرف الخيرات عن الصالحين، وانهيالها على المفسدين؛ والعكس، لأسبابٍ وآثارٍ هي أوفق بالحياة المقرَّرة في هذا العالم، فكانت الحكمةُ قاضية بوجود عالَمٍ آخرَ، مُتَمَحِّضٍ للكون والبقاء، وموضوعا فيه كلّ صِنْفٍ فيما يليق به، لا يعدوه إلى غيره إذ لا قِبَلَ فيه لتصرُّفَاتٍ وتسبُّبَاتٍ تخالفُ الحقَّ والاستحقاق » [2].

وتبعا لذلك يبيِّن الشيخ ـ رحمه الله ـ أنَّ التكذيب بالبعث جهل بحكمةِ الله تعالى « في خلق الناس، وتكليفهم، إذ الحكمة من خلق الناس تقتضي تحسين أعمالهم، وحفظ نظامهم، فلذلك جاءتهم الشرائع آمِرَة بالصلاح، وناهية عن الفساد، ورتَّبَ لهم الجزاء على أعمالهم الصالحة بالثواب والكرامة، وعلى أعمالهم السيئة بالعذاب والإهانة، كلٌّ على حسب عمله، فلو أهمل الخالقُ تقويم مخلوقاته، وأهمل جزاءَ الصالحين والمفسدين، لـمْ يكن ذلك من حكمة الخلق » [3]، يدلّ عليها قوله تعالى: ﴿**أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّما خَلَقْناكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنا لَا تُرْجَعُونَ فَتَعالَى اللَّهُ المَلِكُ الحَقُّ لَا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ العَرْشِ الكَرِيم**﴾ [المؤمنون: 115 ـ 116].

ج ـ مقصد الشفاعة:

الإيمان بالشفاعة من المسائل المهِمَّة المتواترة في ديننا، جاء بها الكتاب الكريم، وقررتها السنة المطهرة، فهي حقٌّ، لا ريب فيه، يدل عليها قوله تعالى: ﴿**وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّماواتِ لَا تُغْنِي شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشاءُ وَيَرْضى**﴾ [النّجم ـ 26]، يقول الشيخ ابن عاشور في تفسيرها: « أنَّ إِذْنَ اللهِ بالشفاعة يجري على حَسَبِ

(1) الطاهر ابن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (91/11).
(2) الطاهر ابن عاشور، المصدر نفسه، (92/11).
(3) الطاهر ابن عاشور، المصدر نفسه ، (197/30).

إرادته إذا كان المشفوع له أَهْلًا لأنْ يُشْفَعَ له، وفي هذا الإبهام تحريض للؤمنين أن يجتهدوا في التعرُّض لرضَى الله عنهم، ليكونوا أَهْلًا للعفو عمَّا فرَّطُوا فيه من الأعمال » [1].

د ـ مقصد الإيمان بالجنة والنار

الإيمان بالجنة والنار قضية في غاية الأهمية، يعتقدها كلّ المؤمنين؛ فالإيمان بالجنة أن يؤمن المَرْءُ بأنَّها دارُ قرارٍ، أعدَّها اللهُ لعباده المؤمنين، تكرُّمًا منه ورحمة بهم، وسور القرآن الكريم طافحة بذكر الجنة ونعيمها وما أعده الله للمؤمنين فيها من أنواع الملاذّ والنعيم وما تشتهيه الأنفس وتلذّ الأعين، منها: قوله تعالى: ﴿**وَعَدَ اللَّهُ المُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَمَساكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذلِكَ هُوَ الفَوْزُ العَظِيمُ**﴾ [التوبة: 72]، وقوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ طُوبى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ**﴾ [الرعد: 29]، وقوله تعالى: ﴿**يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهارُ وَمَساكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذلِكَ الفَوْزُ العَظِيم**﴾ [الصف: 12]، وغيرها من الآيات الآيات القرآنية الكريمة.

ففي هذه النماذج القرآنية إشارات واضحة إلى النعيم الذي أعده الله لعباده المؤمنين، بأنّ لهم جنات كثيرة فيها من كلّ الملاذّ، ومنها المساكن الطيبة، والقصور العالية، والأزواج المطهرة، والخلود الدائم، والاستقرار المستمرّ فيها، وأعظمها حلول رضوان الله على عباده، بل هو أقصى درجات النعيم[2].

ومن هنا يأمر الله عز وجلّ عباده بالمسارعة في الأعمال الصالحة، وفعل الخيرات، لنيل رحمته ومغفرته، وجناته جنات النعيم بقوله: ﴿**وَسارِعُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّماواتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ.الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالكاظِمِينَ الغَيْظَ وَالعافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ**﴾ [آل عمران: 133 ـ 134]؛ فالمسارعة إلى المغفرة والفوز بالجنّة يؤول إلى الأمر بالأعمال الصالحة، والمسارعة مجاز في الحرص والمنافسة والفور إلى عمل الطاعات التي هي سبب المغفرة والجنة [3].

---

(1) الطاهر ابن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (27 /113).

(2) انظر: الطاهر ابن عاشور، المصدر نفسه ، (10/ 264)؛ و(92/11).

(3) انظر: الطاهر ابن عاشور، المصدر نفسه ، (92/11).

وأما الإيمان بالنار، وأنها دار العذاب والشقاء، أعدَّها الله للكافرين والمنافقين، فهي أيضا من المسائل العقدية التي ينبغي الإيمان بها، يخوف ربنا عز وجلّ ويحذّر منها سائر عباده، والآيات القرآنية في هذا المعنى كثيرة جدا، منها: قوله تعالى: ﴿**وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ**﴾ [آل عمران: 131]، حيث يُبَيِّن الشيخ ـ رحمه الله ـ أن الآية الكريمة فيها: « تحذير وتنفير من النار، وما يُوقِعُ فيها، بأنَّها معدودة للكافرين، وإعدادُها للكافرين عدلٌ من الله تعالى، وحكمة، لأنَّ ترَتُّبَ الأشياءِ على أمثالها من أكبر مظاهر الحكمة، ومَنْ أشْرَكُوا بالله مخلوقاته، فقد استحقُّوا الحرمان من رحماته، والمسلمون لا يَرْضَوْنَ بمشاركة الكافرين، لأنَّ الإسلامَ الحَقَّ يوجب كراهية ما ينشأ عن الكفر » [1].

(1) الطاهر ابن عاشور، تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، (88/4).

خاتمة البحث

الحمد لله الذي وفّقني لإتمام بحثي هذا، الذي حاولت من خلاله إبراز بعض ما يتعلَّق بالإمام العلامة، الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ـ رحمة الله عليه ـ إمام عصره، خاصة ما يتعلق بالجانب العقدي من حياته، وما عاصره من أحداث ووقائع في زمنه.

وقد توصلت ـ بتوفيق الله وحسن عونه ـ إلى جملة من النتائج أعتبرها كافية في الدلالة على عظمة هذا العَلَمِ الهُمَام، وما قدّمه للأمة من أعمال، وتصانيف علمية أفادت الأمة، وكان لها الأثر البالغ في محاولات النهضة بالعالم الإسلامي من سباته العميق، والرقيّ به إلى بلوغ الدرجات العالية في الكمال البشري؛ ويمكنني أن أعرض هذه النتائج في النقاط الآتية:

ـ معايشة الإمام لمرحلتين مختلفتين من حياته، الأولى منهما: مرحلة الانتداب ثم الاحتلال الفرنسي لـ(تونس)، التي عانت من ويلاته كثيرا، وأثَّرت سلبا على أفراد المجتمع التونسي، ومنهم الشيخ الجليل؛ والثانية منهما: مرحلة الاستقلال التي حاولت فيها تونس مسايرة ركب النهضة، والالتحاق بركب العلم والتطور التكنولوجي الشامل لكافة المجالات، وهو ما دعا الشيخ إلى المناداة بضرورة القيام بعملية شاملة للإصلاح بـ(تونس).

ـ المكانة العلمية الرفيعة التي يحتلها الإمام في قلوب أفراد الأمة الإسلامية، فهو من العلماء المشهورين في الأوساط العلمية في شرق البلاد الإسلامية وغربها.

ـ تقلُّده للمناصب الرفيعة، وتولِّيه للمهام الصعبة، التي تدلّ على كفاءته وأهليته، وتمكّنه من التسيير، وقدرته على تحمّل الصعاب، منها: توليه مشيخة المسجد الأعظم، ومنصب مشيخة الإسلام.

ـ تميّز الشيخ ابن عاشور بالنظرة الشمولية لهذا العلم، وفق متطلبات العصر، فهو لا يقتصر في الحديث عن المقاصد على المجال التشريعي، بل يتعدَّاه إلى جميع المجالات؛ فالمقاصد عنده تشمل العقائد والاجتماع والعمران، وغيرها من المجالات؛ وقد كانت دراستي قاصرة على مجال العقائد عند الشيخ ـ رحمه الله ـ وبيان مقاصدها.

ـ وتكمن أهمية بحثي في كونه يسلِّط الضوء على الجانب العقدي في فكر الشيخ ابن عاشور، وهو من الجوانب الهامة في حياته، فقد أولاه الشيخ اهتماما كبيرا، ولذلك ركَّزْتَ

على بيان (مقاصد العقائد)، لأنّه لـمْ يَلْقَ الاهتمام الكافي واللائق به من الباحثين والدارسين،.

ـ يعتبر الشيخ ابن عاشور ـ رحمه الله ـ صاحبَ فكرٍ جَمْعِيٍّ، ينظر إلى الدين ككتلة واحدة، لابدَّ أنْ ينال كلُّ جانبٍ من جوانبها ما يستحقّ من البيان والدراسة والتحقيق والضبط.

ـ ظهور ملامح العظمة في شخصية الشيخ ابن عاشور، وسداد فكره، وصفاء عقيدته، وبُعْدِ نَظَرِهِ، وقوَّة إرادته، وتبحّره في العلوم، على الرغم من الظروف الحرجة والصعبة التي نشأ وترعرع فيها، والمؤثِّرات الكثيرة التي أحاطت به في حياته، علميا وفكريا، وسياسيا واجتماعيا، واقتصاديا وأمنيا، وغيرها، ومع ذلك لـمْ تَفُتَّ من عَضُدِه، ولـم تُضْعِفْ من عزيمته وجهده.

ـ كثرة مصنفاته القيِّمة، وجهوده العِلْمِيَّة والعَمَلِيَّة الضخمة في خدمة دين الإسلام، والدفاع عن الوطن (تونس)، كلها تدلّ على مساهمته الجبَّارة في هذا الشأن، خاصة في صوغ فكره المقاصدي الفريد، والذي يؤكّد مكانته العلمية الرفعية، وأعماله المفيدة ووظائفه الهامة.

ـ إعماله للمنهج المقاصدي في أغلب مجالات الحياة، استنادا للنصوص الشرعية الواردة في هذا الباب، واستدلالا شاملا على صحتها، وإسقاطا علميا وشرعيا دقيقا عليها، بما يوافق الأصول العامة، والقواعد الضابطة لهذا العلم، ومن ثمّ كانت مصنفاته عنوانا عليها، وفتاواه المشهورة عنه شاهدة لقيمتها ونفعها للناس.

ـ دعوته إلى الاجتهاد ـ استنادا لعلم المقاصد ـ ونبذه للتقليد والجمود الذي جثم على جسم الأمة الإسلامية، ومنها المجتمع التونسي، مدة طويلة من الزمن، فلا غرابة أن يدعو إلى الأخذ بكل صالحٍ مفيدٍ، ومنه دعوته إلى الإصلاح، الشاملة لدراسة العلوم الشرعية وتجديد مناهجها ومعارفها، متأثّرا في ذلك بما قرره علماء الإسلام، كالإمام أبي حامد الغزالي وأبي إسحاق الشاطبي والشيخ محمد عبده، ممن حركوا الجامد، فأحيوا العلوم، وأصلحوا المناهج القديمة البالية، فنفع الله بهم خلقا كثيرا في جميع الأقطار الإسلامية، فكل من جاء بعده وألف في مجال المقاصد فهو عالة عليه بعد الشاطبي ولا يؤلف مؤلف إلا ويأخذ عنه ويستدل بكتبه.

ـ اهتمام الشيخ الواضح بـ:(علم مقاصد العقائد) فهو ليس بدعا من العلوم بل يعتبر من أشرفها قدرا لتعلقه بجانب العقائد ومسائل الإيمان، بل هو منهج ربَّانِيّ، له شواهد في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة المطهرة، وهي أكثر من أن تحصى، المبنية على تعليل الأحكام وبيان حِكَمِها ومقاصدها وأسرارها؛ فمَنْ فرَّق بين (مقاصد العقائد) و(مقاصد الشريعة) فقد خالف كتاب الله وسنة نبيه، والقول بقصر ميدان المقاصد على مجال العبادات اتِّهام للشريعة بالنقص، واتهام للعقائد الإسلامية بالقصور، والقصور إنما هو في العقول السقيمة التي تدعو إلى الاعتقاد ومعرفة دليله، دون معرفة للحِكَمِ التي تضمَّنَتْها بصريح العبارات، في كتاب الله وسنة رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ.

ـ التأكيدُ المُلِحُّ على أنّ علم مقاصد العقائد علمٌ قائمٌ بذاته، وله علاقة وطيدة بعلم مقاصد الشريعة، ويشتركان في التعابير الدالَّة عليهما، كلفظ: (**المقاصد**)، و(**الأسرار**) و(**العلل**) و(**الفوائد**)، وغيرها، وقد أشرتُ إلى تكاملهما بإشارات حتى لا يخرج البحث عن مضمونه؛ ويشهد هذا العلمُ صحوةً مباركةً تمثَّلَت في بعض الدراسات الأكاديمية هنا وهناك، وهي خطوات مباركة في الاتجاه الصحيح، خصوصا .

ـ يُعَدُّ هذا البحث دراسة علمية أكاديمية متواضعة تُسْهِم في التأصيل لهذا العلم الجليل، وفيه من الأمثلة التطبيقية ما يكون نبراسا للدارسين وقدوة للعاملين، فالعلوم تكون في بداياتها مقدمات وتصورات، ثمّ تنمو وتكتمل شيئا فشيئا، إلى أن تصبح تخصصات وقواعد وأصولا تُدَرَّسُ، ويستشهد بها ولها.

وعليه، يمكنني أنْ أخلص إلى ذكر بعض التوصيات، أجملها في تقطتين أساسيتين، هما:

1 ــ ندب الباحثين لمحاولة الوقوف على تعريفٍ جامعٍ مانعٍ لعلم مقاصد العقائد، فالتعريفات التي ذكرتها إنما هي مجرّد اجتهادات تحتاج إلى ضبطٍ وتدقيقٍ.

2 ــ محاولة جمع المقاصد العقدية، بالرجوع إلى المصادر الأصلية والمراجع الهامة، خاصة كتب السلف المتقدِّمين الذين اشتغلوا بهذا العلم، وصولا إلى المتأخِّرين، والذي من شأنه أن يكون رصيدًا مفيدا للباحثين المختصِّين، وأرضية مشتركة، تُسْتَثْمَرُ في بناء هذا العلم بناء قويا متينا.

3 ـ التشجيع على القيام ببحوث تتناول الاهتمام بمقاصد العقائد عند علماء المغرب العربي وخاصة علماء القطر الجزائري، في القديم وفي الحديث، وجمع الدراسات التي قام بها باحثون في مختلف أقطار العالم الإسلامي في موضوع مقاصد العقائد، فهناك من درس هذا الموضوع في تونس والمغرب وفي ماليزيا، ولكن لا أثر لها في جامعاتنا.

هذا تمام بحثي، الذي حاولت فيه ـ قدر استطاعتي ـ إبراز بعض معالم الفكر المقاصدي المتعلق بالجانب العقدي من خلال مصنَّفات الشيخ العلامة الجليل، والمفسر الشهير، والأصولي الفقيه، والمتكلم المدقق، والأديب اللغوي المبرز.

إنْ أصبتُ فيما كتبت فمِنَ اللهِ عزَّ وجلَّ وحده، وقد يجد القارئ بين ثنايا السطور أخطاء، إما مطبعيّة أو لفظية أو حتى في المعنى، فلا غرو إذ الأصل فيمن خلق من عجل الخطأ والزلل.

واللهَ أسأل أن يجعل هذا العمل المتواضع خالصاً لوجهه الكريم، وصلى الله وسلم على نبيّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين والحمد لله ربّ العالمين.

الفهارس العامة

أولا: فهرس الآيات القرآنية الكريمة

طرف الآية القرآنية الكريمة	السورة و الآية	الصفحة
﴿الحَمْدُ للهِ﴾	[الفاتحة:1]	51
﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾	[الفَاتِحَة: 5]	142
﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ المُسْتَقِيمَ﴾	[الفاتحة: 6]	113
﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ المَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ...﴾	[الفَاتِحَة: 7]	113
﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ ...﴾	[البقرة: 3]	128
﴿أَلا إِنَّهُمْ هُمُ المُفْسِدُونَ﴾	[البقرة: 12]	150
﴿فَما رَبِحَتْ تِجارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾	[البقرة: 16]	87
﴿كُلَّما أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قامُوا﴾	[البقرة: 20]	88
﴿فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُل﴾	[البقرة: 109]	137
﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾	[البقرة: 111]	111
﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾	[البقرة: 152]	134
﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾	[البَقَرَة: 153]	138
﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ...﴾	[البقرة: 164]	113
﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ اليُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ العُسْرَ﴾	[البقرة: 185]	100
﴿وأنفقوا في سبيل الله ...﴾	[البَقَرَة: 195]	131
﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾	[البَقَرَة: 197]	131
﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الحَرْثَ...﴾	[البقرة: 205]	125
﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ...﴾	[البقرة: 213]	153/84
﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ...﴾	[البَقَرَة: 213]	151/150
﴿﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الخَمْرِ وَالمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ...﴾	[البقرة: 219]	80
﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ ...﴾	[البقرة: 249]	132

﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا...﴾	[البقرة: 250]	132
﴿فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّه...﴾	[البَقَرَة: 251]	132
﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ...﴾	[البقرة: 253]	153
﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ...﴾	[البقرة: 253]	153
﴿وَلَوْ شاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾	[البَقَرَة: 253]	165
﴿لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾	[البَقَرَة: 260]	78
﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾	[البقرة: 284]	136/156
﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاء...﴾	[آل عمران: 7]	91/90
﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾	[آل عمرَان: 19]	149
﴿فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾	[آل عمران: 20]	101
﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ...﴾	[آل عمران: 31]	118
﴿قُلْ يَا أَهْلَ الكِتابِ تَعالَوْا إِلى كَلِمَةٍ سَواءٍ بَيْنَنا وَبَيْنَكُمْ...﴾	[آل عمران: 64]	99
﴿وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾	[آل عمران: 108]	156
﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ المُؤْمِنُونَ﴾	[آل عمرَان:122]	132
﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكافِرِينَ﴾	[آل عمرَان:131]	159
﴿وَسارِعُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّماواتُ...﴾	[آل عمرَان:133]	158
﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالكاظِمِينَ الغَيْظَ...﴾	[آل عمرَان:134]	158
﴿وَلا تَهِنُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ﴾	[آل عمران:139]	140
﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ القَوْمَ قَرْحٌ..﴾	[آل عمران:140]	140
﴿وَشاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ...﴾	[آل عمرَان:159]	131
﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ المُتَوَكِّلِينَ﴾	[آل عمرَان:159]	132
﴿وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾	[آل عمران:180]	106
﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ...﴾	[آل عمران:190]	113
﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِياماً وَقُعُوداً وَعَلى جُنُوبِهِمْ...﴾	[آل عمران:191]	113

﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ...﴾	[النساء: 65]	118
﴿وَمَنْ يُقْتَلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا...﴾	[النساء: 93]	82
﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ ...﴾	[النساء: 165]	152
﴿يَا أَهْلَ الكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾	[النِّسَاء: 171]	144
﴿وَقالَتِ اليَهُودُ وَالنَّصارى نَحْنُ أَبْناءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ...﴾	[المائدة: 18]	112
﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَاقَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ...﴾	[المائدة: 20]	125
﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا...﴾	[المائدة: 27]	96
﴿لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ...﴾	[المائِدَة: 28]	96
﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾	[المائدة: 29]	96
﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾	[المائدة: 44]	146
﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا...﴾	[المائدة: 46]	144
﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ بِالحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ..﴾	[المائِدَة: 48]	145/144
﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ ..﴾	[المائِدَة: 48]	145/144
﴿وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الأَيْمَانَ﴾	[المائدة: 89]	49
﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الخَبِيثِ﴾	[المائدة: 100]	102
﴿مَا فَرَّطْنا فِي الكِتابِ مِنْ شَيْءٍ﴾	[الأنعام: 38]	100
﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾	[الأنعام: 82]	130/57
﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾	[الأَنْعَام: 155]	146
﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا...﴾	[الأَنْعَام: 156]	148
﴿أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ...﴾	[الأَنْعَام: 157]	148
﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيايَ وَمَماتِي لِلَّهِ رَبِّ العالَمِينَ﴾	[الأنعام: 162]	131
﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾	[الأعراف: 15]	100
﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ...﴾	[الأعراف: 31]	60
﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ﴾	[الْأَعْرَاف: 59]	100

﴿ولَا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا...﴾	[الأَعْرَاف: 56]	134/124
﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ...﴾	[الأعراف: 85]	124/123
﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ...﴾	[الأعراف: 142]	124
﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْك...﴾	[الأعراف: 156]	58
﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَ...﴾	[الأَعْرَاف: 172]	151/96
﴿وَلِلَّهِ الأَسْماءُ الحُسْنى فَادْعُوهُ بِها﴾	[الأَعْرَاف: 180]	68
﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ...﴾	[الأعراف: 180]	136/52
﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ...﴾	[الأعراف: 206]	143
﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا...﴾	[الأنفال: 46]	92
﴿اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللهِ وَالمَسِيحَ...﴾	[التوبة: 31]	57
﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا...﴾	[التَّوْبَة:51]	140/134
وَعَدَ اللَّهُ المُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي...﴾	[التوبة: 72]	158
﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الكُفَّارَ وَالمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ...﴾	[التوبة: 73]	77
﴿الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا...﴾	[التوبة: 97]	55
﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَؤُا الخَلْقَ ثُمَّ ...﴾	[يونس: 4]	156
﴿أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي...﴾	[يونس: 35]	111
﴿إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ...﴾	[يونس: 68]	111
﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ...﴾	[يونس: 57]	145
﴿قالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آباؤُنا...﴾	[هود: 87]	112
﴿قالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي...﴾	[هود: 88]	152/123
﴿قالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آباؤُنا...﴾	[هود: 87]	123
﴿وَما أُرِيدُ أَنْ أُخالِفَكُمْ إِلى مَا أَنْهاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا...﴾	[هود: 88]	123
﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾	[هود: 88]	123
﴿فَما أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ...﴾	[هود: 101]	124/102

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَن اِتَّبَعَنِي﴾	[يوسف: 108]	82
﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثاقِهِ وَيَقْطَعُونَ ...﴾	[الرعد: 25]	124
﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ طُوبى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾	[الرعد: 29]	158
﴿كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُماتِ إِلَى...﴾	[إِبْرَاهِيم: 1]	147
﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾	[الحجر: 49]	117
﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ العَذَابُ الأَلِيمُ﴾	[الحجر: 50]	117
﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لا يَخْلُقُونَ شَيْئاً...﴾	[النحل: 20]	111
﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾	[النَّحْل: 22]	155
﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾	[النحل: 43]	110
﴿مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنّه...﴾	[النحل: 97]	125/99
﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾	[النَّحْل: 99]	133
﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ...﴾	[النحل: 116]	60
﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالحِكْمَةِ وَالمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ...﴾	[النحل: 125]	82
﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ...﴾	[الإسراء: 25]	136
﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾	[الإسراء: 36]	60
﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي...﴾	[الإسراء: 85]	61
﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾	[الأنبياء: 16]	84
﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ﴾	[الأنبياء: 17]	84
﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى البَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ...﴾	[الأنبياء: 18]	84
﴿لَوْ كانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾	[الأنبياء: 22]	111
﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي...﴾	[الأنبياء: 24]	111
﴿وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ...﴾	[الأنبياء: 29]	129
﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا...﴾	[الأنبياء: 105]	125
﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ...﴾	[الأنبياء: 106]	125

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ...﴾	[الحج: 2]	135
﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدىً ...﴾	[الحج: 8]	111
﴿وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ...﴾	[الحَج: 66]	154/135
﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنا لَا تُرْجَعُونَ﴾	[المؤمنون: 115]	72
﴿فَتَعالَى اللَّهُ المَلِكُ الحَقُّ﴾	[المؤمنون: 116]	157
﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمالُهُمْ كَسَرابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً..﴾	[النور: 39]	87
﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾	[النور: 54]	80
﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ...﴾	[النور: 55]	79
﴿وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ ...﴾	[الفرقان:68]	82
﴿وَأُوتِينَا العِلْمَ مِنْ قَبْلِها وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾	[النمل: 42]	104
﴿وَصَدَّها مَا كانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّها كانَتْ مِنْ ...﴾	[النمل: 43]	102
﴿إِنَّكَ عَلَى الحَقِّ المُبِينِ﴾	[النمل: 79]	53
﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ...﴾	[القصص: 4]	126
﴿لَوْلا أَرْسَلْتَ إِلَيْنا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آياتِكَ وَنَكُونَ مِنَ المُؤْمِنِينَ﴾	[القصص: 47]	152
﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَواهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللَّهِ﴾	[القصص: 50]	111
﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ...﴾	[الروم: 30]	97
﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾	[لقمان:13]	130/105/57
﴿وَما كانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً...﴾	[الأَحْزَاب: 36]	118
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾	[الأَحْزَاب: 41]	134
﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾	[الأحزاب: 42]	134
﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ...﴾	[الأحزاب: 43]	134
﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ...﴾	[سبأ: 4]	155
﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ...﴾	[سبأ: 7]	91
﴿إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾	[فاطر: 8]	138

﴿وما يَسْتَوِي الأَعْمى وَالبَصِيرُ ﴾	[فاطر: 19]	88
﴿وَلَا الظُّلُماتُ وَلَا النُّورُ﴾	[فاطر: 20]	88
﴿وَلَا الظِّلُّ وَلَا الحَرُورُ ﴾	[فاطر: 21]	88
﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي القُبُورِ﴾	[فاطر: 22]	106
﴿إِنَّما يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبادِهِ العُلَماءُ﴾	[فاطر: 28]	86
﴿سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾	[الصافات: 159]	111
﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ...﴾	[ص: 27]	155
﴿تَنْزِيلُ الكِتَابِ مِنَ اللَّهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ﴾	[الزمر: 1]	144
﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ بِالحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾	[الزمر: 2]	144
﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾	[الزمر: 4]	112
﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ...﴾	[الزمر: 9]	86
﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا...﴾	[الزمر: 53]	120
﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الجاهِلُونَ﴾	[الزمر: 64]	86
﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾	[الزمر: 67]	139
﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ...﴾	[فصلت: 44]	148
﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾	[الشورى: 11]	107/68
﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا﴾	[الشورى: 13]	146
﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾	[الشورى: 13]	149/147
﴿وَأَمْرُهُمْ شُورى بَيْنَهُمْ﴾	[الشورى: 38]	161
﴿وَقالُوا لَوْ شاءَ الرَّحْمنُ مَا عَبَدْناهُمْ ...﴾	[الزخرف: 20]	142
﴿بَلْ قالُوا إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلى آثارِهِمْ ﴾	[الزخرف: 22]	112
﴿وَكَذلِكَ مَا أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ...﴾	[الزخرف: 23]	112
﴿قالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آباءَكُمْ﴾	[الزخرف: 24]	112
﴿إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ﴾	[الدُّخان: 3]	148

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾	[الدخان: 38]	72
﴿مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالحَقِّ﴾	[الدخان: 39]	63
﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ...﴾	[الجاثية: 23]	111
﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا...﴾	[الجاثية: 24]	128
﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾	[مُحَمَّد: 19]	81
﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ...﴾	[محمد: 22]	127
﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ﴾	[محمد: 23]	127
﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾	[الفتح: 8]	150
﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً...﴾	[الفتح: 9]	150
﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ...﴾	[الحجرات: 7]	119
﴿إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ﴾	[ق: 37]	109
﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالأِنْسَ إِلاّ لِيَعْبُدُونِ﴾	[الذاريات: 56]	79/72
﴿وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّماواتِ لَا تُغْنِي شَفاعَتُهُمْ شَيْئًا...﴾	[النَّجْم: 26]	157
﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الكِتَابَ وَالمِيزَانَ...﴾	[الحديد: 25]	65
﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللهِ رَبِّكُمْ﴾	[الممتحنة: 1]	56
﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا....﴾	[الصف: 12]	158
﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾	[التغابن: 11]	138
﴿وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾	[التغابن: 11]	138
﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾	[البلد: 10]	114
﴿فَلَا اقْتَحَمَ العَقَبَةَ﴾	[البلد: 11]	114
﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا العَقَبَةُ﴾	[البلد: 12]	114
﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾	[البلد: 13]	114
﴿أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾	[البلد: 14]	114
﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾	[البلد: 15]	114

﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾	[البلد: 16]	114
﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾	[البلد: 17]	114/93
﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ﴾	[الزلزلة: 7]	117
﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾	[الزلزلة: 8]	119
﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ . ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ . إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾	[التين:4 ـ6]	98
﴿وَالعَصْرِ﴾	[العصر: 1]	50
﴿إِنَّ الأِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾	[العصر: 2]	50
﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالحَقِّ...﴾	[العصر: 3]	50

ثانيا: فهرس الآحاديث النبوية الشريفة

طرف الحديث	الصفحة
« يَا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي..... »	59
« إِذَا الْتَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالقَاتِلُ وَالمَقْتُولُ فِي النَّارِ... »	165
« ارْحَمُوا مَنْ فِي الأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ »	162
« اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ »	109
« أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي... »	100
« أفرارا من قدر الله؟! »	144
« أَلَا تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ؟!... »	62
« أَلَا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ... »	126/101/103
« التَّقْوَى هَاهُنَا... »	117
« الحَلاَلُ بَيِّنٌ، وَالحَرَامُ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لاَ يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ...»	109/100
« الرِّيَاءُ الشِّرْكُ الأَصْغَرُ »	132
« الرياء الشرك الأصغر»	130
« أَمَا إِنَّهُ قَدْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهَ، هلَّا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ، مَنْ قَالَ لِأَخِيهِ ... »	164
« إِنَّ الحَلَالَ بَيِّنٌ، وَإِنَّ الحَرَامَ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا أُمُورٌ مُشْتَبَهَاتٌ... »	100
« إِنَّ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ لَا يَخْسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ، وَلَا لِحَيَاتِهِ، وَلَكِنَّهُمَا آيَتَانِ.. »	75
« إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ يَئِسَ أَنْ يُعْبَدَ فِي بَلَدِكُمْ هَذَا... »	126/110
« إِنَّ العَبْدَ لِيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ لَا يَتَبَيَّنُ مَا فِيهَا يَهْوِي بِهَا إِلَى النَّارِ.... »	109
« إِنَّ الله عزَّ وجلَّ يقول يومَ القيامة: يا ابنَ آدمَ مَرِضْتُ فلم تَعُدْني... »	76
« إِنَّ للهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مَائَةً إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ »	52
« أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرَ »	153
« إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ، فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ... »	114

« إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى »	116/83
« إِنَّهُمَا لَيُعَذَّبَانِ وَمَا يُعَذَّبَانِ فِي كَبِيرٍ »	110
« أيّنا لم يظلم نفسه، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: « لَيْسَ كَمَا تَظُنُّونَ... »	57
« بُعِثْتُ بِالحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ »	100
« بُنِيَ الإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ... »	93
« تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ أَخَذْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا كِتَاب اللهِ وَسُنَّتِي »	147
« حَتَّى لَا يَتَحَدَّثَ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ »	76
« حَقَّ اللهِ عَلَى العِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ، وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا »	130
« فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي وَإِنْ ذَكَرْتُهُ... »	134
« فَلَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ »	164
« قُلْ آمَنْتُ بِاللهِ، ثُمَّ اسْتَقِمْ »	115/105/102
« كُلُّ شَيْءٍ بِقَضَاءٍ وَقَدَرٍ »	141/140
« لَا أَحَدَ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى يَسْمَعُهُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ يَدَّعُونَ لَهُ نِدًّا...»	137
« لَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَنَاجَشُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا...»	116
« لَا يَزَالُ النَّاسُ يَتَسَاءَلُونَ حَتَّى يُقَالَ: هَذَا خَلَقَ اللهُ الْخَلْقَ، فَمَنْ خَلَقَ اللهَ؟ فَمَنْ وَجَدَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا، فَلْيَقُلْ: آمَنْتُ بِاللهِ »	96
« لَعْنَةُ اللهِ عَلَى اليَهُودِ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ »	108
« لَنْ يَبْرَحَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ عَمَّا لَمْ يَكُنْ، حَتَّى يَقُولُوا: اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ... »	107
« مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الهُدَى وَالعِلْمِ، كَمَثَلِ الغَيْثِ الكَثِيرِ... »	148
« مَن اِغْتَصَبَ شِبْرًا مِنْ أَرْضٍ طُوِّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ يَوْمَ القِيَامَةِ »	106
« مَن عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدِ اسْتَحَلَّ مُحَارَبَتِي... »	116
« مَنْ قَالَ لِأَخِيهِ يَا كَافِرُ فَقَدْ بَاءَ هُوَ بِهَا »	163
« مَنْ كَانَ عِنْدَهُ مَالٌ لَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ مُثِّلَ لَهُ يَوْمَ القِيَامَةِ شُجَاعًا أَقْرَعَ... »	106
« مَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً »	119

« مَنْ يُرِدِ اللهُ بِهِ خَيْرًا يُفَقِّهْهُ فِي الدِّينِ »	87
« هَذَا جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ »	97
« هَلْ لِمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا تَوْبَةٌ؟، قَالَ: لَا، إِلَّا النَّارُ... »	82
« وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا...»	88
« وَيْلَكَ وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ قَدْ خِبْتَ وَخَسِرْتَ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ... »	76
« يَا عَدِيُّ اطْرَحْ عَنْكَ هَذَا الوَثَن... »	57
«... إنا نفر من قدر الله إلى قدر الله ...»	142
«إذا مَاتَ ابْن آدم انْقَطع عمله إِلَّا من ثَلَاث... »	88

ثالثا: فهرس المصادر والمراجع

ـ (**آثَارُ الإِمَام مُحَمَّد البَشِير الإِبْرَاهِيمِي**)، لـ: محمّد بن بشير بن عمر الإبراهيمي، جمع وتقديم: نجله الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، (1997م)، عدد الأجزاء: (5).

ـ (**أصول النظام الاجتماعي في الإسلام**)، لـ: محمد الطاهر بن عاشور، الشركة التونسية للتوزيع تونس، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، الطبعة الثانية، (جويلية 1985م).

ـ (**أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**)، لـ: محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت ـ لبنان، تاريخ النشر: (1415 هـ ـ 1995م).

ـ (**إعلام الموقعين عن رب العالمين**)، لـ: أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب المعروف بابن قيم الجوزية، قدم له وعلق عليه وخرج أحاديثه وآثاره: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، شارك في التخريج: أبو عمر أحمد عبد الله أحمد، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، (1423 هـ)، عدد الأجزاء: (7).

ـ (**الآثار الكاملة موسوعة الأعمال الكاملة للإمام محمد الخضر حسين**)، لـ: محمد الخضر حسين، جمعها وضبطها: المحامي علي الرضا الحسيني، دار النوادر، سوريا الطبعة الأولى: (1431 هـ ـ 2010 م)، عدد الأجزاء: (15).

ـ (**الاجتهاد المقاصدي من التصور الأصولي إلى التنزيل العملي**)، لـ: جاسر عودة، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت لبنان، الطبعة الأولى، (2013م).

ـ (**الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان**)، لـ: محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبي حاتم، الدارمي، البُستي، ترتيب: الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرنؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، (1408 هـ ـ 1988 م)، عدد الأجزاء: (18)، (17 جزءا والمجلد الأخير للفهارس).

ـ (**الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد على مذهب السلف وأصحاب الحديث**)، لـ:أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي، تحقيق: أحمد عصام الكاتب، الناشر: دار الآفاق الجديدة ـ بيروت، الطبعة الأولى، (1401هـ)، عدد الأجزاء:(1).

ـ (**الأعلام**)، لـ: خير الدين بن محمود بن محمد بن علي بن فارس، الزركلي الدمشقي، دار العلم للملايين، الطبعة الخامسة عشر، (ماي 2002 م).

ـ (**التنظير المقاصدي عند الإمام محمد الطاهر بن عاشور في كتابه مقاصد الشريعة الاسلامية**)، أطروحة مقدمة لنيل دكتوراة دولة، تخصص: علم أصول الفقه، للطالب محمد حسين بإشراف: عمار ساسي، نوقشت يوم: (5 صفر 1426 هـ) // (16 مارس 2005م).

ـ (**الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه**)، لـ: محمد بن إسماعيل أبي عبدالله البخاري الجعفي، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، الطبعة الأولى، (1422 هـ)، عدد الأجزاء: (9)، مع الكتاب: شرح وتعليق د. مصطفى ديب البغا أستاذ الحديث وعلومه في كلية الشريعة ـ جامعة دمشق

ـ (**الجامع لأحكام القرآن**)، لـ: أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية ـ القاهرة، الطبعة الثانية، (1384هـ ـ 1964م)، عدد الأجزاء: (20) جزءا، (في 10 مجلدات).

ـ (**الداء والدواء**)، لـ: أبي عبدالله محمد بن أبي بكر بن أيوب ابن قيم الجوزية، حققه: محمد أجمل الإصلاحي خرج أحاديثه: زائد بن أحمد النشيري، دار عالم الفوائد ـ مكة المكرمة، الطبعة الأولى، (1429 هـ)، عدد الأجزاء: (1).

ـ (**السنن الكبرى**)، لـ: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبي بكر البيهقي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنات، الطبعة الثالثة، (1424 هـ ـ 2003 م).

ـ (**الشجرة في الوعظ**)، لـ: عز الدين بن عبد السلام بن غانم المقدسي، تحقيق: أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، الطبعة الأولى، (1424 هـ ـ 2003م).

ـ (**الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**)، لـ: أبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، الناشر: دار العلم للملايين ـ بيروت، الطبعة الرابعة، (1407 هـ ـ 1987 م)، عدد الأجزاء: (6).

ـ (**الصفدية**)، لـ: تقي الدين أبي العَباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، تحقيق: محمد رشاد سالم، الناشر: مكتبة ابن تيمية ـ مصر، الطبعة الثانية، (1406 هـ)، عدد الأجزاء: (2) في مجلد واحد.

ـ (**العقيدة الإسلامية وأسسها**)، لـ: عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دون معلومات أخرى.

ـ (**العقيدة الاسلامية والمذاهب المعاصرة**)، لـ: محمد بن عبد العزيز بن محمد العقيل، (شوال 1430 هـ)، جامعة الملك فيصل كلية الآداب، قسم الدراسات الإسلامية، العقيدة الاسلامية والمذاهب المعاصرة.

ـ (**العين**)، لـ: أبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري، تحقيق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال.

ـ (**الفتح السماوي بتخريج أحاديث القاضي البيضاوي**)، لـ: زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي المناوي، تحقيق: أحمد مجتبى، الناشر: دار العاصمة ـ الرياض، عدد الأجزاء: (3) أجزاء في ترقيم واحد مسلسل.

ـ (**الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية**)، لـ: أبي منصور عبد القادر بن قاهر بن محمد بن عبد الله البغدادي التميمي، دار الآفاق الجديدة، بيروت ـ لبنان، الطبعة الثانية، (1977م)، عدد الأجزاء: (1).

ـ (**الفكر المقاصدي قواعده وفوائده**)، لـ: أحمد الريسوني، كتاب الجيب رقم (9)، (ديسمبر 1999م)، منشورات جريدة الزمن، طبع مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء.

ـ (**الفوائد في اختصار المقاصد**)، لـ: أبي محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي، الملقب بسلطان العلماء، تحقيق: إياد خالد الطباع، دار الفكر المعاصر دمشق، الطبعة الأولى، (1416 هـ)، عدد الأجزاء: (1).

ـ (**القواعد العقدية تأصيل وتأسيس**)، لـ: أحمد بن محمد بن الصادق النجار، الطبعة الأولى، (1437هـ)، دار النصيحة المدينة النبوية.

ـ (**الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار**)، لـ:أبي بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي، تحقيق: كمال يوسف الحوت، الناشر: مكتبة الرشد ـ الرياض، الطبعة: الأولى، (1409م)، عدد الأجزاء: (7).

ـ (**المستدرك على الصحيحين**)، لـ:أبي عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية ـ بيروت، الطبعة الأولى، (1411 هـ ـ 1990م)، عدد الأجزاء: (4).

ـ (**المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم**)، لـ: مسلم بن الحجاج أبي الحسن القشيري النيسابوري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، عدد الأجزاء: (5).

ـ (**المصباح المنير في غريب الشرح الكبير**)، أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس، الناشر: المكتبة العلمية ـ بيروت، عدد الأجزاء: 2 (في مجلد واحد وترقيم مسلسل واحد)

ـ (**المصنف**)، لـ: أبي بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، الناشر: المجلس العلمي ـ الهند، نشر: المكتب الإسلامي ـ بيروت، الطبعة: الثانية، (1403هـ)، عدد الأجزاء: (11).

ـ (**المعجم الأوسط**)، لـ:سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد , عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني، الناشر: دار الحرمين ـ القاهرة، عدد الأجزاء: (10).

ـ (**المعجم الكبير**)، لـ: أبي القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي الطبراني، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، دار النشر: مكتبة ابن تيمية ـ القاهرة، الطبعة الثانية، عدد الأجزاء: (25)، ويشمل القطعة التي نشرها لاحقا المحقق الشيخ حمدي السلفي من المجلد (13)، دار الصميعي ـ الرياض، الطبعة الأولى، 1415 هـ ـ 1994 م).

ـ (**الملل والنحل**)، لـ: الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني، مؤسسة الحلبي، عدد الأجزاء: (3).

ـ (**المنهج القويم في اختصار اقتضاء الصراط المستقيم**)، لـ: محمد بن علي بن أحمد بن عمر بن يعلى، أبو عبد الله، بدر الدين البعليّ، تحقيق: علي بن محمد العمران، إشراف: بكر بن عبد الله أبو زيد، الناشر: دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، مكة المكرمة، الطبعة الأولى، (1422 هـ)، عدد الأجزاء: (1).

ـ (**الموافقات في أصول الشريعة**)، لـ: إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي الشهير بالشاطبي، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان للنشر، الطبعة الأولى، (1417 هـ ـ 1997م)، عدد الأجزاء: (7).

ـ (**الموطأ**)، لـ: مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني، تحقيق: محمد مصطفى الأعظمي، الناشر: مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية ـ أبو ظبي ـ الإمارات، الطبعةالأولى، (1425 هـ ـ 2004 م)، عدد الأجزاء: (8)، (منهم مجلد للمقدمة، و(3) للفهارس).

ـ (**أليس الصبح بقريب: التعليم العربي الإسلامي دراسة تاريخية وآراء إصلاحية**)، لـ: محمد الطاهر بن عاشور، دار سحنون للنشر والتوزيع، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى: (1427 هـ ـ 2006م).

ـ (**أهمية المقاصد في الشريعة الاسلامية وأثرها في فهم النص واستنباط الحكم**)، لـ: سميح عبد الوهاب الجندي، الطبعة الأولى، (1429 هـ ـ 2008م)، مؤسسة الرسالة ناشرون.

ـ (**بدائع الفوائد**)، لـ: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، دار الكتاب العربي، بيروت، (د ـ ت ـ ط)، لبنان عدد الأجزاء: (4).

ـ (**تاج العروس من جواهر القاموس**)، لـ: محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبي الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي، تحقيق: مجموعة من المحققين، الناشر: دار الهداية.
ـ (**تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد**)، لـ: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، الدار التونسية للنشر، تونس، طبعة (1984 هـ)، عدد الأجزاء: (30)، (والجزء رقم (8) في قسمين.
ـ (**تراجم المؤلفين التونسيين**)، لـ: محمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي ـ بيروت ـ لبنان، عدد الأجزاء: (5)، الطبعة الثانية، (1994م).
ـ (**تفسير القرآن العظيم**)، لـ: أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري الدمشقي، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، منشورات محمد علي بيضون بيروت، الطبعة الأولى، (1419 هـ).
ـ (**جامع الأصول في أحاديث الرسول**)، لـ: مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير، تحقيق: عبد القادر الأرنؤوط ـ التتمة تحقيق بشير عيون، الناشر: مكتبة الحلواني ـ مطبعة الملاح ـ مكتبة دار البيان، الطبعة الأولى، الجزء [1، 2]: (1389 هـ ـ 1969 م)، الجزء [3، 4]: (1390 هـ، 1970 م)، الجزء [5]: (1390 هـ ـ 1971 م)، الجزء [6، 7]: (1391 هـ، 1971 م)، الجزء [8 ـ 11]: (1392 هـ، 1972 م)، الجزء [12] (التتمة): ط دار الفكر، تحقيق: بشير عيون.
ـ (**ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**)، لـ: عبد الرحمن بن محمد بن محمد، ابن خلدون أبو زيد، ولي الدين الحضرمي الإشبيلي، تحقيق: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت ـ الطبعة الثانية، (1408 هـ ـ 1988م)، عدد الأجزاء: (1).
ـ (**رسالة في رعاية المصلحة**) لـ: الطوفي، تحقيق: أحمد عبد الرحيم السايح، الناشر الدار المصرية اللبنانية، الطبعة الأولى، (1413 هـ ـ 1993م).
ـ (**سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها**)، لـ: أبي عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني، الناشر: مكتبة المعارف

للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى، (لمكتبة المعارف)، عدد الأجزاء: (6)، عام النشر:(جـ 1 ـ 4: 1415 هـ ـ 1995 م)، (جـ 6: 1416 هـ ـ 1996 م)، (جـ 7: 1422 هـ ـ 2002 م).

ـ (**سنن ابن ماجه**)، لـ: ابن ماجة ـ وماجة اسم أبيه يزيد ـ أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ـ عادل مرشد ـ محمَّد كامل قره بللي ـ عَبد اللّطيف حرز الله، الناشر: دار الرسالة العالمية، الطبعة الأولى، (1430 هـ ـ 2009 م)، عدد الأجزاء:(5).

ـ (**سنن الترمذي**)، لـ: أبي عيسى محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر، (جـ 1، 2)، ومحمد فؤاد عبد الباقي، (جـ 3)، وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف، (جـ 4، 5)، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي ـ مصر، الطبعة الثانية، (1395 هـ ـ 1975 م)، عدد الأجزاء: (5) أجزاء

ـ (**شجرة المعارف والأحوال وصالح الأقوال والأعمال**)، لـ: عز الدين بن عبد السلام بن حسن السلمي، تحقيق: أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، الطبعة الأولى: (1424 هـ ـ 2003م).

ـ (**شرح الحكم العطائية**)، لـ: ابن عباد النفزي الرندي، دراسة: محمد عبد المقصود هيكل، إشراف ومراجعة: عبد الصبور شاهين، الطبعة الأولى: (1408هـ ـ 1988م)، مركز الأهرام للترجمة والنشر.

ـ (**شرح العقيدة الواسطية**)، لـ: محمد بن صالح بن محمد العثيمين، خرج أحاديثه واعتنى به: سعد بن فواز الصميل الناشر: دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، الطبعة السادسة، (1421 هـ).

ـ (**شيخ الجامع الأعظم،محمد الطاهر بن عاشور حياته وآثاره**)، لـ: بلقاسم الغالي دار ابن حزم ـ بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، (1417هـ ـ 1996م).

ـ (**صحيح الجامع الصغير وزياداته**)، لـ: أبي عبد الرحمن محمد ناصر الدين، بن الحاج نوح بن نجاتي بن آدم، الأشقودري الألباني، الناشر: المكتب الإسلامي، عدد الأجزاء: (2).

ـ (**طرق الكشف عن مقاصد الشارع**)، لـ: نعمان جغيم، دار النفائس للنشر والتوزيع الأردن، الطبعة الأولى: (1435هـ ـ 2014م).

ـ (**علم المقاصد الشرعية**)، لـ: نور الدين بن مختار الخادمي، مكتبة العبيكان للنشر، الطبعة الأولى: (1421هـ ـ 2001 م)، عدد الأجزاء: (1).

ـ (**فتح الباري شرح صحيح البخاري**)، لـ: أحمد بن علي بن حجر أبي الفضل العسقلاني الشافعي، الناشر: دار المعرفة ـ بيروت، (1379هـ)، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، عليه تعليقات العلامة: عبد العزيز بن عبد الله بن باز، عدد الأجزاء: (13).

ـ (**قواعد الأحكام في مصالح الأنام**)، لـ: أبي محمد عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام بن أبي القاسم بن الحسن السلمي الدمشقي، الملقب بسلطان العلماء، راجعه وعلق عليه: طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية ـ القاهرة، طبعة جديدة مضبوطة منقحة: (1414هـ ـ 1991م)، عدد الأجزاء: (2).

ـ (**كتاب إثباب العلل**)، لـ: أبي عبد الله محمد بن علي الحكيم الترمذي، تحقيق ودراسة خالد زهري تقديم برند مانويل فايشر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، الطبعة الأولى: (1998م).

ـ (**كتاب إحياء علوم الدين**)، لـ: أبي حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي، دار المعرفة ـ بيروت، عدد الأجزاء: (4).

ـ (**كتاب الاستقامة**)، لـ: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، تحقيق، د. محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود ـ المدينة المنورة، الطبعة الأولى، (1403 هـ)، عدد الأجزاء: (2).

ـ (**كتاب العين**)، لـ:أبي عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري، تحقيق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، الناشر: دار ومكتبة الهلال، عدد الأجزاء: (8).

ـ (**كتاب القواعد العقدية تأصيل وتأسيس ويليه مقدمات يقينية لا يستغني عنها طالب علم العقيدة**)، لـ: أحمد بن محد بن الصادق النجار، دار النصيحة المدينة النبوية، الطبعة الأولى، (1437م).

ـ (**كتاب مقاصد الشريعة الإسلامية**)، لـ: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي، تحقيق: محمد الحبيب ابن الخوجة، الناشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ـ قطر، تاريخ النشر: (1425 هـ ـ 2004 م)، عدد الأجزاء: (3).

ـ (**كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال**)، لـ:علاء الدين علي بن حسام الدين ابن قاضي خان القادري الشاذلي الهندي البرهانفوري ثم المدني فالمكي الشهير بالمتقي الهندي، تحقيق: بكري حياني ـ صفوة السقا، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الطبعة الخامسة، (1401هـ ـ1981م)

ـ (**مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**)، لـ:أبي الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي، تحقيق: حسام الدين القدسي، الناشر: مكتبة القدسي، القاهرة، عام النشر: (1414 هـ، 1994 م)، عدد الأجزاء: (10).

ـ (**مجموع الفتاوى**)، لـ: تقي الدين أبي العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، تاريخ النشر: (1416هـ ـ 1995م).

ـ (**محاسن الإسلام وشرائع الإسلام**)، لـ: أبي عبد الله محمد بن عبد الرحمان البخاري، مكتبة القدسي للنشر القاهرة، سنة: (1357 هـ).

ـ (**محاضرات في مقاصد الشريعة**) لـ: أحمد الريسوني، دار الكلمة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، (1434 هـ ـ 2013م).

ـ (**مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين**)، لـ: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد المعتصم بالله البغدادي، دار الكتاب العربي ـ بيروت، الطبعة الثالثة، (1416 هـ ـ 1996م)، عدد الأجزاء: (2).

ـ (**مدخل إلى مقاصد الشريعة**)، لـ: أحمد الريسوني، دار الكلمة للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، (1431 هـ ـ 2010م).

ـ (**مسند أبي يعلى**)، لـ: أبي يعلى أحمد بن علي بن المثُنى بن يحيى بن عيسى بن هلال التميمي، الموصلي، تحقيق: حسين سليم أسد، الناشر: دار المأمون للتراث ـ دمشق، الطبعة الأولى، (1404 هـ 1984م)، عدد الأجزاء: (13)

ـ (**مسند الإمام أحمد بن حنبل**)، لـ: أبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ـ عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، (1421 هـ ـ 2001 م).

ـ (**معجم الصواب اللغوي دليل المثقف العربي**)، لـ:أحمد مختار عمر بمساعدة فريق عمل، عالم الكتب، القاهرة، الطبعة: الأولى، (1429 هـ - 2008 م).

ـ (**معجم اللغة العربية المعاصرة**)، لـ: أحمد مختار عبد الحميد عمر، بمساعدة فريق عمل، عالم الكتب، الطبعة الأولى، (1429 هـ - 2008 م).

ـ (**معجم لغة الفقهاء**)، لـ: محمد رواس قلعجي و حامد صادق قنيبي، دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، (1408 هـ ـ 1988م)،

ـ (**معجم مقاييس اللغة**)، لـ: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبي الحسين، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، عام النشر: (1399هـ ـ 1979م).

ـ (**مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة**)، لـ: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية ـ بيروت، عدد الأجزاء:(2 × 1).

ـ (**مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة**)، لـ: عبد المجيد النجار، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الثانية: (2008م).

ـ (**مقاصد الشريعة تأصيلا وتفعيلا**)، لـ: محمد بكر إسماعيل حبيب،، إدارة الدعوة والتعليم سلسلة دعوة الحق كتاب شهري محكم، (1427 هـ)، السنة الثانية والعشرون، العدد: (213).

ـ (**مقاصد الشريعة عند ابن تيمية**)، لـ: يوسف أحمد محمد البدوي، رسالة مقدمة لاستكمال متطلبات درجة الدكتوراه في الفقه وأصوله، نوقشت بتاريخ: (22 ديسمبر 1999م)، بالجامعة الأردنية ـ كلية الشريعة، دار النفائس للنشر والتوزيع ـ الأردن.

ـ (**مقاصد العقائد عند الإمام الغزالي**)، لـ: محمد عبدو، الشركة العربية للأبحاث والنشر، (د ـ ت ـ ط).

ـ (**منازل السائرين**)، لـ: أبي إسماعيل عبد الله بن محمد بن علي الأنصاري الهروي، دار الكتب العلمية ـ بيروت، (د ـ ت)، عدد الأجزاء: (1).

ـ (**موسوعة قضايا إسلامية معاصرة الجزء الخامس مقاصد الشريعة**)، لـ: محمد الزحيلي، دار المكتبي للطباعة والنشر، سوريا دمشق، (د ـ ت ـ ط).

ـ (**موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم**)، لـ: محمد بن علي ابن القاضي محمد حامد بن محمّد صابر الفاروقي الحنفي التهانوي، تحقيق: د. علي دحروج، نقل النص الفارسي إلى العربية: د. عبد الله الخالدي، الترجمة الأجنبية: د. جورج زيناني، الناشر: مكتبة لبنان ناشرون – بيروت، الطبعة الأولى، (1996م)، عدد الأجزاء: (2).

ـ (**نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي**)، لـ: أحمد الريسوني، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الطبعة الثانية، (1412 هـ ـ 1992م)، عدد الأجزاء: (1).

ـ (**نظرية المقاصد عند الإمام محمد الطاهر بن عاشور**)، لـ: إسماعيل الحسني، المعهد العالمي للفكر الاسلامي، الطبعة الأولى، (1416هـ ـ 1995م)، جزء واحد.

رابعا: فهرس الأعلام الواردين في البحث

الأعلام الواردين في البحث	الصفحة
إبراهيم بن النبي	74
ابن قيم الجوزية	137/74/67/66/55
ابن تيمة	137/66/51
ابن حجر	62
ابن خلدون	36/26/17/10
ابن عروس	10
ابن عطاء الله السكندري	64
أحمد بن الحاج أبي الضياف بن عمر بن أحمد العوني التونسي، أبو العباس	12/11/10/9
أحمد بن الخوجة	34/31/4
أحمد بن وناس المحمودي	33
أحمد جمال الدين	33
الأشعري، أبو الحسن	73
امرؤ القيس	41
الأمير محمد أعظم	15
الباجي، أبو الوليد	140
بشار بن برد	40
البشير الابراهيمي	43/42
البشير صفر	13
البصيري	31
بني سراج	25
تحسين باي	9
جالينوس	41

جمال الدين الأفغاني	23/21/18/15
الحبيب الجنحاني	21
الحبيب بورقيبة	7
الحسن البصري	71
الحسين السبط	15
الحكيم ابن زهر	41
الحكيم الترمذي	62
خالد بن الوليد	76
الخديوي إسماعيل	15
خليل بوحاجب	22
خير الدين باشا التونسي، أبو محمد	14/12/10/6/5
ذُو الخُوَيْصِرَة	75
ذو الرمة	51
رفاعة رافع بن بدوي بن علي الطهطاوي المصري	15
الزركشي	60
السبكي	62
سعد زغلول	18
السلطان الصالح إسماعيل ابن العادل	64
سلطان باشا	18
سليمان أباظة	18
سيدي ابن عروس	10
السيلكوتي	41
الشاطبي، أبو إسحاق	/83/73/70/66/62/56 115/107/100
الشاه ناصر الدين	16

شاه ولي الله الدهلوي	67
شكيب أرسلان	19
شيخ الإسلام عارف بك	12
الشيخ سالم بوحاجب	33
الشيخ محمد النجار	49
الصابي، أبو إسحاق	25
الطوفي	65
عَامِرُ بْنُ الطُّفَيْل	76
عائشة بنت أبي بكر الصديق	108
عبد الحميد الثاني	3
عبد الحميد بن باديس	26
عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني	67
عبد العزيز الثعالبي	13
عبد الكريم سلمان	18
العز بن عبد السلام	117/64/50
علي بن أبي طالب	77/76/75
علي بوشوشة	13
علي عبد الرزاق	39/24/14
عمر بن أحمد المعروف بابن الشيخ	33
عُمَر بن الخطاب	142/97/83
عُيَيْنَةَ بْنِ بَدْرٍ	76
الغزالي، أبو حامد	161/137/73/64/63
فخر الدين الرازي	88/73
فيصل بن الحسين	19
القرافي	55

القرطبي	137/83
كمال أتاتورك	4
لوثروب ستودارد	25
مالك بن أنس الإمام	36
محمد الأصرم	6
محمد البشير النيفر	24
محمد الحجوي	27
محمد الخضر حسين	42
محمد السنوسي	20
محمد الصادق باشا بن حسين باي التونسي	5
محمد الصنادلي	13
محمد الطاهر ابن عاشور الأول (الجد)	32/30
محمد العربي الدرعي	33
محمد العزيز بوعتور	9
محمد الفاضل بن عاشور	40/12
محمد النخلي	33
مَحَمد باي	10
محمد بن إدريس الشافعي	51
محمد بن عبد الكبير الكتاني	87
محمد بيرم الخامس	11
محمد خليل	18
محمد رشيد رضا	19
محمد صالح الشريف	33
محمد عبده	18
محمد محسن الأكبر	22

محمود بن محمد بن محمد بن عمر بن قابادو التونسي الشريف الأندلسي	11/9
نازلي هانم	22
الهروي، شيخ الإسلام	63
الوزير العالم محمد العزيز بوعتور	33/32/31/30

خامسا: فهرس المصطلحات والجمعيات والأحزاب والمدارس الواردة في البحث

المصطلحات الواردة في البحث	الصفحة
الأسرار	162/147/86/73/65/64/63/62/59/56
التشريع	160/152/123/102/101/99/98/90/83/81/73/56
الحكم	...105/95/91/84/83/82/80/74/72/71/70/66/64/63
العلل	....162/83/73/70/62/59
الغرض	...129/122/72/48
الفطرة	151/99/98/97/38/95
فقه الفقه	60
المراد	59/56
المصالح	104/103/101/85/80/78/74/73/70/66/65/61/56
المفاسد	139/135/116/70/55
المقاصد	...54/53/49/47/48
العقيدة	....89/83/78/69/68/67/60/53/50/49/48
جمعيةُ الاتحاد والترقي	3
جمعية الخلدونية	6
جمعية قدماء الصادقية	6
الحزب الدستوري الجديد	7
حزب تركية الفتاة	3
المدرسة السياسية الإصلاحية	9
المدرسة العلمية الفكرية	9

سادسا: فهرس البلدان والمدن والقرى

أسماء البلدان والمدن والقرى	الصفحة
الأبازة أو الأبخاز، بلاد القوقاز	9
الأزهر	42/18/15
الآستانة	5
إسلامبول	5
الإفريقية	4
أوربا	25
إيران	15
إيطالية	25
باردو	11/5
باريس	18/16
برلين	19
بريطانيا	16
بلدة رأس الجبل	35
بنها بمصر	18
بيروت	19/18
بيزنطة	5
الترام	7
الترنسفال جنوب إفريقيا	39
تونس	20
جامع الزيتونة	26
الجزائر	42/26/18/21
جنيف (بسويسرة)	25

الحجاز	54/19
حوران	25/19
الحيرة	19
دمشق	37/42/19/25
الرباط	28
الزقازيق بمصر	18
الزلاج	7
سلا بالمغرب الأقصى	30
سورية	19
الشام	52
الشمال الإفريقي	20
الشويفات (بلبنان)	19
صفاقس	34
طرابلس ليبيا	27
طنطا	18
طهطا	15
فاس	27
فرنسا	15/7
القاهرة	37/42//15/18/11
القرويين بالمغرب	27/20
القسْطَنْطِيْنِيَّة	5
قسنطينة	26
قصر الباي بـ(تونس)	9
القلمون	19
كلكته (calcouta)	21

مجلس المعارف	15
المرسى	30
مصر	52/39/19/18/15/12/11
المغرب	30/27
نملة من قرى المنستير	34
الهند	19

سابعا: فهرس الفرق والمذاهب والأهواء والنحل

أسماء الفرق والمذاهب والأهواء والنحل	الصفحة
الأشاعرة	73
أصحاب الظاهر (الظاهرية)	70
الخوارج	76/75/71
الكماليون	4
المعتزلة	71
النصارى	58
اليهود	58
الجهمية	50

ثامنا: فهرس موضوعات البحث

موضوعات البحث	الصفحة
عنوان موضوع البحث	/
البسملة	/
الشكر والتقدير	/
الإهداء	/
مقدمة	أ
تمهيد موجز	أ ـ ب
أسباب اختيار الموضوع	ب
الأسباب الذاتية	ب
الأسباب الموضوعية	ب
إشكالية البحث	ت
أهمية موضوع البحث	ت ـ ث
أهداف البحث	ث
الدراسات السابقة	ج
الجديد في الدراسة	ح
منهجية البحث	خ
المنهج المتبع في البحث	خ
الخطة المتعبة في البحث	د ـ ذ
الفصل الأول ترجمة الشيخ محمد الطاهر بن عاشور	1
المبحث الأول: عصر الشيخ محمد الطاهر بن عاشور	3
المطلب الأول: المراحل التي عاصرها الشيخ الطاهر ابن عاشور	4

المطلب الثاني: عوامل نشوء الفكر الإصلاحي عند ابن عاشور	4
المبحث الثاني: حياة الإمام العلمية والعملية	4
المطلب الأول: المراحل التي عاصرها الشيخ الطاهر ابن عاشور	4
المرحلة الأولى: ما قبل الاحتلال	4
المرحلة الثانية: مرحلة الاحتلال	6
المرحلة الثالثة: مرحلة الاستقلال	7
المطلب الثاني: عوامل نشوء الفكر الإصلاحي عند ابن عاشور	8
أوَّلًا: علماء القطر التونسي (داخليا)	8
الأولى: (المدرسة السياسية الإصلاحية)	9
الثانية: (المدرسة العلمية الفكرية)	9
نماذج من المدرسة السياسية الإصلاحية	9
1 ـ خير الدين باشا التونسي، أبو محمد	10
2 ـ أحمد بن أبي الضياف	11ـ 10
3 ـ محمود قابادو	12ـ 11
ثانيا: أهم الأحداث الداخلية في هذه المرحلة	12
1 ـ الاتجاهات الفكرية القوية بالمشرق	15
الاتجاه الأول: الاتجاه العلماني	15
الاتجاه الثاني: الاتجاه السياسي	15
ـ صلة ابن عاشور بمحمد رشيد رضا	23
ـ تأثر ابن عاشور بشكيب أرسلان	25
ـ علاقة الشيخ ابن عاشور بتلميذه عبد الحميد بن باديس	26
ـ علاقته بالشيخ محمد الحجوي	28
المبحث الثاني حياة الإمام العلمية والعملية	30

المطلب الأول: حياته الشخصية ونشأته العلمية	30
1 ــ اسمه ولقبه ونسبه	30
2 ـ مولده	30
3 ـ أسرته	30
4 ـ شيوخه	32
ـ الشيخ محمد العزيز بوعتور	33
ـ الشيخ محمود بن الخوجة، أبو الثناء	34
ـ الشيخ سالم بوحاجب المنستيري التونسي	34
ـ عمر بن الحاج أحمد بن علي بن الشيخ، أبو حفص	35
المطلب الثاني: أعماله ووظائفه وتآليفه	35
أولا: أعماله ووظائفه	35
1 ـ مجال الإدارة	35
2 ـ مجال الإصلاح	36
3 ـ مجال التدريس	36
ثانيا: مؤلفات الطاهر ابن عاشور	37
أ ــ الآثار المطبوعة	38
ب ـ تحقيق الكتب	40
ج ـ الآثار المخطوطة	40
ثالثا:وفاته	41
رابعا: ثناء العلماء عليه	42
الفصل الثاني علم مقاصد العقائد: نشأته، قواعده، وفوائده	46
المبحث الأول: تعريف علم مقاصد العقائد وبعض قواعده	47
المطلب الأول: تعريف علم مقاصد العقائد لغة واصطلاحا	47

أولا: مفهوم لفظة (المقاصد) في اللغة والاصطلاح	48-47
ثانيا: مفهوم لفظة (العقيدة) في اللغة والاصطلاح	48
ثالثا:تعريف مقاصد العقائد كلقب مستقل	49
هل العقائد مبنية على التصديق أم على الطلب (الإنشاء)؟	50
مكانة المقاصد العقدية ضمن العلوم الشرعية	52
الصفات الضابطة للمقاصد الشرعية	53
المطلب الثاني: طرق إثبات المقاصد الشرعية	54
ـ الطريق الأول: (استقراء الشريعة)	54
ـ الطريق الثاني: أدلة القرآن واضحة الدلالة	54
ـ الطريق الثالث: السنة المتواترة	54
المطلب الثالث: مستويات المقاصد	55
المبحث الثاني: نشأته وآفاقه	60
المطلب الأول: لا مقصد إلا بدليل	60
المطلب الثاني: نشأة علم مقاصد العقائد وآفاقه المستقبلية	62
المطلب الثالث: مسألة تعليل أفعال الله وعلاقتها بعلم المقاصد	70
أولا: مذهب الشيخ ابن عاشور في مسألة تعليل أفعال الله عز وجل	71
ثانيا: تعليل أفعال الله عز وجل منهج القرآن والسنَّة	73
المبحث الثالث: فوائد العلم بمقاصد العقائد	77
المطلب الأول: فوائد معرفة المقاصد مشتركة لجميع أطياف الأمة	78
1 ـ ترسيخ العقيدة	78
2 ـ زيادة الإيمان بمعرفة المقاصد	78
3 ـ تحقيق العبودية	79
4 ـ نيل العزة والتمكين وسعادة الدنيا	79
5 ـ حصول الطمأنينة بمعرفة العواقب والمآلات	80

المطلب الثاني: فوائد معرفة المقاصد للعلماء والدعاة	81
1 ـ العلم قبل العمل	81
2 ـ التدرّج في إصلاح الأمة بالحكمة والموعظة الحسنة	82
3 ـ بيان الحق والردّ على شبهات المبطلين وأعداء الإسلام	84
4 ـ تقليل الخلاف في الأمة	87
5 ـ نيل السعادة في مقامات الوظائف الاجتماعية	88
المطلب الثالث: خطر إهمال المقاصد	90
1ـ إهمال المقاصد سبب للتفرق والاختلاف في فهم النصوص الشرعية	90
2 ـ إهمال المقاصد يطعن في صلاحية الشريعة وخلودها	90
3 ـ إهمالها يؤدي إلى عدم معرفة دلالات النصوص وأغراضها والحكمة منها	91
الفصل الثالث المقاصد العقدية عند الشيخ الطاهر ابن عاشور	92
المبحث الأول: تأصيل المقاصد العقدية عند الشيخ الطاهر ابن عاشور	95
المطلب الأول: العلاقة بين مقاصد الشريعة ومقاصد العقيدة	95
أولا: علاقة العقيدة بأصل الفطرة	95
ثانيا: أصل الفطرة وما اشتمل عليه من المظاهر	99
المطلب الثاني: صلاح التصورات (العقائد) أساس صلاح الشرائع	101
المبحث الثاني: أهمية العقائد واشتمالها على مقاصد	104
المطلب الأول: ضرورة إصلاح العقل والأفكار (العقائد)	104
أولا: حفظ الدين (العقيدة أعظم المصالح والكليات الخمس)	104
ثانيا: العقيدة أولا (التخلية قبل التحلية)	105
ثالثا: اشتمال العقائد على مصالح	105
رابعا: تأصيل العقيدة	106
المطلب الثاني: إصلاح التفكير في مجال العقيدة	108

أولا: علاقة التفكير بالعقيدة	108
ثانيا: خطوات إصلاح التفكير	110
1 ـ إقامة الحجة والبرهان	111
2 ـ بيان اضطراب عقائد الضالين	111
3 ـ الدعوة إلى نبذ التقليد	112
4 ـ إظهار التناقض في عقائدهم	112
5 ـ معرفة العقيدة الصحيحة بالدليل (مقام التخلية والتحلية)	112
المبحث الثالث: دور العقيدة في إصلاح العمل وإيجاد الوازع النفسي	114
المطلب الأول: دور العقيدة في صلاح العمل	115
أولا: صلاح الأعمال بصلاح النيات	115
ثانيا: إصلاح العمل بين التحذير والتحريض	116
المطلب الثاني: إيجاد الوازع النفسي	117
أولا: الإيمان بالله واليوم الآخر أصل الوازع النفسي	117
ثانيا: غرس محبة الله ورسوله في النفوس	118
ثالثا: الرضا والتسليم لله ورسوله	118
رابعا: التحذير من الشيطان وخطواته	118
خامسا: التوبة تجديد للوازع	120
الفصل الرابع أمثلة تطبيقية لبعض المقاصد العقدية عند الإمام الطاهر ابن عاشور	121
المبحث الأول: المقاصد العامة للشريعة	123
المطلب الأول: المقصد العام للتشريع	123
المطلب الثاني: المقاصد الكلية للعقائد	126
المبحث الثاني: المقاصد العامّة للعقيدة	128
المطلب الأول: مقصد الإيمان بالغيب	128

المطلب الثاني: مقاصد الإلهيات	129
أولا: مقصد توحيد الألوهية (العبادة)	129
1 ـ مقصد التوكل على الله تعالى	131
2 ـ مقصد الدعاء	132
3 ـ مقصد الاستعاذة	133
4 ـ مقصد ذكر الله عز وجل	134
ثانيا: مقاصد الإيمان بالربوبية	134
1 ـ شكر الله عز وجلّ بالتوحيد وترك الكفر	134
2 ـ تنزيه الله تعالى	135
3 ـ تقوى الله عز وجل	135
4 ـ المراقبة	135
5 ـ الجزاء	136
ثالثا: مقاصد الإيمان بصفات الله تعالى	136
أ ـ الدعاء بها	136
ب ـ التخلّق بها	137
ج ـ نماذج لبعض صفات الله تعالى	138
1 ـ صفة المعية	139
2 ـ صفة المغفرة	139
3 ـ صفة المحبة	139
4 ـ صفة الإبصار	139
5 ـ صفة الرحمة	139
د ـ مفاسد تعطيل صفات الله تعالى	139
رابعا: الإيمان بالقضاء والقدر مفهومه ومقاصده	139
أ ـ المفهوم الصحيح للقضاء والقدر	139

ب ـ عزاء للمؤمن عند حلول المصائب	140
جـ ـ الأخذ بالأسباب مع التوكل على الله	141
المطلب الثالث: مقاصد النبوات (الملائكة، الكتب، الرسل)	143
أولا: مقصد الإيمان بالملائكة	143
ثانيا: مقاصد الإيمان بالكتب السماوية	144
1 ـ المقصد العامّ من إنزال الكتب	144
2 ـ مقاصد من إنزال القرآن الكريم	145
أ ـ إصلاح الأمة	145
ب ـ شفاء وهدى ورحمة	145
ج ـ إقامة الحجة على الخلق	146
د ـ إخراج الناس من الظلمات إلى النور	146
هـ النجاة والعصمة في الدنيا والآخرة	147
و ـ البشارة والنذارة	148
3 ـ مقصد إنزال القرآن الكريم باللغة العربية	148
4 ـ مقصد نسخ شريعة بشريعة أخرى	149
ثالثا: مقاصد الإيمان بالرسل	150
1 ـ الدعوة إلى التوحيد بالبشارة والنذارة	152
2 ـ العمل بتعاليم الرسل	152
3 ـ إقامة الحجة على الخلق	152
4 ـ تعليم الناس فضائل النبوة	152
المطلب الرابع: مقاصد الإيمان بالسمعيات	154
1 ـ مقصد خلق الموت	154
2 ـ مقصد الإيمان باليوم الآخر والبعث والحساب	154
أ ـ مقصد الإيمان بالبعث والنشور	155

ب ـ مقصد الجزاء والحساب على الأعمال	156
ج ـ مقصد الشفاعة	157
د ـ مقصد الإيمان بالحنة والنار	158
خاتمة البحث (أهم نتائجه وتوصياته)	160
الفهارس العامة	164
أولا: فهرس الآيات القرآنية الكريمة	165
ثانيا: فهرس الأحاديث النبوية الشريفة	174
ثالثا: فهرس المصادر والمراجع	177
رابعا: فهرس الأعلام الواردين في البحث	188
خامسا: فهرس المصطلحات والجمعيات والأحزاب والمدارس	193
سادسا: فهرس البلدان والمدن والقرى	194
سابعا: فهرس الفرق والمذاهب والأهواء والنحل	197
ثامنا: فهرس موضوعات البحث	198

تم بحمد الله تعالى

وحسن عونه وتوفيقه

an introduction

Praise be to Allaah. We seek refuge in Allah from the evils of ourselves and from the evils of our actions. Whoever is guided by Allah is not misguided, and whoever mislead is not guided by Him. I testify that there is no god but Allah.

After:

Surely, the interest of scholars and reformers in the past and recent times is introducing the faith and correcting it in the hearts of the believers stems from a deep and thorough understanding of the orders of the religion and its priorities and the arrangement of sections on the fundamentals.

Since the purposes are the human deeds , the beliefs do not show their impact on the human beings unless they meet their purposes, the beliefs affect the soul to show their effects on all actions to achieve the governance and the benefits desired.

This research serves the same purpose, namely, rooting, sanctifying and controlling the origins of this great science.

1_ Reasons for choosing a topic:

My choice for this subject stems from many reasons, including good advice and careful guidance to take advantage of and saved from my teachers, God save, and that I wanted to go to this area, which is still unknown to many researchers.

In addition to that , convictions vary, the most important contribution to the renewal of methods of teaching nodal, linking beliefs with their purposes to increase discipline and understanding.

As well as the desire to benefit from one of the greatest scholars of the Arab Maghreb.

2_ Problematic Search:

This research attempts to come out with an overview, showing that Sheikh Tahir bin Ashour took into consideration the purposes of beliefs in his works by establishing and detailing the issues of the faith. He also tackled the common principles of deviations in the Islamic Ummah, ; Here arises the following problem, namely:

Did Sheikh Tahir (may Allaah have mercy on him) chose to employ the knowledge of Maqasid in the field of Islamic faith ?, or not ?, and what is his proof in that ?, and what is his course and approach that he followed in the folds of his books ?.

To answer this problem of my studies, some important questions were raised

Such as the definition of (the purposes of nodal) in the thought of Sheikh Tahir bin Ashour ?.

Is this new science updated? Or is it a science with origins in our Islamic history and the works of our distinguished scientists?

And what is the relationship between the purposes of the beliefs and legislative purposes ?, Is this science rules to be controlled and easy to understand, and do they have benefits from studying and knowledge?

What are the most important faith purposes that have received the attention of Sheikh Tahir bin Ashour in the folds of his books? And how to address it ?.

3_ The importance of the study:

The subject of "The Purposes of beliefs " is one of the main issues that should be of interest to researchers, despite the efforts of some to clarify its secrets. However, it is still in its infancy, and this is why I chose it as a topic of my studies. , Which is as follows:

1 The importance of this research in dealing with the subject of (purposes of beliefs), which is a number of issues that is the need of the nation, because of the great benefits that benefit the individual and the community.

(2) Encouraging the specialists of those who are interested in the science of Makassed, such as the Shaykh al-Raisouni and other scholars, to engage in this field, bringing interests and pushing the evils.

3 - Explain the reasons that led to ignorance of the purposes of beliefs, and lack of authorship, despite the great potential of our Islamic nation.

4- Statement of Sheikh Taher bin Ashour's contribution in this field.

4_ Objectives of the study:

My study is aimed at:

First: Clarifies the concept of the purposes of Islamic beliefs and contributes to the establishment of this science.

Second: the effort made by a scientist for the scientists of his time which was credited to our homeland has graduated many of the scholars of Algeria.

Third: The reference to the most important purposes (college) and (public) which are the assets on which the other purposes are based: (private) and (partial).

Fourth: to come out with a comprehensive vision and full awareness of the importance and benefits of the purposes of the beliefs and their role in individual and collective reform.

Fifth: Link between the purposes of Sharia and the purposes of beliefs, in terms of approach and control and attention.

5_ New things in this study:

I tried in my study to present the features of the thought of Imam al-Tahir Ibn Ashour Aqdi, through the following points mentioned:

A) Introduce some rules, regulations and additions that shed light on the purposes of the beliefs so that the science students can build on them.

B) to reveal the interest of Sheikh Tahir Ben Ashour in the purposes of his beliefs.

C) Linking the purposes of (Sharia and beliefs) in terms of the curriculum, and indicating some of the differences between them.

D) Presentation of examples of the doctrinal purposes addressed by the Imam (may Allaah have mercy on him).

6_ Research methodology:

In this study, I used several approaches according to the need. In the first chapter I used the descriptive historical method to introduce Sheikh Tahir Ibn Ashour while I used the deductive method when talking about the subject of the purposes of beliefs and mentioned its rules and its benefits.

It has sometimes relied on a critical analytical approach when needed, as required by the scientific need to clarify issues in order to produce a comprehensive integrated vision.

7_ Plan adopted in the research:

The multiplicity of research topics and the diversity of its issues forced me to pursue an academic scientific plan that I saw best suited to me. I divided it into an introduction, four chapters and a conclusion.

In the introduction, I pointed to the importance of the purposes of the beliefs, and the statement of the problem underlying the subject, and the reasons that led me to objectivity and self and then indicate the importance of this study and its objectives and the most important studies The new extensions and the methods used to explain the issues and issues along with the statement of the approved plan and the methodology that I have followed in my studies.

As for the first chapter, it was translated to Sheikh Taher bin Ashour God's mercy, divided into two sections: the first of which devoted to talk about the environment and age, and the second allocated to his scientific life and jobs that imitated and then mentioned his work process printed and manuscript, and concluded by praise scientists.

While in the second chapter it focused on the rooting of the subject of the purposes of beliefs and made it into three sections in which it dealt with the concept of the science of the purposes. This knowledge was defined in a near definition as: "The goals the results and the desired benefits of the pillars of faith. The beliefs was put in order to achieve for the benefit of slaves ».

And then separated a little in the matter of explaining the acts of God and showed some of the rules of this science and levels of purposes and how to draw them and benefits and the risk of ignorance.

As for the third chapter , I devoted it to the purposes of the beliefs of Sheikh Tahir Ibn Ashour may God have mercy on him, where it showed its relationship to the purposes of legitimacy, and the inclusion of beliefs on the purposes and interests and the role of faith in the reform of work and finding psychological grounds.

While I made the fourth chapter specific to the practical aspect, where I referred to the general purpose of the law and the purposes of the total of the beliefs, and then talked about the general purposes through Sheikh, may God have mercy on him of the purposes of the Decade of the six pillars of faith, concerning the divinity and prophecies and hearing, and Other purposes of beliefs.

8_ Search Results and Recommendations:

In my research, I have reached a number of conclusions and recommendations that show the status of Sheikh Tahir Ben Ashour and his valuable works . I can present these results in the following points:

The appearance of the features of greatness in the personality of Sheikh Ibn Ashour, despite the difficult circumstances in which he grew up, and many influences that surrounded him in his life, yet did not lose his strength, and did not weaken his determination and effort.

The high scientific standing occupied by the Imam in the hearts of the members of the Islamic nation, he is one of the famous scientists in the scientific circles in the east and west of the Islamic country.

And his ability to withstand the difficulties, including: the Sheikh of the Grand Mosque, and the position of the sheikh of Islam.

The great value of his works, and his great scientific and practical efforts in the service of the religion of Islam, all indicate his great contribution in this regard, especially in the formulation of his unique concept of Makassid, which confirms his scientific status, useful works and important functions.

His concern is clear knowledge of the purposes, whether it is the provisions of Islamic law or beliefs, he views religion as a single block, and therefore is considered the second founder Sheikh of this science after Imam Abu Ishaq al-Shatby God's mercy.

The importance of my research is that it highlights the beliefs aspect of the thought of Shaykh Ibn Ashour, which is an important aspect of his life. The Sheikh paid great attention to him and therefore focused on the statement of the purposes of the beliefs, because he did not receive enough attention from scholars and scholars, .

Emphasis is placed on the fact that the knowledge of the purposes of the beliefs is a stand-alone science and has a strong relationship with the knowledge of the purposes of the Shariah. They share the terms that are used for them, such as kafs (makasid), secrets, ills, benefits, With signs so that the search does not come out of its content.

This research is a modest academic scientific study that contributes to the rooting of this great science, in which practical examples are the guiding light for scholars and role models for the workers. Science is in its beginnings, introductions and perceptions, then grows and is completed gradually until it becomes specializations, rules and principles taught, .

In my research, I have made some recommendations as follows:

1_ Trying to set the term (purposes of beliefs), it needs to adjust and check.

2_ Trying to come out with general contractual purposes, by reference to the original sources and important references especially, advanced written by those who worked with this science, to the latecomers, which would be a useful asset for specialized researchers and a common ground.

3_ Encourage the study of this great science and the collection of academic studies that dealt with the study, there are those who studied this topic in Tunisia, Morocco and Malaysia, but have no impact in our universities.